دراسة المخطوطات الإسلامية بين اعتبارات المادة والبشر

أعمال المؤتمر الثاني لمؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي

دراسة المخطوطات الإسلامية بين اعتبارات المادة والبشر

أعمال المؤتمر الثاني لمؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي

ديسمبر ١٩٩٣/ جمادى الآخرة ١٤١٤

إعداد

الدكتور رشيد العناني

أستاذ مشارك اللغة العربية وآدابها
جامعة إكستر ـ المملكة المتحدة

مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي

لندن ١٤١٧/١٩٩٧

British Library Cataloguing-in-Publication Data
A catalogue record for this book is available from the British Library

ISBN 1 873992 21 1

Al-Furqān Foundation Library Cataloguing Data

DIRĀSAT AL-MAKHṬŪṬĀT AL-ISLĀMĪYAH BAYNA I'TIBĀRĀT AL-MĀDDAH WA-AL-BASHAR (2nd: 1993: London)
Dirāsat al-makhṭūṭāt al-Islāmīyah bayna i'tibārāt al-māddah wa-al-bashar: a'māl al-mu'tamar al-thānī li-Mu'assasat al-Furqān lil-Turāth al-Islāmī -
دراسة المخطوطات الإسلامية بين اعتبارات المادة والبشر: أعمال المؤتمر الثاني لمؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ديسمبر ١٩٩٣/جمادى الآخرة ١٤١٤ / إعداد رشيد العناني. – لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤١٧/١٩٩٧.
227p.: plates; 24cm. – (مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي؛ رقم النشر: ٢١)

Contents:
الجزء الأول: دراسة المخطوطات الإسلامية: اعتبارات المادة: ص: ١٥-١٥٢؛ الجزء الثاني: دراسة المخطوطات الإسلامية: اعتبارات البشر: ص: ١٥٣-٢٢٧.
1. Manuscripts, Islamic-Codicology-Congresses 2. al-Furqān Islamic Heritage Foundation (London, Great Britain)-Congresses
I. al-'INĀNĪ, Rashīd, ed. II. Title (Transliterated) III. Series
Z6620.3.D5 Accession no.: 11323
ISBN 1 873992 21 1

Published by Al-Furqān Islamic Heritage Foundation, London, UK
Printed by The Alden Press Ltd, Oxford, UK

رقم النشر: ٢١

مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي

Al-Furqān Islamic Heritage Foundation
Eagle House
High Street
Wimbledon
London
SW19 5EF

المحتويات

تمهيد
أحمد زكي يماني ٧
تقديم
رشيد العناني ٩

الجزء الأول: الاعتبارات المادية في دراسة المخطوطات

مصدران جديدان عن صناعة المخطوط:
حول فنون تركيب المداد
إبراهيم شبوح ١٥

استخدام الورق في المخطوطات الإسلامية
كما سجلته النصوص الفارسية القديمة
إيرج أفشار ٣٥

البرديات العربية
جفري خان ٥٧

خصائص تجليد المخطوطات في العصر المملوكي
سهام محمد المهدي ٧٧

استخدام الرق في المخطوطات الإسلامية: ملاحظات تمهيدية
فرانسوا ديروش ٩٣

تسافير مكتبة القيروان العتيقة
مراد الرماح ١٣٥

الجزء الثاني: الاعتبارات البشرية في دراسة المخطوط

طريقة التأليف عند القدماء
من خلال مسودة المقريزي لكتاب الخطط
أيمن فؤاد سيد ١٥٣

العنصر البشري بين النص والقارئ:
الإجازة في المخطوطات العربية
جان جاست ويتكام ١٦٣

أهمية صفحة العنوان (الظهرية) في توصيف المخطوطات
رمضان ششن ١٧٩

كتب النماذج والوثائق القانونية:
تطور مخطوطات العدول في المغرب
ليون بسكنز ١٩٧

ظاهرة المخطوطات مجهولة المؤلف:
المخطوطات التاريخية والجغرافية مثالا
محمد بن شريفة ٢٠٧

بسم الله الرحمن الرحيم

ركزت مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، منذ تأسيسها سنة ١٩٨٩، أوجه نشاطها على تشجيع البحث والدراسة في مجال المخطوطات الإسلامية. وشمل ذلك النشاط مسح المخطوطات الإسلامية عالمياً ووضع القوائم والفهارس لها ونشر المهم منها. كما قامت المؤسسة بعقد مؤتمر عام كل سنتين يركز على جانب من الجوانب المتعلقة بالمخطوطات، وكان المؤتمر الأول سنة ١٩٩١، المتزامن مع افتتاح المؤسسة، متعلقاً بأهمية المخطوطات الإسلامية بشكل عام. وقد تم نشر أعمال ذلك المؤتمر سنة ١٩٩٢ تحت عنوان «أهمية المخطوطات الإسلامية».

تميز المؤتمر الثاني سنة ١٩٩٣ بطابع تقني ركز على الجوانب الفنية في إنتاج المخطوطات في العالم الإسلامي. ونقدم هنا أعماله المشتملة على الأبحاث التي ألقيت ونوقشت فيه. وقد أعقب هذا المؤتمرتنظيم ثلاث دورات تدريبية على فهرسة المخطوطات الإسلامية، في الفترة من يناير ١٩٩٤ حتى يونيو ١٩٩٥، كانت الأولى في القاهرة والثانية في إستانبول والثالثة في لندن. وستقوم المؤسسة - إن شاء الله - بنشر المحاضرات التي ألقاها بعض من خيرة الباحثين في تلك الدورات لتكون بمثابة مرجع لعلم فهرسة المخطوطات الإسلامية.

وإنا لنرجو أن يكون في نشر هذا المجلد ونشر دليل الفهرسة عون للباحثين والدارسين للعلوم الإسلامية بصفة عامة ومخطوطاتها بصفة خاصة.

ما كان للفرقان أن تنجز في فترة قصيرة من الزمن ما أنجزته لولا أن امتدت يد المولى لتمنحنا العون والتوفيق، فله جل وعلا الحمد من قبل ومن بعد.

أحمد زكي يماني

تقديم

لعل غاية ما تثيره، لفظة «المخطوطات» من دلالة في أذهان عامة الباحثين والقراء أنها مدونات نادرة مكتوبة باليد وتشتمل على معارف القدماء، وأنها تراث ثمين ينبغي جمعه من مظانه وصيانته من عناصر الهلاك وتصنيفه حسب مؤلفيه وموضوعاته، كما ينبغي توفير سبل الإطلاع عليه للعلماء المختصين حتى يقوموا على تحقيقه وطبعه ونشره فيصير بذلك متاحا على نطاق عريض للملأ من الدارسين والباحثين في شتى فروع المعرفة البشرية ممن لا دربة لديهم ولا صبر على فن مقاربة المخطوطات. أما ما يغيب عن الذهن - فيما خلا أولئك البحاثة المختصين والمكتبيين الفنيين الذين جلّ اشتغالهم بالمخطوطات - فهو أن المخطوطة عالم كامل وفن معقد الجوانب، وأن محتواها المعرفي الذي نصب عليه أغلب اهتمامنا، ما كان تدوينه ليتيسر، وما كان نفعه ليصل إلينا، لولا أن توفرً له حشد من الصناعات والفنون وجمهور من الصنّاع والفنانين، فليس مؤلف المخطوطة وعلمه إلا عنصرا من عناصرها الكثيرة. حقا قد يكون أهم تلك العناصر، إلا أننا لا نجاوز الحد إن قلنا إن علمه كان حريا أن يفنى بفناء صاحبه، فلا يصل إلينا لولا سائر العناصر.

حول تلك العناصر التي تجمع بين ما هو مادي وما هو بشري في صناعة المخطوطات يدور هذا الكتاب الذي يضم بين دفتيه الأبحاث التي ألقيت في المؤتمر الثاني لمؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي الذي انعقد في لندن في الفترة ما بين ٤ و ٥ ديسمبر ١٩٩٣ . وإذا كان المؤتمر الافتتاحي لمؤسسة الفرقان قد تناول الجوانب العامة للتراث العالمي من المخطوطات العربية والإسلامية (راجع «أهمية المخطوطات الإسلامية: أعمال المؤتمر الافتتاحي لمؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٩٩١ »، لندن ١٩٩٢)، فإن المؤتمر الثاني قد ركز على المخطوطة من حيث هي نتاج مادي في المقام الأول توفر على إنتاجه صناع وفنانون محترفون، ومن حيث هي مسرح للتفاعل البشري في المقام الثاني تنطوي دراسته على فهم العلاقات القائمة بين النص من ناحية

وبين طائفة من البشر الذين يتصلون به على نحو الأنحاء. حول هذين المحورين إذن - المادي والبشري - تدور أبحاث هذا الكتاب على نحو ما قسمناها بين جزئيه.

****

يشير إبراهيم شبوح (الأمين العام للمجمع الملكي الأردني، عمان) إلى الأركان الأربعة لصناعة المخطوطات، وهي الكاغد، والمداد والقلم والتسفير، أو - إذا شئنا استخدام العبارة الحديثة - الورق والحبر والخط والتجليد. ومن بين هذه الأركان الأربعة يكرّس بحثه لركن «المداد» أو الحبر، فيقدم لنا وصفا وتعريفا بنصين مخطوطين جديدين، كلاهما من القرن السابع الهجري، أما أحدهما فهو «الأزهار في عمل الأحبار» لمحمد بن ميمون بن عمران المراكشي الحميري، وأما الآخر فهو «تحف الخواص، في طرف الخواص» لمحمد بن محمد بن إدريس القضاعي، المعروف بالقللوسي. أما إيرج أفشار (المدير السابق لمكتبة جامعة طهران) فينتقل بنا في بحثه إلى ركن آخر من أركان صناعة المخطوطات، ألا وهو الكاغد أو الورق، فيحدثنا معتمدا على النصوص الفارسية القديمة عن تسميات الورق في اللغة الفارسية وأساليب صناعته وأنواعه وألوانه المختلفة. وأما جفري خان (أستاذ اللغتين العبرية والآرامية بجامعة كمبريدج) فيصب اهتمامه في الفصل الثالث من هذا الكتاب على نوع آخر من الورق، هو ورق البردي الذي نشأ استخدامه في مصر القديمة وانتقل منها إلى العرب بعد فتحها حيث ظل المغذِّي الرئيسي لصناعة المخطوطات حتى آخر القرن التاسع على الأقل حين بدأت الاستعاضة عنه بالورق. يقدم الأستاذ خان عرضا موجزا لمحتويات البرديات العربية الباقية ويشير إلى بعض ما نشر منها، خاتما بوصف ممتع لأساليب صناعة لفائف البردي والتقاليد الفنية والاجتماعية التي ارتبطت باستخدامها. وإذا كان الباحثون الثلاثة الأوائل قد اختاروا التركيز على الأوراق والأحبار، فإن صاحبة البحث الرابع، سهام محمد المهدي (مدير مساعد متحف الفن الإسلامي ورئيس قسم العملة) تدلف بنا إلى ركن آخر من أركان صناعة الكتاب المخطوط هو التجليد، وتتناول الباحثة فن التجليد في العصر المملوكي بصفة خاصة، متناولة عناصر محددة مثل شكل المخطوط المجلد، وطريقة صناعته والمواد المستخدمة فيها إلى جانب وصف طرق زخرفته وأساليبها المتنوعة.

أما دراسة فرانسوا ديروش (عميد المدرسة العملية للدراسات العليا في باريس) التي تتناول استخدام الرق في المخطوطات الإسلامية فتعدّ دراسة مكملة على نحو ما لبحث جفري خان عن «البرديات العربية» الوارد في الفصل الثالث، ذلك أن الرق والبردي احتلا معا موقع الصدارة في صناعة المخطوطات قبل مجيء عصر الورق. يتناول ديروش في دراسته في قدر غير يسير من التفصيل خواص الرق والوسائل الفنية لتحضيره، باسطا القول حول استخدامه في صناعة المصاحف. ومن ديروش ننتقل إلى دراسة آخرى تعني حصرا بالمخطوطات القرآنية، ألا وهي دراسة مراد الرمّاح (مدير مخبر صيانة المخطوطات والآثار برقّادة، القيروان).

يتناول الرمّاح مجموعة التسافير القيروانية العتيقة التي اكتشفت في أول القرن بمقصورة الجامع الأعظم مقدّما وصفا لفئتيها ومجموعاتهما المختلفة.

بهذا نصل إلى ختام الجزء الأول من الكتاب الذي يتناول الاعتبارات المادية في دراسة المخطوطات.

****

على أن صناعة المخطوطات لا تنحصر في أنواع الرق والبردي والورق، ولا في أمزجة المداد وألوانه وما يغمس فيها من أقلام، ولا في فنون التجليد والزخرفة والتجميل، إنما وراء هذه الجوانب الفنية المادية في إنتاج المخطوطات بشر يقومون على إنجازها، كما أن هناك بشرا آخرين يتلقون المنتج النهائي، أي المخطوطة في شكلها المنجز. العنصر البشري هذا في بعض جوانبه هو مصب اهتمام الباحثين الذين أدرجنا دراساتهم في الجزء الثاني من الكتاب.

لعله من المناسب أن نفتتح الجزء الثاني من الكتاب ببحث أيمن فؤاد سيد (المدير التنفيذي، دار الكتب، القاهرة) في «طريقة التأليف عند القدماء من خلال مسوّدة المقريزي لكتاب الخطط». فالعنصر البشري في حياة أي مخطوطة يبدأ بطبيعة الحال بالعلاقة بينها وبين المؤلف. تمثل مسودة خطط المقريزي مثالا نادرا للتعرف على أسلوب القدماء في التأليف وهو ما يتوفر الباحث على وصفه لنا في دراسته.

ويجدر بنا أن ننوه هنا أن الباحث قد قام حديثا بتحقيق المسوّدة ونشرها في كتاب أصدرته مؤسسة الفرقان في لندن سنة ١٩٩٥ . من العلاقة

بين المؤلف ومخطوطته ننتقل إلى العلاقة بين المؤلف وقرّاءه أو طالبي العلم الدارسين على يديه، وهي علاقة تتم بطبيعة الحال عبر النص المخطوط. هذه العلاقة هي موضوع الدراسة التي يقدمها جان جست ويتكام (أمين المخطوطات الشرقية بمكتبة جامعة ليدن) في موضوع «الإجازة في المخطوطات العربية»، وهي الشهادة التي كان يمنحها صاحب كتاب ما إلى مريد من مريديه فتخوِّل له حق نقل الكتاب أو تدريسه، وكانت تلك الإجازات ترفق بالمخطوطات. ويرى ويتكام أن العكوف على دراستها اليوم حري أن يكشف لنا الكثير عن طبيعة التفاعل بين النصوص وبيئتها الإجتماعية. ومن الإجازات الملحقة بالمخطوطات ينقلنا رمضان ششن (رئيس قسم المخطوطات بمركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية IRCICA ، إستانبول) إلى الظهريات أو صفحات العنوان ويلفتنا إلى أن أهميتها تتجاوز تسجيل اسم الكتاب ومؤلفه، إذ تقدم لنا فيضا من المعلومات الخاصة بتداول مخطوطة ما عن طريق ما هو مدوّن عليها من قيود الرواية والسماع والقراءة والمناولة والتملك والانتقاء والاستفادة وغير ذلك. أما ليون بسكنز (المحاضر في الشريعة الإسلامية بجامعة ليدن) فيقطع بنا شوطا آخر على طريق التدليل على الأهمية الفائقة للمخطوطات - من حيث هي نتاج مادي وبشري - في رفد دراسة التاريخ الاجتماعي للبيئة التي انتجتها، ويلجأ بسكنز في دراسته التمهيدية هذه إلى سوق مثال لما يعنيه من خلال رصده الموجز لتطور مخطوطات شهود العدل في المغرب، وأخيرا فلعله من المناسب وقد بدأنا هذا الجزء ببحث يتناول العلاقة بين المخطوطة ومؤلفها أن نختمه ببحث آخر حول نفس الموضوع وإن كان محور البحث الآن هو افتقاد تلك العلاقة والحاجة إلى إثباتها عن طريق عناصر أخرى في دراسة المخطوطات. ذلك هوبحث محمد بن شريفة (أمين المكتبة العامة بالرباط سابقا) الذي يحدثنا عن ظاهرة المخطوطات مجهولة المؤلف ويشير إلى بعض السبل المتاحة في الكشف عن هويتها.

رشيد العناني
جامعة إكستر - المملكة المتحدة

الجزء الأول: الاعتبارات المادية في دراسة المخطوطات

مصدران جديدان عن صناعة المخطوط:
حول فنون تركيب المداد

إبراهيم شبوح

يعتبر كتاب «عمدة الكتّاب وعدّة ذوي الألباب»، الذي أُلِّف - على الأرجح - للأمير الصّنهاجي تميم بن المعزّ بن باديس، على اقتضابه، أشملَ ما وضعِ في صناعة الكتاب المخطوط[1] تناول فيه مؤلّفه المجهول بتوازن وإيجاز، انتخابَ الأقلام الجيّدة، وبَرْيَها على أجناس الخطوط، وصفة الدواة واختيار آلاتها، وعمل أجناس المداد من أجناس سوداء وملونة، وخلط الأصباغ، والكتابة بالذهب، وعمل ما تُمحى به الكتابة، وإلصاق الذهب والفضّة، وصفةَ مصاقله، وعمل الكاغد وصقله وتعتيقه، والجلد والتجليد وجميع آلاته.

وهذا الأثر المبكّر المنفرد، كان له أثره في أدب صناعة الكتاب المخطوط، والإفادة بتركيب مواده لفترة مديدة. ويتمثل ذلك بوضوح في انتشار نسخه من رامبور بالهند إلى فاس بالمغرب، وما بينهما من عواصم الثقافة الإسلامية. ونجد صداه المباشر بعد تصنيفه بنحو قرن ونصف، في كتاب جامع صنّفه الملك اليمني يوسف بن عمر بن علي بن رسول (٦٩٤هـ/١٢٩٤م)، هو كتاب «المخترع في فنون الصّنع»[2] الذي استوعب الأبواب العشرة الأولى منه استيعابا حرفيا وبشيء من الانتقاء.

ولقد حدّد القدماء[٣] لصنعة الكتاب المخطوط أركانا أربعة، هي: الكاغد، والمداد، والقلم، والتسفير، أو الورق، والحبر، والخط، والتجليد. وهذه المرتكزات، يتقاسم اختصاصها فئات مهنية، تتفاوت في مراتبها الاجتماعية، وتتباين في مستواها العلمي، وتنغلق كل منها عن الأخرى في الغالب، مما عاق تطوّر التأليف في هذه الصناعة بالمنظور الشامل الجامع الدقيق، الذي ارتاده كتاب «العمدة».

وعلى هذا، لم يكن حظّ هذه الأركان الأربعة متوازنا في معارفنا، ذلك أن القادرين على التمييز والكتابة، والوعي بضبط التّجارب للأجيال، يبدأ اهتمامهم من مرحلة القلم والخطّ، ويخرجون منها إلى التدوين والتأليف، وبهذا كان هذا الجانب كثير الثراء، واضحا بكل جزئيات العمل المرتبط به، ومسجّلا لتطور الخطّ وقواعده، وجودة المجيدين فيه. وأسرارُ كل ذلك موثّقة في أدب حافل محفوظ بالمصادر الكبرى لثقافة الكتّاب.

أمّا الخطّ وأنماطه، والمعايير الجمالية المتحكمة في أوضاعه، فذلك يدخل في اللامتناهي، لأنّه يتحرّك في مراتب الإبداع، ويتعامل مع الحسّ، ومجالهُ عالم الجمال. وتبقى الركائز الثلاث الأولى والأسبق في التسلسل من الخطّ، الورق والحبر والتجليد، فعلى هذا الترتيب المتدرّج كانت ضحالة المادة التوثيقية، التي لم تكن في مستوى توضيح تقنيات التّراث الضخم الذي سلم لنا على الزمن. فلا نكاد نعرف عن صناعة الورق غير وصفات محدودة ومجزوءة في بياناتها، لا تقدّم الأجوبة المقنعة لفهم التركيب الصناعي للعدد الكبير من أصناف الكاغد الذي كتبت عليه المخطوطات القديمة، مع ما فيها من تنوع أساليب الصناعة والمكونات، وطرق السّقي والصّقل والتّلوين، وقلّة الأحماض، ولا يمكن من خلالها أن نحدّد النماذج الورقيّة، التي تعنيها تلك المسمّيات القديمة والأحدث عهدا، منذ ابن النّديم[٤] إلى القلقشندي.[٥] وقد سجّل لنا مؤلّف «العمدة» وصفاً بيّناً لعمل كاغد ينسب لحاكم خراسان طلحة بن طاهر[٦] (٢٠٧-٢١٣هـ)، قوامه القنّب الجَيِّد الأبيض، ووصفاً آخر لكاغد يصنع من التّبن القديم، مع طريقة للسقي وللتعتيق.

وإذا انتقلنا للإشارة إلى حظّ التجليد أو التسفير من العناية بالتوضيح والتصنيف، فإن ما وصلنا - على نزارته - مفيد ومتكامل، ثمّ إنّ هذه الصناعة المتمّمة للجهد، والمحافظة على حصيلة الفكر تضمّه بين دفات أسفارها، ذات

تركيب خارجي، تعتمد تصريف وتوظيف المواد المفردة، كالجلد والحرير والخشب والورق الملبّد والخيط واللّصق، وقد جمع مؤلّف «العمدة»، الصفات المهنية والذاتية التي ينبغي أن تتوفّر في ملتمس هذه الصناعة، وهي: «سرعة الفهم، وجودة النظر وحدّته، وخفّة اليد، وترك السرعة، والتثبّت والتأنّي، وحسن الجلوس، وملاحة الاستمالة، وحسن الخلق».[٧] ونشير هنا إلى الفصل الثاني عشر من «العمدة»،[٨] الذي يعتبر أقدم نصّ متكامل وبيّن يعرض آلات المجلّد ومناقشتهُ، ويفسّر طريقة الحبك، واختيار الجلود وإعدادها وبَشْرها وشدّها، وطريقة تثبيتها، وما إلى ذلك.

ولدينا من بعده أثر غاية في الأهمية، وهو كتاب أفرده مؤلّفه الفقيه بكر بن إبراهيم الإشبيلي المتوفى سنة ٦٢٨هـ لهذه الصناعة، سمّاه: «التيسير في صناعة التسفير»[٩] وقدّمه برسم الخليفة يعقوب المنصور، وهو أوفى الأعمال المشابهة وأكثرها تفصيلا وإحاطة ومماشاة لأنماط التسفير التي كانت سائدة في العصر الموحّدي بالمغرب والأندلس. هذا إلى جانب الرسالة التي كتبها أبو العباس أحمد بن محمد السفياني سنة ١٠٢٩هـ، عن صناعة التسفير وحلّ الذهب.[١٠]

ولقد قامت المخلفات التاريخية من الأسفار القديمة، معرّفة بالوجهات الفنية التي اتجهتها، واستطاعت البحوث المتواصلة عن جلود الكتب الإسلامية أن تميّز خصائص المدارس الكبرى، وتوضح أساليبها وموادها، وتقدّم نماذجها الباذخة التي يقصرّ الوصف عن تقديمها. نذكر من ذلك أعمال Gratzl و Sarre و Marçais و Poinssot.[١١]

وانعكس ثراء الجوانب الفنية في إعداد المخطوط بعد القرن الخامس الهجري في وفرة الألوان التي حقّق بها الخطّاطون والمزوّقون والمذهّبون إبداعاتهم. وخرجت تجارب «الحبّارين» من الدائرة المحدودة التي بدأوا بها لتزداد خبرتهم بمزج الألوان بدرجاتها، ولم يقتصر جهدهم على ما يسجّلونه لتجربة واحدة لتركيب حبر ملوّن، بل نجد للون نفسه بدائل تتحقّق في مراكز متباعدة من بلاد العالم الإسلامي، يصلون إليها بمفردات أخرى تتوفّر لديهم.

ولقد يتاح لهذه الفئة من صنّاع الحبر، القائمين بركن مهمّ من أركان صناعة الكتاب، أن ينضم إليهم في بعض الأحيان منتسبون للعلم والتدوين، فيسجّلون التجارب والوصفات التي يتعرّفون عليها، منجّمة في كتب الكتّاب

وتعليم ملتمسي الوظائف السلطانية ما لا يسع الكاتب جهله، ككتب أبي بكر الصولي، وقدامة بن جعفر، وابن درستويه، إلى النويري والقلقشندي. وفي حالة نادرة – فيما أعلم – جمعت في أبواب شاملة كما فعل مؤلّف «عمدة الكتاب».

لهذا رأيت أن أسهم في هذه النّدوة الملتئمة حول علم صناعة المخطوط الإسلامي، بتقديم نصّين جديدين في صناعة الحبر، لهما أهمّية تاريخية وفنّية قصوى، لأنهما يعيدان النظر فيما كتب عن جذور هذا الموضوع،[١٢] ويساعدان على تمديد الرؤية، للكشف عن الكثير من الغوامض التي تواجهنا لفهم أسرار تقنيات الكتابة في تراثنا المخطوط.

النصّ الأول: مخطوط فريد، اسمه: «الأزهار في عمل الأحبار» ألّفه مغربي اسمه محمد بن ميمون بن عمران المراكشي الحميري، لم نقف له على ترجمة، سوى ما أدركناه من بعض الإفادات التي جاءت في أثناء الكتاب، حيث كتبه وهو يسكن ببغداد في المدرسة المستنصرية[١٣] سنة تسع وأربعين وستّمائة. والكتاب أصل بخطّه، وعلى ورق العصر، وخطّه يعبّر عن وثوق صاحبه بنفسه، على القاعدة الأندلسية المغربية في التّزوية والتّقوير، على حين تنقط الفاء والقاف نقطة ونقطتين من فوق، ويعقد الحروف المنتهية المطوطة، كالباء والتاء والفاء والكاف، بما يشبه الورقة الثلاثية. ومع أنّ المؤلّف استطاع أن يدوّن التجارب التّقنية، وأن يقدّم عمله بمقدمة موضّحة، إلاّ أن معرفته بالعربية والتحكّم في استعمالها كانت محدودة، لما يتخلّل بعض النصوص من غموض في المدلولات، وتكلف في العبارة، وخطأ في الرسم وارتباك في العائد والموصول، وخلط وغلط في وضع الحركات على الأحرف.

ويورد في العنوان وفي المقدّمة أن هذا الكتاب مضاف إلى كتاب «مفاتيح الأسرار في كشف علوم الأبرار» ويشير في أكثر من مَوْضع أنّه هو صاحب «المفاتيح»، ويذكر أنه من المعنيين بالحكمة والكيمياء، وبتراث جابر بن حيان، وقد جمع له ما كان مبددًا من بحوثه وأعماله في كتاب آخر سمّاه: «التدابير الكبير».

ويوضّح في المقدمة أن جماعة من إخوانه سألوه «تأليف كتاب في فنون علم المداد والحبر، وبيان ما يعمل من الأجساد الخمسة[١٤] والفضّة والتّبر، وكيفيّة اتحاد الألوان، وما يركّب منها من الأصباغ الحسان الداخلة في آلات

الكتابة». وتحدث عن فضل الحبر الذي ضبط المعرفة بدءا بالقرآن والحديث النبوي، وكتب أخبار الأمم الماضية، وقيّد العلوم والأنساب.

واعترف أنّه أقبل في هذا التدوين على إثبات المنقول عن العلماء المتقدمين، ولم يسعفه الوقت لتمحيص كل ذلك بإعادة التجربة الشاملة، إلا في البعض الذي وصل إلى معرفة حقيقته، كما يقول: «بميزان الحدس العلمي واللّطف التدبيري».

وينهي مدخل الكتاب ببرنامج مفصل لسبع وعشرين مقالة، قَسَّم كلاً منها إلى أبواب - وهذا أوسع وأشمل ما فصّل عن «فنون الحبر» - لهذا نعرضها للتعريف:

* المقالة الأولى: في عمل الحبر الأسود المائع، بها أربعة أبواب.
* المقالة الثانية: في كيفية أنواع الحبر اليابس، بها بابان.
* المقالة الثالثة: في عمل الحبر المختلف الألوان، بها أحد عشر بابا.
* المقالة الرابعة: في عمل المداد المائع المركب، بها بابان.
* المقالة الخامسة: في عمل المداد اليابس المعتاد، بها تسعة أبواب.
* المقالة السادسة: في كيفية اتخاذ المداد المختلف الألوان، وبها عشرة أبواب.
* المقالة السابعة: في كيفية ما يعمل بالذهب والفضّة حتى يكتب بهما وبغيرهما من الأجساد الخمسة، بها أحد عشر بابا.
* المقالة الثامنة: في صفة ما يشبّه بالذهب والفضّة وغيرهما من الأجساد الخمسة، بها أربعة أبواب.
* المقالة التاسعة: فيما يكتب على الأواني المتخذة من الفضّة والذهب، والآلات المصنوعة من الحديد والنّحاس والصّفر، وبها سبعة أبواب.
* المقالة العاشرة: صفة كيفية الأطلية المشتركة بين الأجساد السبعة، وبيان استخراج الطلاء منها، وفضله، وفضل ما ليس منها عنها، وبها خمسة أبواب.
* المقالة الحادية عشرة: في ذكر الإشارة والتلويح إلى صنعة الكتابة على الزجاج، وبها عشرة أبواب.

* المقالة الثانية عشرة: في صفة نقش البنان بمحاسن الألوان، والكتابة بالذهب والفضّة على الأكف البضّة الغضّة، وبها أحد عشر بابا.

* المقالة الثالثة عشرة: في كيفية اتخاذ الألوان التي يفتقر إليها في سائر ما ذكرنا من الأنواع، وبها عشرة أبواب.

* المقالة الرابعة عشرة: في مزاج ما ذكرناه في الألوان وتأليفاتها، وكيفية تركيبها وتوليداتها، وبها أربعة أبواب.

* المقالة الخامسة عشرة: في صفة ما تختلف به الكتابة في ألوانها بحسب اختلاف زمانها ومكانها، وصفة كيفيّة الكتابة على الماء، وهي من نكت ظرّاف الكتاب الأذكياء، وبها تسعة أبواب.

* المقالة السادسة عشرة: فيما يذهّب جميعا، كما يكتب به الكاتب سريعا، وبها بابان.

* المقالة السابعة عشرة: في كتابة الأسرار، والتلطف لصيانة وضعها عن الأشرار، وبها بابان.

* المقالة الثامنة عشرة: في التبيين عما يستعين به الكاتب في الكشط عن استعمال السكين، وبها سبعة أبواب.

* المقالة التاسعة عشرة: في الفرق بنظر العقل والفصل بين الممكن والمستحيل، مما ذكر قبل هذا الفصل، وبها سبعة أقسام.

* المقالة العشرون: في كيفية فك الخواتيم وردها وصفة قراءة كتبها المختومة وليّها، وبها بابان.

* المقالة الحادية والعشرون: في سقي الكاغد، ودفع الذباب عن الوقوع عليه، وصفة لصاقه وتعتيقه بما أفضت التجربة إليه، وبها خمسة أبواب.

* المقالة الثانية والعشرون: في كيفية نقوش الأقلام بالدخان، وصفة لِيقها، وليق النقوش والكتائب التي يرسم بها قبل الأدهان، وبها ثلاثة أبواب.

* المقالة الثالثة والعشرون: في صفة ما يُطلى به تحت الكتائب والنقوش على الأقلام، ثمّ يذكر ما يطلى به على نقوشها وكتائبها، فيحفظها على مرور الأيام، وبها خمسة أبواب.

* المقالة الرابعة والعشرون: في صفة الأدهان التي تطلى على الأواني، ونقوش الدّويّ والمقالم والأقلام وغير ذلك... وبها سبعة أبواب.

* المقالة الخامسة والعشرون: صفة الطريق الحميد إلى عمل أنواع الحديد، بها خمسة أبواب.

* المقالة السادسة والعشرون: في صفة سقايات السيوف وآلات الصنائع وسكاكين الأقلام، وذكر كيفية ما يحفظها من الصدأ، بها ستة أبواب.

* المقالة السابعة والعشرون: في صفة الإرشاد إلى قلع جميع ما ذكرنا من سائر الألوان والحبر والمداد، وبها أربعة أبواب.

إن هذا البرنامج مشوّق لمعرفة كل البيانات المهمّة عن صناعة الأحبار المنوعة، ومزج الألوان، وطرق التجميل، وبعض تفاصيل صناع الكاغد، وتوشية الأقلام وتثبيت زخارفها، وتركيب الألوان، والأطلية الخاصة بالمعادن، وسقي الحديد وتنويع أصنافه، وسقي السيوف والأدوات الحادّة، وحفظها من الصدأ، وإزالة آثار مختلف الألوان.

ولكن هذا العمل الكبير الذي فصّله ابن عمران المراكشي على سبع وعشرين مقالة أُعدّ لها وعدّد أبوابها، لم يصلنا منه غير المقالات الستّ الأولى متمّمة، وذكر عناوين أبواب المقالة السابعة فقط؛ وليس الكتاب مبتورا منقطعا كما قد يُتوهّم، وإنّما توقف المؤلّف عامدا بطريقة لم أصادف لها شبيها، ذاكرا بالكناية والتصريح أنه يمرّ - كما نصطلح بلغة اليوم - بأزمة عاطفية، عاقته عن مواصلة بسط مقالات الكتاب، ثمّ فكّر في إتمامه فجمع كتاب «التدابير الكبير» من أعمال جابر بن حيان، واستغنى به عن قصده، واعتبر أنّ به يتمّ كتابه، مع إدراكه أنه «أصبح قريبا من العالم بعيدا عن المتعلم» لأنّ رموزه غامضة على طريقة جابر، وتحتاج إلى شرح، ويعتذر بأن العمر قصير لا يسمح بذلك.

وهكذا ينتهي الكتاب، ولكن الباقي بمقالاته الستّ غنيّ بمحتواه، لأنه يشتمل على مجموع مائة وأربع عشرة صفة لتركيب الحبر، أعتبرها - فيما أعلم - أكثر التراكيب عددا وأوضحها بالشرح المبسوط الواضح.

وتبقى الميزة الكبرى لكتاب "الأزهار"، في اشتماله على «وصفات» لتركيب المداد، منسوبة لكبار العلماء والأدباء الذين تركوا في الثقافة الإسلامية أثرا كبيرا. فقد فصّل القول في الأحبار التي كان يتخذها عيسى بن عمر النحوي (١٤٩هـ/٧٦٦م) ومسلم بن الوليد (٢٠٨هـ/٨٢٣م)، وأبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ/٨٦٩م) ومحمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ/

٨٧٠م) وبختيشوع الطبيب (٢٥٦هـ/٨٧٠م) ومسلم بن حجاج القشيري (٢٦١هـ/٨٧٥م) وعبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢٧٦هـ/٨٨٩م) ومحمد بن زكرياء الرّازي (٣١٣هـ/٩٢٥م) ومحمد بن علي بن مقلة (٣٢٨هـ/٩٤٠م) وأبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني (٣٢٦هـ/٩٦٧م) وأبو حيان علي بن محمد التوحيدي (نحو ٤٠٠هـ/١٠١٠م) وعلي بن هلال الكاتب، ابن البوّاب (٤٢٣هـ/١٠٣٢م) وعلي بن هبة الله بن ماكولا (٤٧٥هـ/١٠٨٢م) وآخرون. ولم يتردّد بعد ذكره لصفة الحبر الذي كان يستخدمه الوزير ابن مقلة، عن تسجيل أنه من تركيب أهل الهند! كما قيل له وهو بالمدرسة المستنصرية ببغداد. وللمرة الأولى نعرف هذا العدد من الأحبار منسوبة لأصحابها من أهل العلم.

ونلاحظ أنّ أمدّة هؤلاء الأعلام ترتكز على مفردات مشتركة بينها هي: العفص[١٥] noix de galle والزّاج[١٦] vitriols والصّمغ[١٧] gomme arabique، والماء العذب. ويستغني بعضهم عن الصمغ اكتفاء بتألّق لون السواد وثباته غير محتاج لما يشدّه إلى الورق أو الرقّ، وهذا ما كان عليه حبر مسلم بن الوليد، والجاحظ، والبخاري.

وتبقى الفروق المهمّة بين حبر وآخر، في طريقة الإعداد، والتدرّج في مزج العناصر الأربعة المذكورة، واتخاذ طريقة الطبخ على النار، أو التعريض للشّمس، أو النّقْع والعَصْر، وما إلى ذلك من الأساليب التي سجّلت بشيء من الوضوح.

وما دام العفص أحد المفردات الثابتة - تقريبا - في صناعة الحبر، فلم يَنْسَ ابنُ ميمون المراكشي أن يحدّد البدائل عند تعذر وجوده، فذكر «ماء الآس الرطب، وماء قشور الجوز الرطب، وماء قشور الرمان الرطب، وماء الخروب الرطب، وماء الأثل» وأنّه «إن ضمّ الواحد منها إلى الآخر كان أتمّ للفعل، وإن جمع الكل كان أقوى وأكمل، وبحسب الكثرة والقلة، تكون قوّة ذلك وضعفه».

ويذكر فضل الدخان أو السّخام في صناعة الحبر المركب، ويصف آلة استخراجه، وأنّ أفضله ما اتخذ من الشيرج[١٨] أو الجوز أو البندق أو البزر أو النفط، وهو بهذا يزيدنا إيضاحا لما حكاه أحمد بن يوسف الكاتب[١٩] عن صانع المداد الناعم، الذي كان يجيئهم به أيام خمارويه.[٢٠] ويؤكد رأي الوزير ابن مقلة في أن أجود المداد ما اتخذ من سخام النّفط.[٢١]

ونشير إلى أنّ ما ورد في المقالات ١، ٣، ٤، ٦ من تغيير المصطلح، من حبر (١.٣) إلى (٤.٦)، أمر يدعو إلى التوقّف. وقد أدّت بنا القراءة الفاحصة لهذه المقالات وما اشتملت عليه من أبواب، إلى أنّه لا فرق بين المصطلحين في النصّ؛ فالمراكشي يحدّد للحبر المكوّنات التالية: العفص، الزاج، الصمغ، الماء، وقد يضاف له الزعفران، والمسك والصبر السُّقُطْري، وماء الورد (المقالة الأولى - الباب الأول). ومواد المداد الأبيض، من: الإسفيداج (céruse)، وماء العفص الأبيض، والصمغ. ومواد المداد الوردي، من: المرتك، والزعفران، والصمغ. ويصف مركب مداد وحبر (كذا) بأنه يصنع من: العفص، والصمغ، والزاج، والماء، ويضاف له الدخان البزري وماء الجلنار.

إنّ هذا التردّد بين المصطلحين يثير التساؤل عن الفرق، فهذا أحمد المغربي - من علماء القرن الحادي عشر الهجري - كتب كتابا سمّاه: «قطف الأزهار في خصائص المعادن والأحجار»[٢٢] فرّق بين محتوى التسميتين، فالحبر عنده «هو ما استمدّ لونه من المواد النباتية»، في حين خصّص لفظ المداد «لما استمدّ تركيبه من المواد المعدنية». وهذا الاستنتاج الذي ذهب إليه محقّق نصّ المغربي[٢٣] لا أقرّه عليه؛ فالزاج - وهو معدن - يدخل في تركيب كلّ الأحبار، والعفص والصمغ والزعفران - وهي مواد نباتية - تمتزج بأكثر الأمدّة. وليس الموضوع - فيما يبدو - أكثر من خلط لغوي لمعاني دقيقة الدلالة بسطها القدماء، فعرّفوا بأن الحبر أصله اللّون، يقال: فلان ناصع الحبر، يراد به اللّون الخالص الصافي، والحبر: الأثر يبقى في الجلد. ويقال: حبّرت الشيء تحبيرا، إذا حسّنته.

أما المداد، فقد أطلق لأنّه يمدّ القلم، أي يعينه، وكلّ شيء مددت به شيئا فهو مداد. وسمّي الزيت مدادا لأن السّراج يُمَدّ به، فكلّ شيء أمددت به اللّيقة ممّا يُكتب به فهو مداد.[٢٤] وعلى هذا فإنّ المراكشي تعامل مع المصطلحين لمعنى واحد، فالحبر عنده يعني اسما للنوع، والمداد صفة دالة على موصوف.

ويتميّز عمل المراكشي بالوعي بخواص المواد المستعملة، نظرا لمعرفته بالكيمياء ولتجربته، ففي حديثه عن الحبر الذي يكثر فيه الزاج ويشتدّ سواده، يقول: «إنّه يحرق الكاغد لكثرة زاجه، ويأكل مواضع الكتابة، فينقطع الورق بذلك» ويذكر أنّه: «ليس في الصمغ للحبر فائدة، سوى أنّه يحفظ الخطّ إذا وقع في الماء، لا يتفشّى وينبسط في الكاغد». «وأن الصمغ عدوّ الزّاج».

لقد استغرقت المقالات الستّ كلّها حديث الحبر وصفاته، ولو تمّ الكتاب بمقالاته السبع والعشرين على الخطّة التي رسمها المؤلف، وفيها الحديث عن طلي المعادن، وسقي الحديد والسيوف وإزالة البقع من الثّياب، فهل كان اسم الكتاب يبقى على ما ورد عليه، «الأزهار في عمل الأحبار»!؟

والنص الثاني: كتاب آخر، نادر في وجوده وترتيبه ووضوحه ومحتواه، مؤلّفه محمد بن محمد بن إدريس القضاعي، يعرف بالقللوسي،[٢٥] أندلسيّ من أهل أسطبونه[٢٦] Estepona ولادته سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م ووفاته في رجب سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م. ويعتبر هذا المؤلّف أكثر حظّاً من نظائره مؤلفي هذا الفنّ، لأنه دخل التاريخ من أبواب أخرى، فقد كان إماما في العربيّة، اشتهر بحفظ كتاب سيبويه وفكّ غوامضه، وحجّة في العروض والقوافي. وطوّع هذه المعرفة لنظم الأراجيز - على عادة الأندلسيين - في الفرائض، والعروض، ووضع أرجوزة في شرح «ملاحن» ابن دريد، وأخرى في شرح كتاب الفصيح.

وهذا الكتاب الذي نقدّمه من أعماله، هو كتاب «تحف الخواصّ، في طُرَف الخواصّ»،[٢٧] وقد نوّه به لسان الدين ابن الخطيب، فقال:[٢٨] «إنه رفع للوزير ابن الحكيم[٢٩] كتابا في الخواص وصنعة الأمدّة و[قلع] طبع الثياب،[٣٠] غريبا في معناه».

ونسخته التي بين أيدينا صورتها[٣١] كتبت بخط مغربي متوسّط، على الأسلوب الغرناطي، الجامع بين التقوير والبسط والقبض، ويكثر فيها الخطأ والتحريف وخلل الرسم، ولاحظنا إسقاط الناسخ لبعض السطور، وتنتشر الرطوبة في نصفها الأول، مع بعض المحو وأكل الأرضة، وقد فرغ نسخها في جمادى الأولى من عام ٩٣٦هـ وعلى حواشيها إفادات «ووصفات» مهمّة تتصل بموضوع الكتاب وتزيده إثراء، بعضها لا يقرأ لرداءة الخط وللانطماس، وهي كما يبدو إضافات منقولة من كتب مشابهة أخرى.

وفي المقدّمة القصيرة يذكر المؤلف أنّه جمع فيه «نشر أشياء يحتاج لعملها الكاتب، وحصر منها أشتاتا يُشان بجهلها الطالب»، وأنّه أهداه كما أشار ابن الخطيب، للوزير الأجل أبي عبد الله بن أبي الحكيم، وقسّمه إلى ثلاثة أبواب.

الباب الأول: في أنواع يحتاج لها الكتبة، ويظنّ بها كثير من الطلبة.
الباب الثاني: في أشياء يعم نفعها، و[تعتاص][32] على من أراد جمعها.
الباب الثالث: فوائد غريبة، وملح.

وهذا التقسيم الموجز لا يقدم حقيقة المحتوى الزاخر بالإفادات والتجارب والقواعد والمواصفات، وتفصيله لخواص بعض المواد وأصنافها وتمييز الجيّد المختار منها، كما جاء ذلك في الفصل الذي عقده للقول على العفص والصمغ والزاج، وكحديثه عن نشارة التجفيف والطين الذي يعلّم به، وحديثه عن الأمدة المركبة من غير عفص.

وحتى يكون مضمون الكتاب أكثر تجلية في التعرّف عليه، نعرض لبعض المحتوى للكشف الأوّلي عنه، لنبرز من ذلك مدى التوازن القائم في ذهن المؤلف بين الأحبار والألوان والأصباغ وقلع الطبع من الثياب، وهي كلّها - كما يبدو بالمتابعة - جوانب متّصلة ببعضها في تركيبها، وإن تبدو متباعدة في الاستعمال:

* الباب الأول:[33] في صناعة الأمدّة، وأوّلها المداد الأكحل (ص٢)

فصل في أشياء يكتب بها، كالمدّة، ولا تظهر حتّى تعالج (ص١٠).
فصل في الآنية التي يرفع فيها المداد والليقة والنشادر والطين الذي يعلم به (ص١٢).
فصل في الأمدّة المركبة من غير عفص (ص١٤).
فصل في أنواع الكتابة بالذهب والفضّة والقصدير والنحاس الأصفر والأحمر والحديد والطلْق (ص٢٣).
فصل في أنواع الأمدّة التي يكتب بها على الذهب والفضّة والنحاس والرصاص (ص٢٧).

* الباب الثاني: في قلع المداد من الدفاتر، وقلع الحبر من الكتب وقلع الصباغ من الثياب (ص٢٨)
فصل في الأشربة والأنبذة (ص٣٥).
فصل في غسالة تبيّض الغزل (ص٣٨).
فصل في صناعة صبغ ثياب الكتان (ص٤٠).
فصل في صناعة صبغ الحرير (ص٤١).

المقالة[٢٣] الثالثة: وفيها فوائد (ص٤٣)

فصل في عمل الزّنجار وصناعته (ص٤٦).
صنعة عمل بياض الوجه (ص٤٦).
صنعة عمل الزرقون (ص٤٧).
صنعة الزنجفور (ص٤٩).
فصل في صنعة صبغ العود والعظم والنحاس (ص٥٠).
فصل في بيان الأصبغة والألوان (ص٥٣).
فصل في الأبدال (ص٥٤).
فصل فيما يصرف من هذه الأصبغة في الدهن والرسم (ص٥٤).
ذكر الأمزجة وما يوافق منها (ص٥٤).
ذكر ترتيب سَحْق الأصبغة (ص٥٥).
فصل في تقصير الأصبغة في إثر سحقها (ص٥٦).
ذكر ماء التذهيب (ص٥٦).

إنّ مواد الباب الأول جميعها تخص الأمدّة، كما يحرص على تسميتها، أمّا الباب الثاني ففيه الكثير مما تمحى به الدفاتر، وأثر الحبر من الكتب والثياب.

والباب أو المقالة الثالثة كما سماها الناسخ، يتّصل بخواصّ المفردات المكوّنة لأصناف من المواد والأصباغ وطرق إعدادها، وما يتفق منها عند المزج وما يتنافر، وما يصلح للورق والرق خاصة، وما يقتصر على الخشب والجدران.

وفي هذا التداخل إثراء وإيضاح يساعد على فهم وتفسير الكثير من تراث الحضارة الإسلاميّة، سواء في باب صناعة الكتاب المخطوط أو بقية الفنون الصغرى، وما يتصل بها من رقش وتلوين وتذهيب ورسم. وعلى هذا فإنّ لكتاب القضاعي أهميّة فريدة، إذ لا يتكرّر أكثر محتواه مع أعمال من سبقه أو عاصره من مصنّفي هذا الفن، كصاحب «عمدة الكتاب»، وابن ميمون المراكشي، وابن رسول.

وحتى نزيد في جلاء صورة الكتاب، نعرض منه النماذج التالية:

(ص٧) فصل: هذا قانون تركيب المداد الذي يصنع من العَفْص والزّاج والصّمغ، وهو هذا الموصوف في هذا الجدول المبارك، وهو في تركيب كل نوع من المداد وأوزانها، وصفة صنعة كلّ واحد منها، إن شاء الله تعالى.

وهو هذا:

المطبوخ	المعصور	المنقوع	الغبار
عَفْص: جزء زاج: ربع جزء صمغ: جزء ماء: ثلاثة أجزاء	عَفْص: جزآن صمغ: جزء زاج: عُشر جزء ماء: جزآن	عَفْص: جزآن صَمغ: نِصْف جزء زاج: رُبع جزء ماء: ثلاثة أجزاء	عَفْص: جزء صمغ: جزء زاج: نِصْف جزء ماء: جزءٌ ونصْف

فهذا هو ترتيبها وتركيبها، وعلى هذه الصفة يصنع كل واحد منها.

ويبقى أن نذكر قوّتها وأفعالها: فأوَّلُ ذلك أن تعلم أنّه متى زاد العَفْص على أجزائه المعلومات، أسرع إلى الكتابة خَرْقٌ بليغ. ومتى زاد الصّمغ على أجزائه المعلومة تخرّق الكتاب بعضه على بعض. ومتى زاد الزاج على مقداره أحرق وارتفع على الكتاب... له بصيصا.

* وعماد المداد العَفْص، ثمّ بعده الصّمغ، ثمّ بعده الزّاج. فأمّا الصمغ فهو لنيره (كذا) بقوته. والزاج ليقرّ قوته حتّى يصل إلى الموضع الذي يحتاج. فهذه[٣٤] رتبة أفعالها وقوتها.

منافع كل واحد من أنواعه:

المطبوخُ يصلُح للكاغد[٣٥] وحده.
المعصور يصلح للكاغد[٣٥] والرّق.
المنقوع يصلح للرّقّ خصوصا.
الغبار... للأقراص ليكتب به في حينه.

فهذه صورة الأمّدة.

{ص٥٣} فصل في بيان الأصبغة والألوان

اعلم أن الأصبغة في عددها اثني عشر: زنجفور، زرقون، مغرة، بياض الوجه، النيل، اللآزورد، اللكّ، الزنجار، العكار، الزّرنيخ، الفحم، طَرْنشول.

فهذه الأجساد بأَجْمعها، ويتكسّر من كل لونٌ منها لون آخر، فتصير أربعة وعشرين.[٣٦]

فأمّا الزّنجفور إذا سحق مع البياض، جاء منه لونا ورديًا، وكذلك الزرقون، وكذلك المغرة.
وإذا سُحق البياض مع النيل، جاء منهما غماميًا.
وإذا سُحق الزرنيخ بالنيل جاء منه أخضر فستقيًا.
وإذا سُحق اللكّ بالبياض، جاء منه بنفسجيًا.
وإذا سحق الزّعفران مع البياض جاء منه لوبانيا.
وإذا سحق العكار بالبياض جاء منهما...
وإذا سحق الزرنيخ بالزّعفران، جاء منه لونا ذهبيا معتقا.
وإذا سحق النيل والزرنيخ والزنجفور، جاء من ذلك صعتريا.
فهذه الأصول بأجمعها، والمكسرة منها.

{ص ٥٤} فصل فيما يصرف من هذه الأصبغة في الدّهن والرسم

الزنجفور، والزرقون، والمغرة، واللكّ، والعكار، والبياض، والفحم، واللآزورد، لا غير.
ويصرف فيها الزيت في الأشناء.

{ص ٥٤ – ٥٥} ذكرُ الأمزجة وما يوافق منها

فأمّا الأمزجة فهي أربعة، إذا عُدم أحدها جعل بدلا منها أخرى، وهي:
البياض، والغراء، وماء الكتان، والقرظ، وهو الصمغ العربي.
البياض: لما يزوّق به الحيطان والخشب.
الغراء: مزاج لما يزوق به الدهان والخشب.
لعاب الكتان: مزاج لما يزوق به الكاغد والدهان.

فهذه الأمزجة قد أتقنتها، فمتى وضع الغراء في الزنجار وفي اللكّ أو في العكر

أو في البقم، أملك، ويوافق غير ذلك.

ومتى وضع الصّمغ في الزّرقون، عقده وأفسده لا غير، وهو موافق لجميع الأصبغة، وما كثر منه في صباغة الكاغد والرقّ كان حسنا.

أمّا البيض فمتى وضع في... لكّ أو زنجار أو في بقام أو عكار، أفسدها البتّة، ويوافق غير ذلك.

{ص ٥٣ - ٥٤} فصل في الأبدال

إذا عدم النّيل فبدله الفحم، يكسر به جميع ما تحتاجه للنيل.

البياض بدل في صباغ الكاغد وتزويق الحيطان، واذا عدم البياض بدله الجبس يقتل بالسحق، وأمّا في الدهان فلا يتهيأ منه شيء.

الزرقون بدله نوار الرمان في الكاغد والرق خاصة، وأمّا في صباغ الدهان فلا يتهيأ منه شيء.

الزرنيخ الأصفر ليس له بديل.

الزرنيخ الأحمر بدله التربة المسحوقة مع شيء من الزرنيخ، تقوم مقامه في الكتب والدهن، ويفعل هذا الزرنيخ الأصفر.

المغرة بدلها المداد، ويخلط مع الزنجفور.

والزنجفور بدله الزرقون والمغرة، إذا خلطا جميعا.

اللازورد بدله كحل الإثمد، إذا خلط مع رغوة الصباغ قام مقام اللازورد.

اللكّ يقوم مقامه العكار، إذا طرح فيه الشب المصوّف، ويترك للشمس حتّى يخثر، ويأتي حسنا للكاغد والرّق والدهان.

وبدله أيضا البقم، إذا طبخ على النّار بالماء ناعما، فإذا خرج صبغة، وضع فيه يسير شبّ، والصمغ العربي، وكتب به في الكاغد والرّقّ، وأمّا الدّهان فكذلك، وأحسن ما يكون في الدّهان إذا وضع على زنجفور.

هذا ما أردت تقديمه، وأعتقد أنّ تجميع كل النّصوص المتّصلة بمادة الكتاب، وترتيبها تاريخيّا، والتعريف بمصطلحها، وعرض بعض الجوانب للتجربة المخبريّة، ونشرها في نشرات نقديّة مقارنة، سيكون دافعا ميسّرا لكتابة

تاريخ المخطوط الإسلامي، ومساعدا على فهم مكوناته الأساسية، لتقوم البرامج المخبريّة للإنقاذ بعملها في الصيانة والترميم ببصيرة ووعي.

الحواشي

(١) انظر عنه C. Brockelmann, *Geschichte der arabischen Litteratur (GAL)*, 1st ed, I (Weimar, 1898), 268, 525; Supplement, I (Leiden, 1937), 473, 963. وعثمان الكعاك: صناعة الكتب في القيروان (مجلة المباحث - العدد ٢٥ ص ١٣ - تونس ١٩٤٦)، وفيه تقديم لنسخة قديمة اكتشفت بالقيروان. وقد حقق الكتاب ونشره د. عبد الستار الحلوجي وعلي عبد المحسن زكي في مجلة معهد المخطوطات العربية - المجلد ١٧ الجزء ١ - القاهرة. مايو ١٩٧١، وبدار الكتب التونسية نسخة حديثة جيّدة، رقمها ٣٦٣٤ - إبراهيم شبوح: المخطوط ٤٨ تونس ١٩٨٩. وقد ترجم الكتاب Martin Levy من جامعة Yale ونشره في: *Mediaeval Arabic Bookmaking and its relation to early chemistry and pharmacology*, Transaction of the AmericanPhilosophical Society, Philadelphia 1962 vol. 52 part 4. انظر أيضا: Zerdoum Bat-Yehouda, *Les encres noires au moyen âge (jusqu'à 1600)*, 123, (Paris, 1983).

(٢) استعملت صورة نسخة الامبروزيانا، ثم اطلعت على نشرة جيّدة للكتاب بتحقيق د. محمد عيسى صالحية - الكويت ١٩٨٩، ومنه نسخة لم تعتمد للتحقيق، محفوظة بالمكتبة الآصفية بالهند رقم ٢٢١، يذكر كوركيس عواد أنها مجهولة المؤلف. انظر كوركيس عواد: الخط العربي في آثار الدارسين قديما وحديثا ٣٩٣- المورد. المجلد ١٥. بغداد - نوفمبر ١٩٨٦.

(٣) على هذا بني كتاب «عمدة الكتّاب»، ويراجع «صبح الأعشى» ٤٧٣/٢ حيث يختار بدل التجليد حسن صناعة الكاتب، يقول: المداد ركن من أركان الكتابة، وعليه مدار الرّبع منها، وأنشدوا:

ربع الكتابة في سواد مدادها ... والرّبع حسن صناعة الكُتّاب

والرّبع في قلم تسوّي بَرْيَــهُ ... وعلى الكواغد رابعُ الأسباب

(٤) «الفهرست»، ليبسيك ١٨٧٢، ص ٢١.

(٥) «صبح الأعشى» ٤٨٧/٢ وقد رتّب الورق المنتشر في عصره حسب أفضليّته، فأعلاها البغدادي، ثم الحموي، ثم الشامي، ثم المصري، وهو على قطعين. المنصوري والعادة، ثم المغربي، ثم الإفرنجي. والنصّ على إيجازه مهمّ في تفاصيله:

(٦) «العمدة» ١٤٧.

(٧) المصدر نفسه ١٥٧.

(٨) المصدر نفسه ١٥٣.

(٩) نشره المرحوم الأستاذ عبد الله كنون في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، المجلّدة ٧-٨ مدريد ١٩٥٩، يراجع الأستاذ محمد المنوني، «تاريخ الوراقة المغربية»، الرباط ١٩٩١، ص ٢٩.

(١٠) نشره Prosper Ricard بعنوان «صناعة تسفير الكتب وحلّ الذهب»، Geuthner، باريس ١٩١٩ وأعاد الناشر طبعه سنة ١٩٢٥، وكتب عنه الأستاذ محمد المنوني: المرجع السابق ٨٦ - وترجمه M. Levy في ذيل ترجمته لـ«عمدة الكتاب». الحاشية (١) المتقدمة.

(١١) عناوين البحوث التي كتبت عن فنون الكتاب والتجليد خاصة، أحصاها

K.A.C. Creswell, *A Bibliography of Architecture, Arts and Crafts of Islam*, (Oxford, 1961).

(١٢) Zerdoun Bat-Yehouda، المرجع السابق ١٢٤ وقد اعتمدت كتاب «العمدة» ووالت الخطأ في نسبة الكتاب لابن باديس، وفيه تذكر أنّ أول الإفادات المعروفة عن الحبر في بلاد الإسلام ترجع إلى القرن الثالث الهجري.

(١٣) أسسها الخليفة العباسي المستنصر بالله في الجانب الشرقي من بغداد على ضفاف دجلة. شرع في بنائها سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م وانتهى العمل فيها سنة ٦٣١هـ/١٢٣٤م فأودعها خزائن من نفائس الكتب (ابن الفوطي، «الحوادث الجامعة» ٥٣)، وجمعت بين المذاهب الأربعة - وقد رممّت ترميما كاملا في القرن الحالي، بدءا من سنة ١٩٤٥.

(١٤) يعدد المراكشي الأجساد الخمسة عند ذكر عناوين أبواب المقالة السابعة، بأنّها: الذهب، والفضّة، والنحاس، والأسرب، والرصاص. هذا والرصاص الأبيض يعني القصدير étain، والأسربُ هو الرصاص الأسود plomb. انظر ترجمة وتعليقات H. Renaud وG. Colin لكتاب «تحفة الأحباب في ماهية النبات والأعشاب»، باريس ١٩٣٤، ٢٠ رقم ٣٩.

(١٥) «تحفة الأحباب» ١٣٧ رقم ٣٠٩.

(١٦) المصدر نفسه ٦٥ رقم ١٤٤.

(١٧) المصدر نفسه ١٣٢ رقم ٢٩٦.

(١٨) هو دهن السمسم l'huile de sésame ابن البيطار، «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» ٣/٣٠ - مصر ١٢٩١هـ، وترجمة Lucien Leclerc, *Traité des simples*, II p. 282 مصورة عن طبعة باريس ١٨٨١.

(١٩) هو أبو جعفر بن الدّاية، البغدادي المصري، تولّى أعمالا ديوانية في الدولة الطولونية، يذكر الزركلي أنّ وفاته نحو سنة ٣٤٠هـ/٩٥٠م، وخبره مع صانع المداد في «صبح الأعشى» ٤٧٤/٢. ونشير إلى أنّ محاولات التلطيف في صناعة الحبر، كانت تهدف إلى تحقيق نعومة العلاقة بينه وبين القلم، حتّى ينساب بدون اختناق أو كزازة، وهناك محاولة حضارية ناضجة حققها الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله، ثم توقفت بعده، وهو ابتكاره للقلم المدّاد الذي يوضع الحبر بداخله، ويقلب في كل جهة فلا يرشح منه شيء، ويكتب عندما يراد منه أحسن كتاب، وإذا رفع عن الكتاب أمسك المداد. القاضي النعمان بن حيون، «المجالس والمسايرات» ٣١٩، بتحقيقنا وآخرين، تونس ١٩٧٨.

(٢٠) خمارويه بن أحمد بن طولون، ولي مصر بعد أبيه سنة ٢٧٠هـ، ووفاته سنة ٢٨٢هـ/٨٩٦م. الكندي، «الولاة والقضاة» ٢٣٣.

(٢١) «صبح الأعشى» ٤٧٥/٢.

(٢٢) د. عماد عبد السلام معروف، ملاحظات حول مخطوطة قطف الأزهار للمغربي، المجلة التاريخية المغربية - السنة الثامنة - العدد ٢٣-٢٤ تونس ١٩٨١.

(٢٣) بروين بدري توفيق: صناعة الأحبار والليق والأصباغ. فصول من مخطوطة قطف الأزهار للمغربي. المورد - المجلد ١٢ - ص ٢٥٢ بغداد ١٩٨٣.

(٢٤) «صبح الأعشى» ٤٧١/٢.

(٢٥) كذا في مستهل النسخة الخطية، بلامين محركتين مظبوطتين، وعدّد ابن الخطيب في «الإحاطة» لاماته بدون ضبط، ورسمه بروكلمان *GAL* ٢٣٦/٢ al-Qallūsī بلام واحدة مشدّدة. ترجمته في «الإحاطة» ٣/ ٧٥.

(٢٦) بمقربة من ثغر مربلّة.

(٢٧) للمؤلف كما يبدو ولع بالجناس في عناوين كتبه، من ذلك كتابه: «زهرة الظرف وزهرة الظرف». والخواص الأولى في عنوان الكتاب عكس العامة، والثانية تعني الخواص الطبيعية والكيميائية.

(٢٨) «الإحاطة» ٧٦/٣.

(٢٩) هو محمد بن عبد الرحمان، ابن الحكيم اللخمي، أبو عبد الله، إشبيلي الأصل، رندي النشأة، يجتمع في أصل واحد مع بني حجاج وبني عباد. كتب لسلطان غرناطة محمد بن محمد بن نصر، وتقلّد الوزارة لابنه أبي عبد الله المخلوع، فلما توفي هذا أفرده بالوزارة ولقبه بذي الوزارتين. كان كاتبا حسن الخطّ، مكرّما للعلم والعلماء، مفرطا في اقتناء الكتب. مات بغرناطة قتيلا في شوال سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٩م. ترجمه ابن الخطيب: «الإحاطة» ٤٤٤/٢، ابن حجر: «الدرر الكامنة» ٤٩٥/٣ المقري: «أزهار الرياض» ٣٤٠/٢.

(٣٠) قرأها محقق «الإحاطة»: «والتطبع الشاب»!

(٣١) من نخائر الخزانة الملكية بالمملكة المغربية، أفادني معرفتها أستاذنا الجليل محمد المنوني، حفظه الله، وتفضل عليّ بصورتها أخي العالم الفاضل د. محمد بن شريفه، فلهما منّي كل اعتراف وامتنان.

(٣٢) اعتاص الأمر، اشتد وامتنع والتاث. وفي الأصل غير واضحة، فقد تكون احتاص، بمعنى حزم وتحفظ.

(٣٣) سماها المؤلف في مقدمته أبوابا، وتغيرت التسمية في الباب الثالث لتصبح «مقالة» ولعلّ ذلك من عمل الناسخ.

(٣٤) في الأصل: فهذا.

(٣٥) في الأصل: الكاغيد.

(٣٦) كذا بالأصل، والألوان المكسرة حسب النص ثمانية فقط، ولعلّ البقية أسقطها الناسخ.

استخدام الورق في المخطوطات الإسلامية كما سجلته النصوص الفارسية القديمة

إيرج أفشار

إن أهم الدراسات التي أجريت باللغات الأوروبية عن تاريخ الورق (كاغذ) وصناعته، واستخدامه في المخطوطات الإسلامية، قام بها فون كاراباتشيك(von Karabacek)، وهوارت(L. Huart) ، وبابينجر(T. Babinger)، و بيديرسون (J. Pederson)، و غروهمان (A. Grohmann) ، و ليفي (M. Levey)، و سيلهايم (R. Sellheim) كما ينبغي ألا ننسى المقالة الممتازة التي كتبها كركيس عوّاد باللغة العربية. وقد اعتمدت هذه الدراسات بصفة عامة على مصادر كتبت باللغة العربية،[1] وذلك باستثناء الدراسة الحديثة التي قام بها بورتر (Y. Porter) والتي أمدت دارسي الفارسية الغربيين بمعلومات قيمة، وبصفة خاصة في مجال المخطوطات الفارسية الموجودة في بلاد الهند.[2]

أما البحث الذي سأقدمه إلى هذا المؤتمر فهو نتاج ٤٠ عاماً من التفحص لما يزيد عن ٤٠,٠٠٠ نص باللغتين العربية والفارسية في المكتبات

والمجموعات الخاصة في إيران وغيرها. وقد تمكنت نتيجة له من كتابة دراسة عن استخدام الورق في بلاد المسلمين. وبما أن هذا العمل لم ينشر بعد، فقد رأيت أنه من المناسب تقديم مقتطف منه يتناول مصطلح «الوراقين» (صانعي الورق)، هادفاً بذلك إلى لفت الأنظار إلى أهمية المعلومات الموجودة عن الورق في الكتابات الفارسية القديمة للتعرف على أنواع الورق المختلفة التي استخدمت في المخطوطات الإسلامية.

المصطلحات

منذ انتشار صناعة الورق عند المسلمين، بدءاً كما نعرف بمدينة سمرقند، كان دائماً يوجد أفراد وعائلات في الكثير من المدن الإسلامية عرفوا باسم «كاغذي». وكانت هذه النسبة، على حسب قول السمعاني، ترجع لاشتغال أسرهم في الماضي أو الحاضر بصناعة الورق أو الاتجار به. وقد جاء الكثيرون من حاملي هذا الاسم من نيسابور، وسمرقند، وإصفهان، وقزوين، وجوران، وشوشتر، وذكروا في تواريخ هذه المدن. ومن الملفت أن هذه النسبة صارت تتمتع بالشعبية قبل بداية القرن السادس الهجري (القرن ١٢ الميلادي)، وكان آخر شخص يحمل هذا الاسم مر علي في الكتابات الفارسية القديمة يسمى الحاج صالح كاغذي. وقد كان من أثرياء شوشتر (القرن ١٢هـ)، وذكره عبد اللطيف الشوشتري في كتابه «تاريخ شوشتر». ومن المرجح أن اسمه كان دلالة على حرفته أو حرفة أسرته.

بالإضافة إلى ذلك، كانت كلمة «كاغذي» تستعمل في إيران وعند الهنود الناطقين بالفارسية لوصف الثمار ذات القشور الرقيقة، مثل بادام كاغذي (اللوز)، وسيب كاغذي (التفاح)، كردوي كاغذي (الجوز)، وشفتالوي كاغذي (الخوخ)، قصب كاغذي (نوع من التمر)، وليموي كاغذي (الليمون).

واليوم لم يتبق في الاستعمال اليومي الدارج في اللغة الفارسية سوى مصطلحات بادام كاغذي وكردوي كاغذي وقصب كاغذي (والمصطلح الأخير يستعمل فقط في فرس)، أما الباقي فلا نراه سوى في الكتابات القديمة. وقد ذكر الوزير والطبيب والمؤرخ رشيد الدين فضل الله همداني، الذي عاش في القرن السابع الهجري (القرن ١٣م)، مصطلح شفتالوي كاغذي في كتابه عن

الزراعة المسمى «آثار وأحياء» كما ذكر سراج المحققين، وهوأحد شعراء الفارسية في الهند خلال القرن الثاني عشر الميلادي، مصطلح ليموي كاغذي في بيت الشعر التالي حسب ما ذكر في «فرهنگ آمند راج»:

أيتها المحبوبة! لماذا تعقدين حاجبيك عند رؤية هذه الرسالة؟ إنها رسالة حبيب وليست ليموي كاغذي.

وفي حين نستعمل ليموي كاغذي للدلالة على الليمون ذي القشرة الرقيقة، فإن هذا المصطلح لا يستخدم في إيران، ونجد دليلاً إضافياً على استخدامه في الهند في عمل لأديب هندي آخر، ألا وهو اعتصام الدين جايبوري الذي ذكره في سرده لرحلة قام بها إلى إنجلترا عام ١١٩٩هـ/ ١٧٨٤-١٧٨٥م في كتابه «شگرف نامه ولاية». بالإضافة إلى ذلك، فقد ذكرمؤلف «فرهنگ آمند راج» تحت كلمة بغرا (وهو نوع من الطعام) أن عصير الليمون ذا القشرة الرقيقة يصب فيه. وكذلك رأيت مصطلح سيب كاغذي في أعمال إيرانية بالفارسية مثل «تاريخ كاشان» (القرن ١٩م) وفي مؤلفات هندية كتبت باللغة الفارسية مثل گلزار كشمير (القرن ١٩م).

وبالإضافة إلى الثمار فإننا نجد أن كلمة كاغذي استعملت للدلالة على زهرة شهيرة تعرف باسم گل كاغذي (وتعرف بالجهنمية في اللغة العربية، واسمها اللاتيني Bougainvilia Spectabilis واستعملت كذلك للدلالة على الكتان (كتان كاغذي، حسب ما نجده في مذكرات بصيرالدين شيباني كاشاني - القرن ١٩م).

ومن ضمن أسماء المدن الإيرانية هناك كاغذ كنان (وكانت تسمى خانج قبل القرن ٨هـ)، ومدينة كاغذي التي تقع بالقرب من كاشان. وقد ذكر الشاعر نزاري قهستاني في القرن ١٥م في أخبار أسفاره التي نظمها شعراً اسم پل كاغذ گران، وهو جسر بالقرب من قهستان.

وتستعمل كلمة كاغذ في اللغة الفارسية أيضاً بمفهوم نامه (رسالة)، ويمكننا العثور على أمثلة لهذا الاستعمال في المؤلفات الشعرية والنثرية لخاقاني، وسعدي، ومولوي، وجامي، وعلي شير نوائي، ونويدي، ولكثيرين غيرهم. وسأكتفي هنا بتقديم مثال واحد من القرن ١٣م، يتضح فيه مزيج من التذوق الجمالي الأدبي والشعري:

يذكرك الربيع بأوراق الزهرة المتفتحة، كصديق يبعث برسالة (كاغذ) لصديق.

دعونا الآن نوجه انتباهنا إلى دور كلمة كاغذ وتأثيرها على التعريفات والمصطلحات والأساليب اللغوية المدنية والاجتماعية والأدبية. وقد وجدت حتى الآن أكثر من أربعين حالة استخدمت فيها كلمة كاغذي في مصطلحات ذات علاقة بالأدوات والحياة اليومية، أو استعملت للدلالة على فعل أو صفة. وللاختصار، فقد ضممت هذه المصطلحات في قائمة (الملحق رقم ١)، وعلى أي حال يمكننا بصفة عامة القول بأن معظم الاستعمالات المركبة للكلمة كانت مصطلحات شاعت بين المسلمين الهنود الناطقين بالفارسية وفي بلاد ما وراء النهر وأرجاء الإمبراطورية العثمانية.

أولاً: فيما يتعلق بالورق نفسه وصناعته، نجد مصطلحات مثل كاغذ بر (قاطعة الورق أو سكين الورق)، وكاغذ بري (قطع الورق، آلة القطع، المقصلة). وقد استعمل رشيد الدين فضل الله (القرن ١٤م) مصطلح كاغذ خانة في «الوقفية الرشيدية» للدلالة على مصنع «ربع رشيدي» لصنع الورق، والذي أسسه بنفسه في تبريز. ومن ضمن المصطلحات الأخرى كاغذ حل كاري (الورق المذهب)، كاغذ دو پوست كردن (قطع الورق إلى جزئين بتشريح سمكه إلى نصفين)، كاغذ ساز (صانع الورق)، كاغذ سازي (تصنيع الورق)، كاغذ شكستن/بريدن (قطع الورق)، كاغذ گر (صانع أو تاجر الورق)، كاغذ گير (مشبك أو ثقالة الورق)، كاغذي (صانع الورق، أو بائع الأدوات المكتبية، أو أي شيء مغطى بقشرة رقيقة).

ويتعلق المجال الثاني لاستخدام هذا المصطلح بنوعية الورق ذاته، مثل كاغذ پازهري (ورق محمر الصفرة)، كاغذ دفتري (ورق عادي)، كاغذ خام (ورق خام أو غير مهذب)، كاغذ كاهي (ورق القش أو ورق الصحف). وبالمثل هنالك مصطلحات تدل على طريقة تحضير الورق أو الاستخدام المقصود منه، مثل كاغذ آهار مهره (ورق مصقول)، كاغذ أبري، كاغذ برقي (ورق لامع)، كاغذ تحرير (ورق كتابة)، كاغذ چرب (ورق أملس)، كاغذ مشق (ورق تدريب أو ورق الخطاط).

والتطبيق الثالث لهذه الكلمة يتصل بالورق المكتوب الذي نسخ من مسودة (أز سواد به بياض آمده) ثم تم تحويله إلى ورق نفايات، وكذلك الورق

المستهلك المعثوث والكتب التالفة الغير قابلة للاستعمال. وهذه الأنواع من الأوراق تستخدم في صناعة الورق المقوى، وورق اللف، وفي الحرف القائمة على الورق مثل صناعة المقالم (قلمدان)، والعلب الصغيرة والقبعات. وتوصف هذه الأوراق في النصوص بأسماء مثل كاغذ قند، وكاغذ دواء، وكاغذ عطاري، كاغذ باطل (نفايات وقصاصات الورق).

أما الفئة الرابعة فتتعلق بالأشياء والأدوات مثل كاغذ أندازه (النموذج الورقي لتصميمات الثياب)، كاغذ سوزني/كردى (ورق إستنسل مقوى يستعمل في أشغال الجص والنقش)، كاغذلق (ورق يستخدم بديلاً عن الزجاج في النوافذ، كما جرت العادة في الصين واليابان)، كاغذ فانوس (فانوس ورقي)، كاغذ وصلي/وصالي (ورق تجليد الكتب أو لوح اللصق).

والاستعمال الخامس يخص اللُعَب وأدوات اللعب، مثل كاغذكل (الورد الاصطناعي)، كاغذ آتشزاده (ورق إشعال الألعاب النارية)، كاغذباد (الطائرة الورقية، وهي تعرف أيضاً باسم بادبادك). وهذا المصطلح الأخير ما زال يستعمل في يزد (وسط إيران) إلى يومنا هذا، وكان شائعاً للغاية في العصر الصفوي، وقد أمد الشعر الفارسي بتشبيه مجازي جديد، ومن المناسب في هذا السياق ذكر مقطع شعري من نظم الشاعر صاعب، وهو مقتطف من أكثر من ثلاثين بيتاً وجدتها:

هذه الطاغية المحبوبة لا تعبأ بالقلوب الحزينة، فالطفلة المرحة تصنع طائرات ورقية من (صفحات) المصحف.

أما الصنف السادس فنجده في التطبيق المدني والاجتماعي للمصطلح، مثل كاغذ أخبار (جريدة الأنباء) وهو مصطلح يستخدم منذ أواسط القرن ١٩م، وقد صار شائعاً منذ عهد قريب في إيران وعند الهنود الناطقين بالفارسية)، كاغذ بندكي (خطاب استعباد أو التزام)، كاغذ خانه (الأرشيف، واستعمل خلال عصر ناصرالدين شاه) كاغذ زر (شيك مصرفي، أو قطعة الورق التي كان يلف فيها الذهب قبل تقديمه إلى الشعراء). وقد كثر استخدام هذا المصطلح عند الكتاب والشعراء القدامى، كما في البيت التالي من شعر عطار نيشابوري (القرن ٦ هـ):

المرأة العجوز ذهبت إلى أبي علي (ابن سينا). أخذت إليه كاغذ زر وطلبت منه أن يأخذه.

وفي القرن التالي كتب كمال الدين إسماعيل البيت التالي:

إذا لم تمنح الشاعر كاغذ زر، قدم له على الأقل ثمن قطعة الورق لكتابة الشعر.

ومن المصطلحات التي تلفت انتباهنا إلى الأوضاع الاجتماعية في الماضي مصطلح كاغذين جامه أو پيراهن كاغذين (ثوب من الورق كان يرتديه المتضرعون والمظلومون ويكتبون عليه شكواهم إلى أولي الأمر). وكانوا يذهبون إلى المحاكم والقضاة والحكام في هذا النوع من الثياب لإنصافهم في حقوقهم. ومن المصطلحات الأخرى، مصطلح كلاه كاغذين (قبعة أو غطاء رأس من الورق الأحمر). وكان بعض العصاة يعاقبون بأن يجبروا على ارتداء غطاء الرأس هذا ويعرضوا في السوق والشوارع ليسخر منهم العامة. وقد وجدت أكثر من خمسين مثالاً على هذه العقوبة في الشعر والنثر والكتابات التاريخية.

أساليب صناعة الورق

حسب علمي، ورد أول ذكر أدبي لصناعة الورق في أشعار منچهري دامغاني (القرن ١٢م)، وذلك في قصيدة سعى الشاعر فيها إلى وصف الصحراء المغطاة بالثلج حيث مثلها بكارگاه كاغذ گري (مصنع الورق):

أصبحت الأراضي من بلخ إلى خاوران مثل مصنع سمرقند؛ أبوابه وسقفه وجدرانه صارت مثل تلك التي للنقاشين وصانعي الورق.

وشرح هذا التشبيه يكمن في أن صحائف الورق المبلل كانت تعلق على الجدران أو تنشر على الأرض لتجف، وتطلب ذلك توفر مساحات واسعة في المصنع.

وكان صانع الورق يسمى كاغذگر، وفي بعض العصور كان يطلق على العاملين بهذه الحرفة أسماء كاغذ ساز أو كاغذي. (ويمكن العثور على هذه المصطلحات في كتابات تنتمي إلى نمط من النتاج الأدبي يسمى شهر آشوب، وهي أعمال هجائية عن الطبقات الاجتماعية المختلفة في مدينة ما).

والمعلومات المتاحة لنا عن صناعة الورق في المدن محدودة، ولا نجد سوى التلميحات والإشارات الضمنية في الكتابات والأشعارالقديمة، ولكنها على الأقل تمدنا بأسماء تلك المدن الإيرانية التي جرى فيها إنتاج الورق بجانب سمرقند. ويرجع أقدم هذه المصادر إلى بدايات القرن السابع الهجري.

وكان الورق السمرقندي يحظى بشهرة عريضة وتقدير واسع من القرن الرابع حتى القرن الثالث عشر من التقويم الهجري، وأقدم المعلومات المتوفرة لدينا عن صناعة الورق في سمرقند تأتينا من الكتاب الجغرافي المسمى «حدود العالم من المشرق إلى المغرب» الذي كتب عام ٣٧١هـ. وأهم إشارة فيه إلى هذه الناحية من النشاط الاقتصادي في سمرقند هي:

ومنها يأتي ورق ينقل إلى كافة أرجاء العالم.[٢]

ونشطت صناعة الورق أيضاً في إصفهان حتى العشرينات من هذا القرن. فنحن نعرف من كتاب «محاسن إصفهان» الذي ألفه مافروخي في أوائل القرن الثامن الهجري (القرن ١٥م) وترجمه إلى اللغة الفارسية عالم من مدينة آوَه، أن الورق كان يصنع في إصفهان في ذلك الوقت على طريقة الكاغذ الرشيدي. وقد أضاف المترجم الكلمات التالية:

دون ثناءه على أفضاله على صفحة من كاغذ رشيدي صنعه بنفسه لكتابة أعماله الأدبية ولإحياء كتب علماء الماضي الكبار، وهو ورق لا نظير لجودته

من حيث نصاعة صفحاته، وحجمها وشكلها، ولينها ونظافتها، وقوتها، وملاستها وصقلها، فلا يوجد ولم يوجد له مثل في أية مملكة بعد إصفهان.[٤]

وكان الورق الإصفهاني يوزع على كل مدينة وكان دائماً ممتازاً في جودته. ومن الورق الجيد المصنوع في هذه المدينة في القرن الثالث عشر ورق سمي چهار بغل (ورق كبير الحجم)، وكانت الصفحة الواحدة منه تباع بمبلغ ٦ عباسي (عملة من النقود سميت نسبة إلى شاه عباس الصفوي). وقد ذكر ذلك حسين تحويلدار، مؤلف «جغرافية إصفهان»، في قوله: «على أية حال، يفضل البعض ورق خانباليق (بكين) على هذا الورق»، مما يدل على أن هذين النوعين من الورق كانا متشابهين في الجودة. وكان من أنواع الورق الأخرى المشهورة لهذه المدينة ذلك المسمي كاغذ فستقي نسبة إلى لونه الفستقي.

وكما رأينا مما سبق، كانت هناك مصانع للورق الممزوج بالماء بالقرب من المدينة المسماة ربع رشيدي. وقد ذكر رشيد الدين فضل الله ذلك المكان في صك الوقفية الرشيدية. كما ذكر كذلك أنواع الورق من نفس المنطقة في كتابه «سوانح الأفكار»، وهو تجميع لمراسلاته مع حكام زمانه، وأيضاً في مقدمة كتابه «لطائف الحقائق». وكان الورق المصنع في تلك المدينة من القطع الكبير وعلى نمط الورق البغدادي.

وكانت قزوين أيضاً من مراكز صناعة الورق في إيران. ونقرأ في «تذكرة شعراء كشمير» أن ملك الهند السلطان زين العابدين (١٤١٧–١٤٦٧م) جلب عدداً من صناع الورق من هذه المدينة إلى كشمير، وبفضل هذه البداية حل الورق محل التوز (وهو نوع من لحاء الشجر) لأغراض الكتابة. ويذكر هذا الحدث ملا نديمي كشميري في بيت الشعر التالي:

وصار الورق ملزمة وسُفْرٍ؛ حين فرّق الزمن بين التوز وبين الكتاب.

وكانت كاغذ كنان، الواقعة بالقرب من زنجان، مركزاً شهيراً لصناعة الورق لفترة قصيرة، وقد ذكر حمد الله مستوفي في «نزهة القلوب» (القرن ١٥م) أنها عرفت باسم كاغذ كنان منذ بداية صناعة الورق هناك، وقد أصابها

التدمير في عصر المغول، وحسب نفس المصدر و«معجم البلدان»، كانت المدينة يطلق عليها «خونج» قبل تسميتها كاغذ كنان وهو الاسم الذي تعرف به اليوم.

ويعلمنا محرابي في كتابه «تذكرة الأولياء» (القرن ١٦م) أن مصانع الورق وجدت أيضاً في كرمان، بالقرب من مدينة خندق. وكذلك نجد إشارات في تاريخين من القرن السادس عشر لمدينة يزد إلى طاحونه كاغذكري (طاحونة الورق) وحانوت كاغذي (دكان الورق) كانا من أملاك رجل اسمه فرج يهودي. وما زال هناك إلى اليوم شارع في أعتق أحياء المدينة يعرف باسم كوچة كاغذكري.

أما عن صناعة الورق في خراسان، فإن أقدم المخطوطات التي يمكننا الاعتماد عليها هي فهرست ابن النديم، الذي يخبرنا أن البداية الأولى لصناعة الورق في إيران كانت في خراسان، كما ذكر أسماء أنواع الورق الذي كان ينتج هناك. وعلى الرغم من أنني قصدت إلى تقديم هذا البحث اعتماداً على المصادر الفارسية، فقد شعرت أن النقطة السابقة بحاجة إلى مزيد من التوضيح.

ذكر ابن النديم سبعة أنواع من الورق، ستة منها تنسب إلى خراسان وما وراء النهر، وواحد من مصر، وهو المسمى كاغذ فرعوني، أما الأخرى فعرفت بالأسماء التالية: سليماني (نسبة إلى سليمان بن رشيد، وكان وزيراً للشؤون المالية في خراسان) - جعفري (نسبة إلى جعفر البرمكي) - طلحي (نسبة إلى طلحى بن طاهر من عصر أسرة الطاهريين التي حكمت خراسان) وطاهري (نسبة إلى طاهر الثاني من أسرة الطاهريين أيضاً) - نوحي (نسبة إلى نوح بن نصر من الأسرة السامانية). ويتضح من ذلك أن الورق كان يصنع في خراسان وأن أنواعه كانت على ما يبدو تسمى نسبة إلى كبار رجالات الدولة الذين فضلوها على غيرها.

وإذا أخذنا في الاعتبار هذه الإشارات، وكذلك دلالات أخرى تفيد بأن أسراً تعرف باسم كاغذي كانت تقطن في بيهق ونيشابور، وأن پل كاغذگران مذكور في شعر نزاري قهستاني، وأيضاً المعلومات التي استمدها «بورتر» من نص بابرنامه بشأن مصانع الورق في هرات،[٥] يمكننا الجزم بأن صناعة الورق انتشرت في سائر أنحاء المنطقة، بعد بدايتها الأولى في سمرقند.

وتأتينا أحدث إشارة عن صناعة الورق في خراسان من عصر ناصرالدين شاه (القرن ١٩م)، وهي في إحصاء للمنطقة أعده زين العابدين، ومنها نعلم أن نقابة صناع الورق كانت من ضمن النقابات الحرفية المحلية.

أما معلوماتنا الفنية المتعلقة بالأدوات والآلات التي استخدمت لصناعة الورق، فهي محدودة للغاية لاعتمادها على عدد قليل من الإشارات المتضمنة في المصادر الأدبية. ونحن نعلم مثلاً أن رشيد الدين فضل الله جلب عدداً من الحرفيين الصينيين إلى مصنع الورق (كاغذ خانه) الذي كان يملكه في ربع رشيدي، ودوّن المعلومات التي حصل عليها بخصوص أصناف الورق الصيني في كتابه «آثار وأحياء».[٦] وقد ذكر في حديثه عن أوجه الاختلاف بين الورق الصيني والتبريزي أن أهل الصين صنعوا ورقاً من لحاء شجرة التوت، وأحياناً صنعوه من الحرير، بينما كان الورق يصنع في إيران من القطن والخرق.

ولحسن الحظ تتوفر لدينا معلومات أكثر عن العصر الصفوي، تأتينا بصفة خاصة من إشارات في أعمال شعراء سبك هندي (الأسلوب الهندي) الذين نشطوا في تلك الفترة، والذين عادة ما استمدوا إلهامهم من الأمور اليومية العادية. وقد ورد موضوع الورق في تشبيهاتهم البلاغية، مثلما ذكره طغراي مشهدي عن قالب كاغذ (قالب صنع الورق):

ما أكثر ما أعادت فتاتي مكاتيب الهوى؛ حتى ظهرت فيها شقوق كشقوق قوالب الورق.

ومن الأشعار الكثيرة التي ذكر فيها الورق، أقتبس هنا ثلاثة أبيات فقط من قصيدة «مثنوي جوهر فرد» التي نظمها الشاعر عبدي بيك شيرازي، وكان من شعراء القرن السادس عشر، وعرف باسم النويدي، ويشيد فيها بمحاسن القطن:

يستمد الورق وجوده منه؛ كأن الوحي قد نزل عليه. الورق الهندي غضب من الورق الصيني؛ وأخبر واسط[٧] بأمر روم وزنجبار. حيناً يتكشف عن نفسه من بلاد خطائي؛ وحيناً يأتي بالأنباء من سمرقند.

ويعبر محمد شافعي همداني (القرن ١٨م) عن معان مماثلة في كتاب «شهر آشوب» من تأليفه. ولن أقتبس هنا النص نفسه، بل سأكتفي بإيراد أنه ذكر المصطلحات التالية: كاغذ خطائي وكشميري (ورق صيني وكشميري)، شحاف (مجلِّد الكتب)، مهره كشيدن (صقل الورق بالطلاء)، نشسته (النشاء)، آهار دادن (اللصق بالنشاء)، وكل هذه المصطلحات على صلة بصناعة الورق. كما روى همداني أيضاً بصورة ضمنية أسلوب صناعة الورق من الصوف.

ويقول مؤلف «كلزار كشمير» (القرن ١٩م)، والذي أمدنا بمعلومات عن صناعة الورق في كشمير، أن خرق نسيج الكتان كانت تحول إلى عجينة بواسطة ملح النشادر ثم تصب هذه العجينة في پنجر چهار خانه (وهو إطار مقسم إلى أربعة أجزاء) وفي دام (مصيدة) وبعدها كان الورق المنتج يطلى لصقله أو يسوى.

وفي العصر الصفوي كان صناع الورق يشكلون نقابة خاصة بهم، مما يفسر ذكر معظم كُتاب «شهر آشوب» لهم. وبطبيعة الحال لم يرد أي ذكر لكاغذكار (صناع الورق) في أقدم تصانيف «شهر آشوب»، وهو الذي ألفه مسعود سلمان (القرن ١٢م)، حيث اقتصر على ذكر النقاشين والخطاطين. ولكن الأمثلة الصفوية لهذا الأسلوب الأدبي، والتي من ضمنها «شهر آشوب» الذي ألفه لساني شيرازي (القرن ١٦م)، وآخر ألفه طاهر قزويني (القرن ١٧م)، اشتملت على أبيات شيقة عن صناع الورق. وأورد لكم هنا مثالاً من عمل لساني شيرازي:

سأشتري ورقاً أصنع منه ثوباً لألتمس منك الإنصاف؛ وحين أرتديه، سأتقدم متظلماً بشكواي.

ومن طُرف البلاغة أن طاهر وحيد يكني في شعره عن مصانع الورق، فيقارن صانع الورق بالخباز الذي ينتج صفحات الورق بدلاً من الخبز، وبينما يحل الماء محل النار في تنّوره (وفي مصنع الورق، يسمى المكان الذي يصب فيه الماء بالتنّوره). يقول الشاعر:

بما أن هذا الخبز يخبز بالماء بدلاً عن النار؛ فإن الكتاب يملأ بطنه بهذا الخبز.

لون الورق

إن المعلومات المتوفرة لدينا عن تلوين الورق وصقله لأكثر اكتمالاً بسبب وجود بحوث ورسائل متخصصة عن هذا الموضوع.[٨]

وأقدم عمل فارسي يتضمن إشارات إلى صباغة الورق هو «بيان الصناعات»، من تأليف حبيش تفليسي[٩] (ت. حوالي ٦٠٠هـ)، وكما ترون فأن هذا العمل يبلغ من القدم ثمانية قرون. وكذلك يذكر دولت شاه سمرقندي (القرن ٩هـ) في «التذكرة»، الفن والإتقان الذي بلغه سيمي نيشابوري، وهو مؤلف دراسة هامة عن صباغة الورق تعرف باسم «جوهر سيمي»، حققها ونشرها مؤخراً ي. بورتر.[١٠]

وكان هناك تنوع كبير في صباغة الورق، ومع أن ما زعمه قاضي أحمد يبدو مشوباً بالمبالغة، فنذكر أنه روى في «كلستان هنر» أن مولانا محمد أمين جدولكش («مسطرة الورق») كان يلون الورق بسبعين لوناً.

ولو ذكرنا كافة الألوان التي وصف بها الورق في الكتابات النثرية والأشعار لطالت هذه الدراسة طولاً لا داعي له. ولذلك أعددت قائمة تلحق بالدراسة. وكان ي. بورتر قد اعتمد في جمعه لقائمته[١١] على الأعمال التالية: «جوهر سيمي»، و«خوشنوسي»، و«مجموعات الصنائع»، «بياض خوشبوي». أما أنا فقد اعتمدت على «گلزار كشميري»، وعروض أمناء المكتبات القدامى وأصحابها لصفحات عناوين المخطوطات، و «گنجينه صفي» (فهرس أردبيل)، بالإضافة إلى المصطلحات التقنية المأخوذة من فهارس العصر القاجري. وقد أبرزت أية اختلافات بين قائمتي وقائمة بورتر، إذ وجدت ذلك ضرورياً وخاصة لوجود مصطلحين خاطئين من الناحية الإملائية في قائمة بورتر، ألا وهما ختائي وزمرد ليموي: فالأول صحيحه جنائي، ولاثاني زرد ليموي (أصفر ليموني).

وكانت الألوان المستعملة في صباغة الورق إما بسيطة أو مركبة. وكانت أكثرها شعبية آل (أصفر محمر)، وحنائي (برتقالي محمر)، وليموي (أخضر مصفر)، وفستقي، ونخودي (أصفر برتقالي). وكان الاعتقاد السائد هو أن الورق الأبيض الناصع ضار للعين في الضوء القوي، وأن الورق الملون أكثر ملاءمة.

وفي العصر الصفوي، كان أفضل الورق جودة ينتج في لوني آل وحنائي. ويقول لساني شيرازي عن ورق آل الملون:

كان بغرفتي ورق آل وردي؛ مذكراً إياي بالورود ووجه حبيبتي.

وقد نظم شعراء ذلك العصر قصائد عديدة مشيدين فيها بالورق الحنائي. وسأكتفي هنا بمثال واحد، وهو مقطع من بيتين من شعر نظمه واعظ قزويني، يقارن فيه لون الورق الحنائي بلون يد محبوبته:

لونك، في نضارته، كالحرير الصيني؛ ويدك، في رقتها، كالكاغذ الحنائي.

وعند هذا المنعطف، لعله كان من المناسب أن نتحدث عن الأوجه المختلفة لكاغذ أبري (نوع من الورق السميك المصقول) وأهميته في فن الخط، ولكن المجال لا ينفسح لذلك كما أنه يوجد عدد وافر من البحوث نشرت حول هذا الموضوع، منها مقالتان حديثتان بالفارسية، إحداها بقلم محمد حسن سمسار نشرت في «دائرة المعارف بزرگ إسلامي» والأخرى نشرها يحيى زكاء في دورية «آينده.»[١٢] ولهذا سأقتصر على ذكر الكتابات التي توجد فيها إشارات إلى كاغذ أبري. ويمكن العثور على النصوص الكاملة لتلك الكتابات في الدراسة الخاصة التي قمت بها. وهذه المصادر تشتمل على أعمال شعرية نظمها كليم كاشاني، وسليم تهراني، وصائب تبريزي، وواعظ قزويني، وعشرات غيرهم من الشعراء. والمقطع الشعري التالي يمدنا بمثال نموذجي لتلك المصادر الشعرية:

فلتعلمي أن بدونك أبكي دموعاً بمئة لون؛ رقشت بها لون الكاغذ الأبري.

وتعود الإشارات إلى تقنيات صقل الورق بطلاء من النشاء إلى القرن الثالث عشر الميلادي. وسأذكر هنا إشارتين من تلك الحقبة. واحدة مقتبسة من «فرخ نامه جمالي»، التي كتبها في ٥٨٠هـ جمالي يزدي ونشرتها بنفسي، وفيها يذكر أسلوب الصقل بنشاء الأرز.[١٣] أما الثانية فهي بيت شعر من نظم سوزني سمرقندي (ت ٥٦٢هـ) ويقارن فيها الشاعر بين ريش طائر اللقلق الباهر العازل للماء وبين الورق المصقول اللامع، حيث يقول: رأى ريش اللقلق وكأنه ورق ملمع مصقول.

وكان الورق المصقول ورقاً من نوعية جيدة وكان الطلب عليه كبيراً من قبل الخطاطين لأن القلم كان يجري عليه بسهولة. وقد خصص الخطاط المشهور سلطان علي مشهدي سبعة مقاطع من بحثه المعروف لذكر أسلوب صقل الورق، وكان هذا يتم في العادة يدوياً. ولكن محمد حافظ إصفهاني قال بأنه اخترع آلة في عام ١٥٠٦م يسرت هذه العملية، ولا نجد ذكراً لهذا الأمر سوى في كتابه «نتيجة الدولة.»(١٤)

أنواع الورق

من أهم النقاط التي حظيت بالبحث في ميدان علم المخطوطات الإسلامية مسألة التعرف على أنواع الورق المختلفة. فالمصادر الفهرسية في عمومها لا تتناول سوى لون الورق وسمكه، في حين استطعت استكشاف أسماء الأنواع المختلفة للورق التي استخدمت من النصوص نفسها. ولكن، تعرف المفهرسون المحدثون في البلدان الشرقية على تسمية الورق بصفة عامة بأسماء اعتمدوا فيها على الشبه والأقوال المتواترة، منافين أحياناً في ذلك الوقائع التاريخية المعروفة. فعلى سبيل المثال، بعد أن درست قيود فهرس كتابخانه ملي مالك، يمكنني القول بأن المصحف رقم ١٥ الذي نسخه ياقوت المستعصمي عام ٦٨٠هـ لا يمكن أن يكون قد كتب على ورق من نوع دولتآبادي حيث أن هذا النوع لم يرد له أي ذكر في مصادر تسبق في تاريخها القرن الحادي عشر الهجري. وكذلك صُنف ورق مصحف آخر (رقم ٤٤) مكتوب بالخط النسخي المبكر على أنه من النوع الدولتآبادي. ووصف ورق المصحف رقم ٤٦، وهو مكتوب بالخط الكوفي، بأنه من نوع ترمه ختائي، بينما مصطلح «ختائي» لا يبلغ قدمه بالتأكيد التسعمائة عام. وهذه الأمثلة القليلة أدت إلى اعتقادي بأن الاعتماد على المصطلحات الشائعة في تحديد أنواع الورق المستخدم في المخطوطات إنما هو أمر يتنافى والحكمة.

والركائز السليمة الوحيدة التي يمكننا الاعتماد عليها في التعرف على أنواع الورق هي تلك الحالات التي قام فيها أصحاب مكتبات المخطوطات العربية والفارسية والتركية وأمناؤها بتدوين عروض لها. وهي تتضمن العنوان والمعالم الظاهرة للمخطوطة ونوع الورق بشكل عام. فإذا قارب التاريخ المذكور في العرض تاريخ الخط يمكننا استنتاج أن اسم الورق هو ذلك الاسم الذي

كان شائعاً في عصر تدوين العرض. وبمقدورنا العثور على هذه الأسماء في فهارس معينة لمخطوطات العصور المبكرة، مثل فهرس أردبيل الذي تم تصنيفه عام ١١٧٢هـ (١٧٥٨ -١٧٥٩م) ونشر بعنوان «گنجينه شيخ صفي.»[١٥] وقد أحصيت أحد عشر نوعاً من الورق مذكورة في ذلك العمل.

ولحسن الحظ قام شهريار ضرغام مؤخراً بنشر قائمة جرد للگنجينه تم إعدادها على ما يبدو حوالي عام ١٣٠٧هـ (١٨٨٩-١٨٩٠م) ولكنها اقتصرت على مدنا بإشارات عن ورق جلد الغزال، وترمه، وخانباليغي، وختائي. وعلى الرغم من وجود شبه تطابق بين مصحفين من مصاحف الفهرسين، فقد وصفت معالمهما المحددة وصفاً مختلفاً في كل منهما. وقد سعيت إلى تسليط الضوء على هذه الاختلافات في الكتاب الذي قمت على وضعه، كما عمدت إلى وضع قائمة بالمصطلحات المتعلقة بالورق وأنواعه المذكورة في هذا الفهرس.

ومن جهة نظر المصادر القديمة (بما فيها فهرس ابن النديم والكتابات التاريخية والأدبية الفارسية)، يمكننا التعرف على أنواع الورق طبقاً لثلاثة ركائز.

أولاً: المصطلحات المتعلقة بالأماكن التي صنع فيها الورق، مثل إصفهاني، وبغدادي، ودولتآبادي، وسمرقندي، وشامي، وهندي. ومن هذه المصطلحات يوجد مصطلحان جديران بالتفصيل الإضافي: فالسمرقندي كان أشهر أنواع الورق، ونجد إشارات إليه في مصادر ترجع في قدمها إلى القرن الرابع، وأبكرها ذكر في كتاب «حدود العالم»، حيث يقول المؤلف عن سمرقند أنها موطن المانويين وأن الورق يصنع فيها ويصدر إلى كافة أرجاء العالم.[١٦] أما المصدر الثاني فهو سفرنامه ناصر خسرو (ت. ٤٨١هـ) حيث ذكر أن أهل طرابلس في الشام صنعوا ورقاً يضاهي في جودته الورق السمرقندي أو يتفوق عليه. وقد دامت تجارة الورق السمرقندي قروناً عديدة في إيران وورد ذكره في «رساله معرفي كاروان سرايهاى عصر صفوي» (المتحف البريطاني، رقم MS 9024)، حيث نجد إشارة إلى أن السمرقنديين باعوا ورقاً في سراي قوافل محمود بيكي. وينوه شاعر ذلك العصر محسن تأثيرات بالجودة العالية للورق السمرقندي في المقطع الشعري التالي:

عندما أكتب مشيداً بشفتيك، يصير الخطاب إكليلاً. فإذا كان الورق دفترياً (متوسط الجودة)، استحال سمرقندياً.

وقد تحدث الشعراء الناطقون بالفارسية كثيراً عن الورق الشمسي، وخاصة خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر. فعلى سبيل المثال، ذكره أمير خسرو دهلوي في «غرة الكمال»، كما أتاح لنا معلومات قيمة عن صناعة الورق من الحرير في عشرين مقطع شعري في كتابه «قِران السعدين». ولمح شاعر آخر من نفس القرن، وهو سراج سگزي، في بيت من أشعاره إلى أن الكاغذ الشمسي كان أبيض اللون وكذلك قارنه أمير خسرو بالصباح حين قال:

حين أشرق وجهك كشمس الصباح، تحول وجهي إلى لون أصفر كالكاغذ الشمسي المحلى بماء الزعفران.

ثانياً: المصطلحات المتعلقة بالأشخاص، مثل جيهاني، وسعدي، ورشيدي، وطلحي، وعادلشاهي، ومنصوري، ونوحي. وسأفصل هنا بعض الشيء كلاً من كاغذ سعدي وكاغذ عادلشاهي، وكانا نوعين من الورق متسمين بالجودة العالية. فمصطلح كاغذ سعدي يظهر في دواوين شاعرين من الشعراء. الأول هو سوزني سمرقندي، والثاني عبد الواسع جبلي الكرجستاني (ت. ٥٥٥هـ). ومن ذكر الكاغذ السعدي في أشعار هذين الشاعرين اللذين عاشا في نفس المنطقة، يتضح لنا أن هذا النوع من الورق كان مشهوراً وموضع تقدير كبير في خراسان، وربما استمد اسمه من شخص ذي مكانة عالية مثل سعد الملك أو سعد الدين، ويقول السوزني في شعره:

أعطاني شهاب الدين أحمد رزمتان من الورق السعدي، بأمر خواجه مؤيد.

أما عبد الواسع فيتحدث عن هذا النوع قائلاً:

عندي زندنيچي[١٧] وورق، وكلاهما جيد ولكن بهما عيبان: فالأول ليس (من نسيج) بو إسحاقي، والثاني ليس سعدياً.

وقد فضل خطاط العصر الصفوي الشهير مير عماد قزويني الورق السعدي على كاغذ دولتآبادي، وكلاهما من الهند، كما أشاد بالورق العادلشاهي في «آداب المشق» بقوله:

العادلشاهي هو أفضل الورق، لكونه قليل التحبيب. العادلشاهي ممتاز لدرجة أن الفنان يعتبره مثل زهرة بلا أشواك. قيمته معروفة لقلمي، الذي ينثر بسخائه أثمن اللآلىء. وبعده في الجودة يأتي الدولتآبادي، المعروف كذلك بالسلطاني.

وتوجد مخطوطة من الورق العادلشهاي ذكر في عرضها أنها «عهد نامه حضرت أمير» (علي بن أبي طالب)، كتبت للسطان إبراهيم بن شارخ (القرن التاسع). ويصف ورقها العرض الذي كتب عام ١٠٤٦ بأنه «قطع وسط كاغذ عادلشاهي من القطع المتوسط».

ثالثاً: المصطلحات المتعلقة بالعناصر المكونة ونمط الاستعمال وحجم الورق، من قبيل الأبريشامي، والچهار بغل، والطغرائي، وربما كذلك المنصوري. فعلى سبيل المثال، نجد الورق من القطع المنصوري مذكوراً في «قابوسنامه» (القرن ٥هـ)، في سياق نادرة عن السلطان محمود غزنوي. وتجدر الإشارة إلى أن الورق المنصوري يذكر في بعض المخطوطات باسم كاغذ منصوري فقط، بينما في مخطوطات أخرى يسمى كاغذ قطع منصوري. ومن المؤكد أن هذا النوع من الورق استمد اسمه من أبي منصور عامر (٤٩٥-٥٢٤هـ) أو من منصور ابن نصر عبد الرحيم كاغذي الذي كان نفسه صانع ورق. كما يعتبر غروهمان (Grohmann) أن درجا منصوريا، وهو مصطلح ذكر في «تحفة الأمراء» للصابي، قد سمي نسبة إلى أبي منصور أمير مثله مثل كاغذ منصوري.

وفي مخطوطة «الأربعين حديثاً» لتاج الدين (المنسوخة في القرن ٨هـ)، وكنت قد رأيتها في مسجد مدينة بكين، يذكر الكاتب أن الكاغذ المنصوري، هو

الورق الأفضل حيث أنه كان يستعمل للكتابة بالذهب: «والآن يكتبون بالذهب على الورق المنصوري.»

وبذلك يمكننا القول بأنه كان يوجد نوعان من الورق المنصوري قيد الاستعمال في بلاد المسلمين، سميا تبعاً للقطع والجودة.

متفرقات

إن التنوع في المصطلحات التي استخدمت لوصف جودة الورق وتلك المستخدمة لتسمية أنواعه (إما لأغراض التجارة أو الاستعمال) يتضح من القائمة المرفقة، والتي جمعت من إشارات في الكتابات القديمة.

وقد كان مصطلح «طبق» (ورقة) من أكثرها شيوعاً، وظهر في كتابات نثرية وأشعار من القرن السادس وبعده. فعلى سبيل المثال، نجده مذكوراً في «التوسل إلى الترسل» لبهاء الدين محمد، كاتب علاء الدين تكش خوارزمشاه، و«مرصد العباد» لنجم الدين دايا (ت. ٦٥٤هـ)، و«لطائف الحقائق» لخواجه رشيد الدين فضل الله همداني (ت. ٧١٨هـ). وربما يدلنا نص ملاحظة في الكتاب الأخير على حجم الطبق:

> لما أردنا تحسين الخرائط، رأى أنه من الضرورة زيادة مقاس الورق الذي رسمت عليه... فصنع صفحات كبيرة من الورق، الواحدة بمقاس يعادل ست صفحات، ثم رسم عليه تلك الخرائط.

أما المسألة الأخيرة المتعلقة بالورق، فهي تخص تلك الفنون التي اتصلت به، وفيما يلي قائمة بالأساليب الزخرفية التي ذكرت في الكتابات الأدبية والتاريخية:

أبري كردن	رقش الورق
أفشان كردن	مسح الورق برشات من ماء الذهب والفضة أو من الحناء

پاك كردن	إزالة الكتابة السابقة لإعادة الاستعمال، أو إزالة البقع من الورق
تذهيب وتشعير	الزخرفة بالذهب
جدول كشي	التسطير وتحديد الأعمدة
دو پوست كردن	قطع الورق إلى جزئين بتشريح سمكه إلى نصفين
رنگ كردن	الصباغة
قطّاعي	القَطع
كلفت كردن	السُمك
كهنه كردن	التقادم
مجلس كشي	المنمنمات
مسطر كشي	عمل خطوط مستقيمة غير مرئية للكتابة
مهره كشي	طلاء الصقل
وصُّالي	إعادة تجليد كتاب قديم

فعلى سبيل المثال، قال أحد الشعراء عن المسطر:

يجب على من ينصح بآداب الزهد أن يسطر جسده بخطوط حصيرة السمًّار.

وذكر مهربان أورنگآبادي مصطلح أفشان بقوله:

ما الداعي للحديث عن حالي، أيها الرسول، وقد مسحت (أفشان) الرسالة بدماء قلبي؟

إن المعلومات المتاحة لنا عن تجارة الورق وسعره خلال عصور مختلفة لتعيننا في بعض الأحوال على تحديد نوع الورق المستخدم لكتابة المخطوطات، حيث أن الورق الذي صنع في خراسان وإصفهان كان يستخدم في الهند، بينما أنواع الورق الهندي المختلفة كانت تنقل إلى إيران، ويمكن التعرف على معظمها في بعض المخطوطات الفارسية.

أرجو أن تكون هذه النبذة قد برهنت على أهمية التراث الأدبي الفارسي كأحد مصادر معرفتنا بتاريخ الورق وكمرجع لتحديد أنواعه المختلفة.

الحواشي

(١) انظر: J. von Karabacek, "Das arabische Papier. Eine historisch antiquarische Untersuchung", *Mittheilungen aus der Sammlung der Papyrus Erzherzog Rainer*, II-III (Vienna, 1887), 87-178; idem, "Neue Quellen zur Papiergeschichte", *Mittheilungen aus der Sammlung der Papyrus Erzherzog Rainer*, IV (Vienna, 1888), 75-122; Cl. Huart, *Les Calligraphes et les miniaturistes de l'orient musulman* (Paris, 1908), 8-11; F. Babinger, *Zur Geschichte der Papier-erzeugung im osmanischen Reiche* (Berlin, 1931); J. P. E. Pedersen, *Den arabiske bog* (Copenhagen, 1946) [= *The Arabic Book*, tr. G. French, ed. with an introduction by R. Hillenbrand (Princeton, 1984)]; A. Grohmann, *From the World of Arabic Papyri* (Cairo, 1952), 49-57; idem, *Arabische Paläographie*, I, Denkschriften der österreichischen Akademie der Wissenschaften, philosophisch-historische Klasse, XCIV (1967), 98-105; M. Levey, *Medieval Arabic Bookmaking and Its Relation to Early Chemistry and Pharmacology*, Transactions of the American Philosophical Society, New Series, LII/4 (Philadelphia, 1962); R. Sellheim, *Materialien zur arabischen Literaturgeschichte*, I (Wiesbaden, 1976) and II (Stuttgart, 1987); كركيس عوّاد، «الورق أو الكاغذ»، مجلة المجمع العلمي العربي، ٢٣ (١٩٤٨)، ص ٤٠٩–٤٣٨.

(٢) Y. Porter, *Peinture et arts du livre: essai sur la littérature technique indo-persane* (Paris, 1992).

(٣) «حدود العالم» تحقيق م. ستده، طهران، ١٣٤٠/١٩٦١، ص ١٠٧-١٠٨.

(٤) مافروخي، «محاسن إصفهان»، وترجمه إلى اللغة الفارسية حسين بن محمد بن أبي الرضاء الحسيني العلوي، تحقيق عبّاس إقبال، طهران، ١٣٢٨/١٩٤٩.

(٥) Porter, *Peinture*, 25.

(٦) رشيد الدين فضل الله همذاني، «آثار وأحياء» تحقيق م. ستده وإ. أفشار، طهران، ١٣٦٨/١٩٨٩.

(٧) مدينة عراقية اشتهرت بإنتاج الأقلام.

(٨) وقد تم التقديم لها في مقالة كتبها محمد تقي دانش پژوه. وقد نشر پژوه بعضاً من تلك البحوث والرسالات، ونشر بعضاً آخر كل من أحمد جلحين، ورضا مايل هروي، وفكري سلجوقي، وپرويز أزكائي، إلى جانب ما نشره حديثاً ي. بورتر (Y. Porter).

(٩) حبيش تفليسي، بيان الصناعات، تحقيق إ. أفشار، فرهنگ إيران زمين، ٤ (طهران، ١٣٣٦/١٩٥٧)، ص ٢٩٨-٤٥٧.

(١٠) Y. Porter, "Un traité de Simi Neyshâpuri, artiste et polygraphe", *Studia Iranica*, XIV/2 (1985), 179-98. ثمة ترجمة إنجليسية لهذه الدراسة في كتاب: W. M. Thackston, "A Treatise on Calligraphic Arts: a Description of Paper, Colours, Inks and Pens by Simi of Nishapur", *Intellectual Studies in Islam*, ed. M. M. Mazzaoui and V. B. Moreen (Salt Lake City, 1990), 219-28.

(١١) Porter, *Peinture*, 49-50.

(١٢) دائرة المعارف بزرگ إسلامي، ٢ (طهران، ١٣٦٨)، ٥٧٠-٤؛ يحيى زكاء، «كاغذ أبري»، آينده، ١٦ (١٣٦٩)، ص ٣٧١-٩.

(١٣) جمالي يزدي، «فرخ نامه جمالي»، تحقيق إ. أفشار (طهران، ١٣٤٦/١٩٦٧).

(١٤) محمد حافظ إصفهاني، سه رساله در اختراعات صناعتي: ساعت، دستگاه روغنكشي، «نتيجة الدولة»، تحقيق ت. بيرش، (طهران، ١٣٥٠/١٩٧١).

(١٥) گنجينه شيخ صفي (فهرس أردبيل)، (تبريز، ١٩٨٠).

(١٦) انظر ٣.

(١٧) نوع من الخرقة.

البرديات العربية

جفري خان

كان ورق البردي المادة الرئيسية المستخدمة في الكتابة في مصر على مدى أربعة آلاف سنة، وكان يشار إليه في العربية بكلمة «قرطاس» المشتقة من اليونانية عن طريق الكلمة الآرامية «قرطيس».[١] وكان ورق البردي يصنع من نبات السيبيروس بابيروس Cyperus papyrus الذي ينمو في مصر وكان أسهل في الاستعمال من بدائله المتاحة مثل الخشب والجلود والألواح الصلصالية، كما كان قابلاً لأن يُصنَّع في درجات مختلفة من السمْك والنوعية، ولاشك أن هذه العوامل قد ساعدت في نجاحه.[٢] على أنه من الصعب الحكم على الخواص الطبيعية لورق البردي عن طريق البقايا الهشة التي وصلتنا في العصر الحديث. وكان ورق البردي بعد تصنيعه يتميز بلون فاتح إلى جانب النعومة والقوة والمرونة.[٣]

يرجع استخدام ورق البردي إلى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد وقد لعب دوراً هاماً في تطور الحضارة المصرية القديمة، بل إن نبات البردي أصبح رمزاً لمصر السفلى في زمن سابق على عصر الأسرات في الألف الرابع قبل الميلاد.[٤] وابتداء من الألف الأول قبل الميلاد في أقل تقدير، صار لورق البردي منافس، هو الرق، والذي كان مادة كتابة ممتازة، إلا أن ورق البردي كان أسهل تصنيعاً من الرق.[٥] وعلى الرغم من أن الرق كان يستخدم استخداماً واسعاً في أماكن أخرى من العالم القديم، فإن ورق البردي حافظ على مكانته في

مصر خلال العصرين اليوناني والروماني.[٦] وقد انتقل استخدام ورق البردي إلى العرب بعد فتحهم مصر في القرن الأول الهجري (السابع الميلادي)، وظلت مادة الكتابة الرئيسية في البلاد حتى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، عندما أصبح عاجزاً عن منافسة الورق الذي كان أقل كلفة في الإنتاج.

على عكس البردي، لم تعتمد صناعة الورق على مادة خام تكاد لا توجد إلا في مصر. وقد دخل الورق العالم الإسلامي في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) عن طريق الصين، وكانت سمرقند أول مكان يصنع فيه، وشاع استخدامه في الأراضي الإسلامية الشرقية في وقت مبكر بالمقارنة مع الأراضي الغربية، وفي عصر هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٩م) بدأ استخدام الورق في الدوائر الحكومية.[٧] وقد كتب الجاحظ في القرن التاسع قائلاً: "إن برديات مصر هي عند الغرب مثل أوراق سمرقند عند الشرق".[٨] وقد استخدم الورق على نحو متقطع في مصر خلال القرن التاسع إلا أنه لم يصبح منافساً للبردي حتى القرن العاشر، ولا نصل إلى منتصف القرن العاشر حتى يكون الورق قد حل محل البردي في مصر وتكون صناعة هذا الأخير قد توقفت تماماً.[٩] وذكر ابن حوقل، الذي زار مصر في ٣٥٩هـ/٩٦٩م، نبات البردي، ولكنه لا يشير إلى استخدام ورق البردي في مصر كمادة للكتابة.[١٠] كما كتب المقدسي، في ٣٧٥هـ/٩٨٥-٩٨٦م، ذاكراً الورق باعتباره أحد المنتوجات المصرية، ولكنه لا يشير إلي صناعة البردي. على أننا نعرف من المسعودي، في سنة ٩٥٦م، أن صناعة البردي[١١] لم تكن قد انقرضت تماماً في مصر في القرن العاشر،[١٢] فالظاهر أنه كان ثمة بَعْدُ بعض استخدامات هامشية للبردي في ذلك الوقت، ومن أمثلتها عمل التعاويذ[١٣] والعلاج الطبي[١٤] على الرغم من ندرة استخدامه في الكتابة.

أما في المغرب، فإن الانتقال إلى استخدام الورق لم يحدث حتى وقت متأخر عن ذلك، فقد ظل الرق مادة الكتابة السائدة في تلك المنطقة، حتى القرن الحادي عشر الميلادي.[١٥]

ونعرف من ابن حوقل أن العرب كانوا لا يزالون يستخدمون ورق البردي، في صقلية، في مراسلات الدواوين الحكومية حتى النصف الثاني من القرن العاشر،[١٦] كما أن بعض البرديات التي عثر عليها في مصر كانت قد كتبت في الأصل في أماكن أخرى.[١٧]

خلال الفترة الطويلة من تاريخ مصر التي استخدم فيها ورق البردي تغيرت اللغات السائدة في البلد، بحيث أن ما تبقى لنا من مادة يتوزع بين اختصاصات خبراء اللغات المصرية القديمة، واليونانية، والقبطية، والعربية. فحين فتح العرب مصر كانت اللغات اليونانية والقبطية قد حلت محل المصرية القديمة، ثم سرعان ما حلت العربية محل هاتين في أغلب المجالات. وقد استمرت اللغة القبطية تستخدم من قِبل مسيحيي مصر من أتباع مذهب الطبيعة الواحدة. أما اللغة اليونانية فقد بطل استعمالها في القرن الثاني الهجري وقد بقي أثر من أهميتها السابقة في استخدام العربية الأرقام اليونانية في الحسابات العربية المبكرة.

البرديات العربية الباقية

وقد قدر غروهمان Grohmann عدد البرديات العربية في المجموعات المختلفة المعروفة له في أوروبا وأمريكا الشمالية والقاهرة بحوالي ١٦ ألفاً،(١٨) ويبدو أن هذا الرقم لا يشير إلا إلى الوثائق المحفوظة في حالة جيدة نوعاً، وأن العدد الإجمالي لأجزاء البرديات الباقية والتي تحتوي على كتابة عربية أكبر من ذلك بكثير،(١٩) والغالبية العظمى منها عبارة عن وثائق من نوع أو آخر، على حين يحتوي عدد يسير على نصوص أدبية. فأما النوع الأول فيشمل حسابات، وصكوك ملكية قانونية ووثائق إدارية من وضع موظفي الحكومة إلى جانب رسائل شخصية. وبعض الرسائل كتبها تجار ضمن معاملاتهم التجارية ومن تلك نتعلم الكثير عن التجارة في العصر الإسلامي الباكر. وإلى كون هذه الوثائق توفر لنا الأدلة على التاريخ الاجتماعي والاقتصادي، فإن الكثير منها يوفر مادة نافعة في المجالات الدراسية الأخرى، ومن ذلك أن مئات أسماء الأماكن المذكورة في البرديات تضيف إضافة كبيرة لمعلوماتنا الطوبوغرافية عن مصر في تلك الفترة، كما أن الرسائل والصكوك القديمة. وعلاوة على هذه تمثل البرديات الأدبية والتوثيقية مصادر هامة لدراسة الكتابة العربية القديمة وتطور اللغة العربية.

تشمل البرديات الأدبية بعضاً من أقدم شذرات النصوص المعروفة في العربية، ومن ذلك سيرة النبي محمد (صلعم) لابن هشام، والموطأ لمالك بن أنس وقصص ألف ليلة وليلة وأشعار العرب.(٢٠) وتشمل كذلك أجزاء من أعمال أخرى

كان المظنون أنها فقدت مثل مجموعة الحكايات التي تتناول النبي محمد (صلعم) والملك داوود والمنسوبة إلى وهب بن مُنبِّه، وكذلك مجموعة السوابق القانونية لعبد الله بن وهب وعبد الله بن لهيعة.[٢١]

حُفظ الكثير من البرديات الأوروبية في العصر الوسيط في الكنائس والأرشيف البابوي، إلا أنه لم يُقدّر البقاء لأي أراشيف عربية محتوية على مثل هذه الوثائق. ونتيجة لذلك فإن ما تبقى لدينا من البرديات العربية كلها منتشل من الأرض فإما أن يكون عُثر عليها مصادفة أو عن طريق أعمال التنقيب الأثرية الرسمية. وقد عثر على الكثير منها في تلال القمامة عند مشارف المدن حيث يتخلص السكان من جميع أنواع الفضلات بما في ذلك أوراق البردي مما لم يعد لهم حاجة به منذ أقدم العصور، وقد عثر على برديات أخرى في أطلال المباني القديمة وهذه غالباً ما تكون محفوظة في جرار محكمة الغلق.[٢٣] وقد عثر بعض الفلاحين المصريين في جرّة من هذا النوع على برديتين عربيتين في سقارة عام ١٨٢٤ والتي على أساس منهما وضعت أصول علم البرديات العربية على يد العلامة الفرنسي أنطوان سلفستر دي ساسي الذي قام بنشرهما في ١٨٢٥ و١٨٣١.[٢٤]

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر عثر على أعداد كبيرة من البرديات العربية في مواقع متفرقة من الفيوم وكذلك في مواقع أكثر تطرفاً نحو الجنوب بما في ذلك البهنسا والأشمونين وكوم اشقاو وإخميم والجبلين وإدفو ودندرة وأسوان. أما في مصر السفلى فما عثر عليه كان أقل بكثير. ولا شك أن السبب في ذلك هو نوعية التربة التي لا تسمح بالحفاظ على المواد العضوية، ومع ذلك فقد عثر على عدة آلاف من القطع في طلول الفسطاط.[٢٥]

يتكون أغلب مجموعات البرديات العربية الكبرى من مادة أتت أصلاً من مواقع في مصر العليا. وهذا يسري على المجموعات الموجودة في دار الكتب في القاهرة والمعهد الشرقي في شيكاغو والمتحف الوطني في برلين، والمكتبة الوطنية والجامعية في هامبورج، ومعهد علم البرديات في جامعة هايدلبرج، واللوفر والمكتبة الوطنية في باريس، والمكتبة البريطانية في لندن ومكتبة جون ريلاندز في مانشستر، ومكتبة بودليان ومتحف أشموليان في أكسفورد، والمجموعة السابقة للأرشيدوق رينر في ڤيينا، ومجموعة ويسلي في براغ.[٢٦] وثمة عدد قليل من المجموعات يحتوي على مادة أتى أغلبها من الفسطاط

وتشمل تلك الأخيرة مجموعات البرديات العربية الموجودة في متحف الفن الإسلامي في القاهرة،[٢٧] والمجموعة التي كانت سابقاً في حوزة ج. مايكليدس القاهري قبل أن تؤول إلى مكتبة جامعة كامبردج، ومجموعة الخليلي في لندن.

البرديات المنشورة

وقد ابتدأ نشر قطع هامة من المجموعات التي عثر عليها في مواقع بصعيد مصر عند نهاية القرن الماضي. وكان قد سبق نشر برديتين عربيتين، توجد إحداهما الآن في المتحف الوطني في برلين (P. Berol. 8505)، والأخرى في مكتبة جامعة ليبزج في سنة ١٨٨٠ بواسطة أ. و. لوت وقتما كانتا لا تزالان في حيازة المؤلف.[٢٨] وكانت تلك أول وثائق بردية عربية تتاح منذ ظهور وثائق سقارة التي نشرها سلفستر دي. ساسي في النصف الأول من القرن ثم أعيد نشرها في عدد من المناسبات.[٢٩] على أنه يجب أن نلاحظ أن بضعة نصوص بروتوكول عربية مكتوبة على البردي (انظر التفاصيل فيما يلي) كانت قد نُشرت قبل ظهور مقالة لوت، ومثال ذلك بروتوكول عربي في بداية لفيفة تحتوي على أمر بابوي من البابا يوحنا الثامن لسنة ٨٧٦م في المكتبة الوطنية في باريس،[٣٠] وثلاثة بروتوكولات عربية في بداية بعض وثائق قبطية من المتحف المصري بالقاهرة.[٣١]

إن الدراسة الوليدة لعلم البرديات العربية قد تأسست تأسيساً جيداً عن طريق سلسلة من الدراسات الفذة لبرديات مختارة ووثائق ورقية من مجموعة إرزهرزوغ رينر قام بها فون كاراباتشيك،[٣٢] كما قدم وصفاً سريعاً لعدد من البرديات العربية يبلغ ٣٦٦ من مجموعة ڤيينا في دليل المعرض المعنون «Führer durch die Ausstellung (PERF 550-916)».[٣٣] قام أ. غروهمان بنشر نصوص البروتوكولات البردية العربية وثنائية اللغة (عربية/يونانية) من مجموعة إرزهرزوغ رينر.[٣٤] وخطط لنشر مجلد لاحق يشمل وثائق إدارية، غير أن طباعته تعذرت بسبب الهبوط الاقتصادي في النمسا. وقد نشر الكثير من هذه الوثائق في نهاية الأمر في سلسلة من المقالات.[٣٥] وتسيطر منشورات غروهمان المتشعبة على حقل دراسات البرديات العربية، وقد دقق مجموعات من الوثائق مأخوذة من مجموعات برديات أخرى، كان أكبرها تلك المشتملة على تحقيقه

لبرديات في المكتبة المصرية[٣٦] والمتحف الوطني في برلين[٣٧] ومجموعة ويلسلي في براغ.[٣٨] وفي كل حالة كان يستخرج من المجموعة وثائق متفرقة صالحة للنشر، (وكانت مجموعة صغيرة من البرديات من برلين قد نشرها في وقت سابق ل. أبل).[٣٩] ومن ضمن الوثائق المتفرقة الأخرى التي نشرت في شكل كتاب بعد استخلاصها من مجموعة مفردة ما نشره أ. ديتريش (هامبورج)[٤٠] و د.س. مارغوليوث (مانشستر)[٤١] وخان (لندن).[٤٢] كما نشر أ. ديتريش، (وفي عهد أحدث و. ديم) كتباً مكرسة لرسائل باللغة العربية على ورق البردي من مجموعات هامبورج[٤٣] وهايدلبرج،[٤٤] كل على حدة.

وفي سنة ١٩٠١ أُكتشف كنز من الرسائل المكتوبة على أوراق البردي كتبها قرّة بن شريك الوالي الأموي بمصر من ٩٠ إلى ٩٦هـ (٧٠٩ إلى ٧١٤م) في قرية في الصعيد تدعى اشقاو على مسافة سبعة كيلومترات إلى الجنوب الغربي من طما، والتي كانت تعرف سابقاً باسم افروديتو في اللغة اليونانية وبعضها الآخر ثنائي اللغة (بالعربية واليونانية)، وقد ضُمت هذه الرسائل إلى مجموعات برديات مختلفة. وقام س.هـ بِكَر[٤٥] بنشر الرسائل العربية وثنائية اللغة المتضمنة في مجموعة هايدلبرج، كما أن بِكَر ضم معاً الرسائل العربية المنسوبة لقرة بن شريك منتشلا إياها من مجموعات مختلفة.[٤٦] وقامت ن. أبوت بتحقيق الرسائل العربية التي كَتبها ذلك الوالي في المعهد الشرقي بشيكاغو.[٤٧] أما تلك الرسائل الموجودة في دار الكتب المصرية فقد ضُمنت فيما نشره غروهمان من البرديات نقلاً عن تلك المجموعة[٤٨] وقام برنشتدت بنشر جزء من رسالة لقرة في سان بطرسبرج[٤٩] ومن فترة قريبة نشر راغب رسائل لقرة اكتشفت في السوربون[٥٠] وهذه الرسائل المنسوبة لقرة بن شريك تلقي في مجموعها ضوءاً كبيراً على فترة الإدارة الأموية في مصر والتي تندر حولها الوثائق.

كانت أعمال بِكَر المتناولة لبرديات قرة[٥١] أول منشورات تضم معاً برديات من نفس النوع مأخوذة من مجموعات متباينة وقد انتحى غروهمان نفس المنحى في كتابه حول نصوص البروتوكولات. وبالإضافة إلى المادة الموجودة في مجموعة رينر يحوي هذا العمل كل البروتوكولات العربية وثنائية اللغة الموجودة في كل المجموعات الأخرى والمعلومة (أو على الأقل متيسرة المنال لدى المؤلف إبان وضعه لكتابه). وقام يان بدراسة الصيغ في الرسائل العربية ونشر عدداً صغيراً من برديات الرسائل العربية مأخوذة من مجموعات ڤيينا

وهايدلبرج.[٥٢] أما راغب فقد جمع من مجموعات بردية مختلفة رسائل ووثائق من أرشيف إحدى العائلات التجارية.[٥٣] وقد نشر خوري حديثاً مختارات من البرديات العربية اعتماداً على مادة جمعها غروهمان،[٥٤] وهي تحوي نماذج من أنواع عديدة من الوثائق مأخوذة من مجموعات مختلفة. وقد جُمعت كل البرديات المعروفة المكتوبة في العربية – اليهودية (أي العربية المكتوبة بالأحرف العبرية) من مجموعات مختزلة ونشرت معاً على يد كل من بلاو وهوبكنز.[٥٥]

يركز تحليل وثائق البرديات العربية في أغلب المنشورات السابقة على تفاصيل بيئتها الاجتماعية والاقتصادية والخلفية الخاصة بأسماء الأشخاص والتعرف على أسماء الأماكن والمقارنة مع غيرها من الوثائق الموجودة فيما يتصل ببعض الكلمات والعبارات. وقد قام هوبكنز[٥٦] بدراسة منهجية للنحو العربي في البرديات، كما قام ديم في تحليله للبرديات العربية بالمساهمة في دراسة لكل من النحو العربي في البرديات، كما قام ديم في تحليله للبرديات العربية بالمساهمة في دراسة لكل من النحو وتركيب العبارات، ويحوي كتابه الحديث حول الرسائل العربية من هايدلبرج[٥٧] مناقشات تفصيلية لصيغ العبارات ومقارنة مع الوثائق المنشورة الأخرى كما يحوي الكتاب قائمة بألفاظ الصيغ الرسائلية.

اكتشفت عدة برديات عربية في مواقع خارج مصر إذ يوجد الآن برديتان عربيتان من دمشق في المعهد الشرقي بشيكاغو.[٥٨] كما اكتشف عدد صغير في سامراء خلال أعمال التنقيب الألمانية سنة ١٩١١.[٥٩] كذلك عثر على بردية عربية ترجع إلى الفترة ٥٢–٧٠هـ (٦٧٢ – ٦٨٩م) في عوجاء الحفير (نيسانه) على مقربة من بئر شفا بواسطة بعثة هـ. دنشكوم كولت سنة ١٩٣٦–١٩٣٧.[٦٠] كذلك اكتشف عدد كبير من البرديات في خربة المرد بالصحراء اليهودية في الخمسينات من هذا القرن يرجع أغلبها إلى القرنين الأولين للإسلام كما أنها جميعها تقريباً لم يبق منها إلا شذرات.[٦١]

لفائف البردي وصناعتها

تأتي معلوماتنا عن زراعة البردي في الزمن القديم من تقارير الكُتّاب الأقدمين الذين سجلوا أن النبات كان يزرع في مزارع أغلبها يقع في مناطق مستنقعات الدلتا[٦٢] وعلاوة على هذا فإن برديتين يونانيتين تبقيتا من العصر

الروماني الأول (إحداهما من سنة ١٣-١٤ق م، الأخرى من سنة ٥ ق م) تحتويان على صكوك إيجار لمزارع بردي.[٦٣] والمفترض أن هذا النوع من الزراعة في المزارع قد استمر خلال عدة القرون الأولى بعد الفتح العربي لمصر في سنة ٦٤٠م رغم أنه ليس لدينا دليل مباشر على ذلك. كذلك فإننا نعلم من المصادر القديمة أن البردي كان ينمو في منطقة ما بين النهرين على ضفاف الفرات[٦٤] ويبدو أن الأمر استمر على ذلك النحو خلال الفترة العربية المبكرة وكانت نباتات البردي تزرع في صقلية حتى وقت متأخر من العصور الوسطى إلا أنه طبقاً لما ذكره ابن حوقل فإن أغلب البردي الذي كان يزرع هناك كان يستخدم في صنع حبال السفن، وأن الكمية الصغيرة من مادة الكتابة التي كانت تنتج كانت تخصص لاستعمال السلطان وحده.[٦٥]

تذكر المصادر العربية مثل أبي صالح واليعقوبي مصانع عديدة للبردي كانت قائمة في مصر في الفترة الإسلامية الباكرة،[٦٦] كما تذكر مصنعاً في سامرّاء أقامه الخليفة المعتصم في سنة ٢٢١هـ/٨٣٦م.[٦٧] كذلك ذُكرت مصانع البردي المصرية في البروتوكولات العربية المدرجة في بداية لفائف البردي.[٦٨]

قدم بلينيوس الأرشد[٦٩] وصفاً منهجياً لصناعة البردي في العصور القديمة، إذ يخبرنا بأن الشرائح كانت توضع على لوح مبلل بماء النيل الذي كان يلصق مابين الشرائح بما فيه من طمي.[٧٠] إلا أن التحليل الحديث للبرديات القديمة قد كشف أن ما يمسك الشرائح بعضها ببعض إنما هو المادة الغروية الطبيعية المتضمنة في عصارة ساق نبات البردي والتي تسيل حين تُحطِّم خلايا النبات، ولا يبدو أنه كان لماء النيل أية وظيفة لاصقة على الإطلاق.[٧١] كان البردي يجفف ثم يُنعَّم بأن يدعك بقطعة من العاج أو بصدفة وفي آخر مرحلة من مراحل هذه العملية كانت تستخدم مطرقة خشبية لفرد التجعدات الباقية والحواف وما شبه ذلك من العيوب في مسطَّح الورق.[٧٢]

يرجع الوصف الوحيد لصناعة البردي في المصادر العربية إلى أبي العباس النباتي المتوفى في سنة ٦٣٧هـ (١٢٣٩م)، مما يعني أنه عاش في فترة كانت صناعة البردي قد توقفت منذ زمن طويل.[٧٣] وحسب رواية النباتي كان المصريون في الأزمنة السابقة على عصره يشقُّون ساق البردي نصفين ويقطعون جزءها الأسفل رأسياً إلى شرائح ثم ترص الشرائح جنباً إلى جنب فوق سطح خشبي ناعم ثم يرص فوقها صف آخر من الشرائح في زوايا قائمة.

وعلى العكس من بلينيوس يشير النباتي بوضوح إلى استخدام لزوجة صناعية ويسجل أن طبقتي البردي كانتا تضغطان معاً وتلصقان بمادة لاصقة عن طريق إذابة بذور نبات اللوتس الأزرق في الماء وحين تجف الصفحة كانت تطرق بمطرقة خشبية حتى تزال خشونتها.

كان حجم صفحات البردي يختلف اختلافاً كبيراً إبان الفترة العربية فقد وجد غروهمان أن عرضها كان يتراوح بين ١٢,٧سم و٣٧سم بينما يتراوح الارتفاع بين ٣٠سم و٥٨سم.[٧٤] وكان ثمة تراوحات مشابهة في العرض والارتفاع في برديات العصر القديم.[٧٥]

كانت نوعيات البردي تختلف في الفترة العربية كما في الفترة القديمة وكان لدى الرومان اصطلاحات لوصف النوعيات المختلفة فكانوا يقولون charta emporitica (أي بردي تجاري) لوصف الصحائف الخشنة غير الصالحة للكتابة والتي تستخدم في لف المشتريات بينما كانوا يستخدمون ألفاظاً مثل Augusta وLiviana لوصف الصحائف الشديدة الرقة[٧٦] ويبدو أن ثمة نوعاً من البردي يشبه «الكارتا امبوريتيكا» قد استخدم في العصر العربي، ذلك أن ثمة عدداً من الإشارات في البرديات العربية إلى استخدام صحائف البردي للف المجوهرات والأدوية والأردية وما شابه ذلك.[٧٧] كما كتبت بعض الوثائق العربية على ورق بردي شديد النعومة.[٧٨]

لم يكن منتجو البردي يبيعونه في صحائف منفصلة ولكن كانت الصحائف تلصق معاً بحيث تشكل لفيفة، ولعل أحد الأسباب في ذلك أن ورق البردي يميل إلى التآكل عند الحواف، حيث كانت الحواف الرأسية للصحائف عرضة بصفة خاصة للضرر الناتج عن التناول. أما في حالة اللفائف فلم يكن هذا الضرر وارداً بسبب التخلص من الحواف. كانت الصحائف تتداخل عند الوصلات بمقادير مختلفة تبلغ عادة حوالي ٢سم في كل من العصرين اليوناني والعربي.[٧٩] وكانت الحافة اليمنى لكل صحيفة تغطي الحافة اليسرى للصحيفة التالية وكان يجري تنعيم أي خشونة في الوصلات بحيث لم تكن تسبب أي عائق لأقلام الكتابة وكانت تكاد تكون غير مرئية، وعلى السطح الداخلي مع الاتجاه إلى الداخل تجري ألياف البردي موازية لطول اللفيفة (أي بمحورها الطولي). وكان الغرض من هذا النظام تقليل فرص انفصال الألياف بعضها عن البعض الآخر، أما الألياف الرأسية الخارجية فكانت تثنى بعيداً عن بعضها

البعض عند اللف إذ لو أنها كانت في الداخل لدافعت بعضها البعض وكانت عرضة لأن تقفز منحلة من مواضعها. وزيادة على ذلك فلو كانت الألياف الأفقية جهة الخارج لتعرضت وصلات الصحائف للضغط عند طي اللفيفة ولتعرضت أطراف الألياف للتسلُّخ.

كان الكتبة يكتبون على الوجه الداخلي للفيفة وإذا كان ثمة داع للكتابة على الوجهين فكانت البداية دائماً بالوجه الداخلي، ومن ثم فبالإمكان أن نشير إلى الوجه الداخلي بالركتو recto وإلى الوجه الخارجي بالفرسو verso. وحين كانت تقص قطع من لفيفة لتدوين وثيقة أو رسالة فإن الكاتب كان أيضاً يستخدم الجانب الذي كان أصلاً جزءاً من الوجه الداخلي للفيفة. وفي العصر العربي فإن كل الوثائق تقريباً المتبقية والمدونة على الوجه الداخلي للبردي كانت تكتب بحيث تتوازي عمودياً مع الألياف. والذي يثبت أن الجانب الذي نتحدث عنة هو الجانب الداخلي للفيفة هو أن محل الوصلات في الصحائف المسجلة عليها الوثائق تبدو موازية لخطوط الكتابة. أما ممارسة كتابة الوثائق متقاطعة مع الألياف فنجدها في برديات ما بعد العصر القديم.

كانت الوثائق الطويلة تأخذ شكل «الروتولي rotuli» أي اللفائف التي تفرد رأسياً. أما النصوص الأدبية فعادة ما كانت تكتب على اللفيفة في شكل أعمدة بحيث تجري الخطوط موازية للألياف وعمودية مع وصلات الصحائف وكان هذا النوع من اللفائف يُقرأ أفقياً. وفي العصر البيزنطي تزايد استخدام المخطوطات لتسجيل النصوص الأدبية، وكذلك في العصر العربي فإن أغلب البرديات الباقية والمحتوية على نصوص أدبية عربية هي أوراق من مخطوطات. ولفيفة البردي في هايدلبرج المحتوية على مجموعة أحاديث عبد الله بن لهيعة مكتوبة على هيئة روتولوس rotulus (٨٠) أي لفيفة تفرد رأسياً.

ولعل السبب أن الوثائق كانت تكتب عرضية على الألياف كان الرغبة في الاقتصاد في استخدام البردي. ولو أن الكاتب كتب وثيقة قصيرة مع اتجاه الألياف ثم قطعها من اللفيفة فالأغلب أنه يتسبب في شكل غير منتظم في طرف اللفيفة.(٨١)

في كل من العصرين اليوناني والعربي كانت الصحيفة الأولى من اللفيفة تسبقها صحيفة تمهيدية (protokollon)، والتي كانت عند وصلها تقلب على ظهرها بحيث تكون خطوط الألياف عمودية على السطح الداخلي للفيفة. وفي

عبارة أخرى فإن ألياف الصحيفة التمهيدية كانت تتعامد مع ألياف الصحائف في بقية اللفيفة وكان الغرض من ذلك حماية ألياف الصحيفة الأولى من التآكل.(٨٢)

كان الوجه الداخلي للصحيفة التمهيدية يحمل نصاً يعرف بالبروتوكول، وكان ذلك يكتب باليونانية اتباعاً للتقليد البيزنطي حتى عام ٧٤ أو ٧٥هـ (٦٩٣-٤ أو ٦٩٤-٥م) حين أمر الخليفة عبد الملك أن تكتب البرتوكولات باللغتين اليونانية والعربية فلما جاء عهد الخيفة هشام (الذي حكم من ٧٢٤ إلى ٧٤٣م) صارت النصوص في تلك الصحيفة تكتب بالعربية وحدها. وكانت البروتوكولات العربية تحتوي على البسملة وعدد من الصيغ الدينية يتضمن الآيات القرآنية ١٧٣:٣ و٩:٣٣ و٩:٦١ إلى جانب الصلاة على النبي واسم الخليفة الحاكم في ذلك الوقت، ووالي مصر أو رئيس الخزانة الإقليمية أو كليهما، وأحياناً كانت تحوي أسماء بعض الموظفين شاغلي المناصب الرفيعة إلى جانب اسم المكان الذي أنتج فيه البردي واسم المشرف في مصنع البردي. والظاهر أن صناعة البردي قد احتكرت من قبل الدولة في العصر العربي على نحو ما كانت في مصر السابقة على الإسلام، ومن ثم كان الغرض من نصوص البروتوكولات إثبات أن اللفيفة من إنتاج مصنع بردي مملوك للدولة وبذلك تصان حقوق الاحتكار.(٨٣)

كل نصوص البروتوكولات الموجودة في اللغة العربية مكتوبة بخط سميك؛ ربما بفرشاة. وفي بعض البروتوكولات اللاحقة كانت الأحبار الملونة تستخدم في بعض أجزاء النصوص وأحياناً كانت صحيفة البروتوكول تُنزع من اللفيفة ويعاد استخدام ظهرها من أجل نصوص أخرى.

كانت صحيفة البروتوكول - التي كانت بطبيعة الحال تلف حول لفيفة البردي من الخارج - تصنع عامة من ورق أسمك من ذلك المستخدم في الصحائف الأخرى. وفي بعض الأحيان كانت اللفائف تُغلف بالرق مبالغة في حمايتها أو أنها كانت تحفظ في أوعية من مادة صلبة كالزجاج أو الصلصال. ويخبرنا بلينيوس أنه في العصر الروماني كانت لفائف البردي تتكون من ٢٠ صحيفة.(٨٤) ويبدو أن الأمر كان كذلك أيضاً في العصر العربي وكان البردي يباع إما في لفائف كاملة أو أجزاء تتكون من سدس لفيفة وكانت تلك الأجزاء

تسمى بالعربية «طومار» أخذاً عن الكلمة اليونانية tomarion وكانت أطول أجزاء البردي التي لا تبلغ ٢٠ صحيفة توصف عادة بأنها أجزاء من الطومار.[٨٥] وأحياناً ما كان الجزء الصغير يشار إليه بتعبير «قطعة قرطاس».

كتب أغلب البرديات العربية بقلم من القصب المشقوق وكان هذا له نفس شكل القلموس الروماني calamus والذي اشتق اسمه منه، وفي بعض البرديات تركت القصبة المشقوقة خطاً مزدوجاً في رسومات الأحرف وفي بعض الأحيان يبدو الخط في بعض البرديات غاية في الغلظة مما يدفع إلى الظن بإنه كتب بواسطة أداة أخرى قد تكون عوداً من الدِّيس قُطع قطعاً مائلاً أو فرشاة. وكان الحبر يصنع عادة من السخام ولونه أسود، غير أننا نعثر أحياناً بحبر بني مائل للاحمرار والذي يظن أنه كان يصنع من العَفْصَة الجوزية.[٨٦]

كان البردي مرتفع الثمن نسبياً فكان ثمن اللفيفة يصل إلى الدينار ونصف الدينار في القرن الثالث الهجري وذلك في وقت كان الدينار الواحد يمثل الإيجار السنوي لفدان من الأرض الزراعية أو لدُكّان على سبيل المثال. ولذلك فإن أغلب الناس كانوا حريصين على الاقتصاد في استخدام البردي وكان الوجه الخارجي الأبيض من الصحيفة كثيراً ما يستخدم لكتابة نص آخر وأحياناً لم يكن لذلك النص الثاني أي علاقة بالنص المكتوب على الوجه الداخلي. وفي بعض الأحيان كان الشخص الذي يتلقى رسالة يستخدم الوجه الخارجي الفارغ لكتابة ردّه على الرغم من أن هذا كان سلوكاً ناقص اللياقة. وعلى سبيل المثال فإن الخليفة المعتصم حين تلقى رسالة من الإمبراطور البيزنطي فإنه كتب رده على ظهرها تعبيراً واضحاً عن احتقاره للإمبراطور وكان أولئك الذين يكتبون ردودهم على الوجه الخارجي للرسالة الأصلية يحسُون بضرورة الاعتذار عن ذلك، وكانوا يلجأون إلى الصيغة التالية في اعتذارهم: «اعذرني في القرطاس».

قدمت في هذا البحث عرضاً موجزاً لتطور علم البرديات العربية إلى جانب وصف لجوانب مختلفة للبرديات العربية من حيث كونها مخطوطات. ولم أشر إلا إشارة عابرة إلى أهمية البرديات في دراسة الكتابة العربية ولغتها وتاريخها. ولا يزال علم البرديات العربية في أغلب جوانبة في مرحلة باكرة نسبياً من تطوره ولا شك أن إمكاناته لم تتحقق بقدر ما حدث في علم البرديات اليونانية على سبيل المثال. ولا تزال آلاف البرديات العربية المحفوظة في

مجموعات مختلفة – لا تزال غير منشورة والحاجة بيِّنة إلى نشر هذه النصوص في طبعات محققة حتى تحظى بما تستحقه من التفات الدارسين.

الحواشي

(١) S. Fraenkel, *Die aramäischen Fremdwörter im Arabischen* (Leiden, 1886), 245. في سياق استعمال البردي كمادة للكتابة، عرف النبات باسم «ورق البردي» أو «ورق القصب»؛ راجع: R. Sellheim, s.v. "Kirṭās", *Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed (Leiden and London, 1960-), V 173

(٢) A.Grohmann, *From the World of Arabic Papyri* (Cairo, 1952), 1

(٣) N. Lewis, *Papyrus in Classical Antiquity* (Oxford, 1974), 57-61.

(٤) *The Cambridge Ancient History*, ed. I. A. S. Edwards, C. J. Gadd and N. G. L. Hammond, 3rd ed, I/2 (Cambridge, 1971), 7

(٥) C. H. Roberts and T. C. Skeat, *The Birth of the Codex* (Oxford, 1987),10.

(٦) Lewis, *Papyrus in Classical Antiquity.*

(٧) ابن خلدون، «كتاب العبر» (بولاق، ١٢٨٤ هـ[١٨٦٧م])، ١/٣٥٢؛ المقريزي، «كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» (بولاق، ١٢٧٠ [١٨٥٣م])، ١/ ٩١؛ القلقشندي، «صبح الأعشا» (بولاق، ١٩٠٣)، ١/٥٧٨؛ نفس المصدر (القاهرة، ١٣٣١–١٣٣٨هـ/١٩١٣–١٩١٨)، ٢/٤٧٥.

(٨) الثعالبي، «لطائف المعارف» (ليدن، ١٨٦٧)، ٩٧؛ راجع: السيوطي، «حسن المحاضرة» (بولاق، ١٢٩٩ [١٨٨٢م])، ٢/٢٣٨. ومع ذلك، نلفت النظر إلى وثيقة ضمن مقتنيات ناصر الخليلي، مكتوبة على البردي، تأتي من شمال بلاد ما بين النهرين، ويمكن تأريخها في حوالي العام ٢٤٠هـ/٨٥٤–٨٥٥م. انظر: G. Khan, *Arabic Papyri. Selected Material from the Khalili Collection*, Studies in the Khalili Collection, I [London and Oxford,1992], no. 6.

(٩) J. von Karabacek, "Das arabische Papier. Eine historisch-antiquarische Untersuchung", *Mittheilungen aus der Papyrus Erzherzog Rainer. Führdurch* Karabacek et al. (Vienna, 1894), 245.

(١٠) ابن حوقل، «كتاب المسالك والممالك» تحقيق M. J. de Goeje (ليدن، ١٨٧٣)، ٨٦.

(١١) المقدسي، «كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» تحقيق M. J. de Goeje (ليدن، ١٨٧٧)
ص ٣٢ وما بعدها، ١٩٣ وما بعدها، ٢٠٢ وما بعدها.

(١٢) al-Mas'ūdī, *Kitāb al-Tanbīh wa-l-ishrāf*, Notices et Extraits des Manuscrits de la Bibliothèque Nationale, VII (Paris, 1810), 146

(١٣) Karabacek, "Das arabische Papier",100-1.

(١٤) ابن البيطار، «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» (بولاق، ١٢٩١ [١٨٧٥])، ٨٦- ٨٧.

(١٥) S. D. Goitein, *A Mediterranean Society*, I (Berkeley and Los Angeles 1967), 112.

(١٦) ابن حوقل، «كتاب المسالك والممالك»، ٨٦.

(١٧) Khan, *Arabic Papyri*, no. 6, كتب في دير نسطوري ببلاد ما بين النهرين في حوالي ٢٤٠هـ/
٨٥٤-٨٥٥م.

(١٨) Grohmann, *From the World of Arabic Papyri*, 2.

(١٩) انظر:، S. A. Hopkins, *Studies in the Grammar of Early Arabic Based upon Papyri Datable to Before 300 AH/912 AD* (Oxford, 1984), xli, n. 3.

(٢٠) انظر: N. Abbott, "A Ninth-century Fragment of the Thousand Nights. New Light on the Early History of the Arabian Nights", *Journal of Near Eastern Studies*, VIII (1949), 129-64; idem, *Studies in Arabic Literary Papyri*, I-III (Chicago, 1957-72).

(٢١) انظر: R. G. Khoury, *Wahb ibn Munabbih* (Wiesbaden, 1972), J. David-Weill, *Le Djāmi' d'Ibn Wahb* (Cairo, 1939-48); R. G. Khoury, *'Abdallāh ibn Lahī'a (97-174/115–790). Juge et grand maître de l'école égyptienne* (Wiesbaden, 1986).

(٢٢) H. Bresslau, *Handbuch der Urkundenlehre für Deutschland und Italien* (Leipzig, 1931), 479-92. نشرت الكثير من الوثائق البردية الموجودة بالأرشيفات (أو المكتبات) الأوربية، في سلسلة مطبوعات من إصدار A. Bruckner and R. Marichal, *Chartae Latinae Antiquiores. Fascimile Edition of the Latin Charters Prior to the Ninth Century* (Olten and Lausanne, 1954-).

(٢٣) Grohmann, *From the World of Arabic Papyri*, 8.

(٢٤) A. Silvestre de Sacy, "Mémoire sur quelques papyrus écrits en arabe et récemment découverts en Egypte", *Journal des Savans* (1825), 462–73; idem, "Mémoire sur quelques papyrus écrits en arabe et récemment trouvés en Egypte", *Histoire et Mémoires de l'Institut Royal de France, Académie des Inscriptions et Belle-lettres*, IX (1931), *Mémoires*, 66-85. هذه البرديات موجودة الآن بالمكتبة الوطنية، باريس (مخطوطات عربية ٤٦٣٣-٤٦٣٤).

(٢٥) انظر المزيد من التفاصيل في: Grohmann, *From the World of Arabic Papyri*, 11, 214-7; idem, *Einführung und Chrestomathie zur arabischen Papyruskunde*, I, *Einführung* (Prague, 1954), 7-35.

(٢٦) Grohmann, *Einführung und Chrestomathie*, 36-62.

(٢٧) نفس المرجع، ٢٧.

(٢٨) O. Loth, "Zwei arabische Papyrus", *Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft*, XXXIV (1880), 685-91

(٢٩) أعيد نشر وثائق سقارة في: J. B. Silvestre, *Paléographie universelle*, I, Peuples orientaux (Paris, 1839), 190-2, pl. 1; idem, *Universal Palaeography* (tr. into English with corrections and notes by F. Madden, London, 1850), 84ff, pl. xxix; W. Wright (ed), *The Palaeographical Society. Facsimiles. Manuscripts and (Oriental Series)* (London, 1875-83), pl. 5.

(٣٠) M. Champollion-Figeac, *Chartes latines sur papyrus, du VIe siècle de l'ère chrétienne, appartenant à la Bibliothèque Royale* (Paris, 1835), pl.1.

(٣١) F. Lenormant, *Essai sur la propogation de l'alphabet phénicien dans l'ancien monde* (Paris, 1872), pls. 19-21; E. Revillout, *Mélanges d'épigraphie et de linguistique égyptienne*, Mélanges d'Archéologie Égyptienne et Assyrienne, II (Paris, 1875), pl. 1ff, 194; idem, *Actes et Contracts des Musées égyptiens de Boulaq et du Louvre, I, Etudes du* Egyptologiques, V(Paris, 1876), 1, 90, 94.

(٣٢) J. von Karabacek: "Der Papyrusfund von El-Faijûm", *Denkschriften der kaiserlichen Akademie der Wissenschaften: philosophisch-historische Classe* [Vienna], XXXIII (1883), Erste Abtheilung 207-42; "Eine merkwürdige arabische Namensunterschrift", *Mittheilungen aus der Sammlung der Papyrus Erzherzog Rainer*, I (Vienna, 1886), 126; "Das arabische Papier" [see n. 9 above], 87-178; "Neue Quellen zur Papiergeschichte", *Mittheilungen aus der Sammlung der Papyrus Erzherzog Rainer*, IV (Vienna, 1888), 75-122; "Die Involutio im arabischen Schriftwesen", *Sitzungsberichte der kaiserlichen Akademie der Wissenschaften: philosophisch-historische Classe* [Vienna], CXXXV, (1896), Abhandlung no. 5, 1-26.

(٣٣) *Papyrus Erzherzog Rainer. Führer durch die Ausstellung*, ed. Karabacek *et al.* (Vienna, 1894), 137-243. أعد كاراباتشيك طبعة كاملة من ٢٥٠ وثيقة، كان المفروض أن تظهر ضمن سلسلة Corpus Papyrorum Raineri إلا أن هذا السلسلة لم تكتمل. (أنظر: Grohmann, *Einführung und Chrestomathie*, 57).

(٣٤) A. Grohmannn, *Protokolle*, Corpus Papyrorum Raineri Archiducis Austriae, III, Series Arabica, I/2 (Vienna, 1924).

(٣٥) Grohmann: "Aperçu de papyrologie arabe", *Études de Papyrologie*, I (1932), 23-95; "Ein Qorra-Brief vom Jahre 90 d.H", *Aus fünf Jahrtausenden morgenländischer Kultur. Festschrift Max Freiherrn von Oppenheim zum 70. Geburtstage* (Berlin,1933), 37-40; "Eine arabischer Grundsteuerquittung vom Jahre 297 d.H. (909/10 n. Chr.) aus dem Amtsbereich eines 'Abbasidenprinzen", *Mémoires publiées par les membres de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire*, LXVIII (1935-40) (*Mélanges Maspéro*, III), 9-13; "Texte zur Wirtschaftsgeschichte Ägyptens in arabischer Zeit", *Archiv Orientální*, VII (1935), 437-72; "Ein arabischer Steuerpapyrus aus der Sammlung der Papyrus Erzherzog Rainer", *Zeitschrift für die neutestamentliche Wissenschaft und die Kunde der älteren Kirche*, XXXVII (1938), 52-3; "Einige bemerkenswerte Urkunden aus der Sammlung

der Papyrus Erzherzog Rainer an der Nationalbibliothek zu Wien", *Archiv Orientální*, XVII/3 (1950), 80-119.

Grohmann, *Arabic Papyri in the Egyptian Library* (6 vols Cairo, 1935-62). (٣٦)

Grohmann, "Arabische Papyri aus den Staatlichen Museen zu Berlin", *Der Islam,* XXII (1935), 1-68. (٣٧)

Grohmann, "Arabische Papyri aus der Sammlung Carl Wessely im orientalischen Institut (Orientální Ustav)zu Prag", *Archiv Orientální* X (1938), 149-62 (nos 1-8); XI (1939), 242-89 (nos9-28) (XII (1941), 1-112 (nos 29-49) ; XIV (1943)161-260 (nos 50-96). (٣٨)

L. Abel (ed), *Aegyptische Urkunden aus den königlichen Museen zu Berlin. Arabische Urkunden* (2 parts, Berlin, 1896-1900). (٣٩)

A. Dietrich, *Arabische Papyri aus der Hamburger Staats—und Universtitäts-Bibliothek*, Abhandlungen für die Kunde des Morgenlandes, XXII/3 (Leipzig, 1937). (٤٠)

D. S. Margoliouth, *Catalogue of Arabic Papyri in the John Rylands Library, Manchester* (Manchester, 1933). (٤١)

(٤٢) [انظر الهامش (٨) أعلاه]: G. Khan, *Arabic Papyri*

نفس المؤلف: *Bills, Letters and Deeds. Arabic Papyri of the 7th to 11th Centuries,* The Nasser D. Khalili Collection of Islamic Art, VI (London and Oxford, 1993).

A. Dietrich, *Arabische Briefe aus der Papyrussamlung Hamburger Staats- und Universtitäts-Bibliothek*, Veröffentlichungen aus der Hamburger Staats- und Universitäts-Bibliothek, V (Hamburg, 1955). (٤٣)

W. Diem, *Arabische Briefe auf Papyrus und Papier aus der Heidelberger papyrus-Sammlung* (Wiesbaden, 1991). (٤٤)

C. H. Becker: *Papyri Schott-Reinhardt*, I, Veröffentlichungen aus der (٤٥) Heidelberg, 1906); "Arabische Papyri des Aphroditofundes", *Zeitschrift für Assyrologie und verwandte Gebiete*, XX (1907), 68-104; "Neue arabische Papyri des Aphroditofundes", *Der Islam*, II (1911), 245-68.

N. Abbott, *The Kurrah Papyri from Aphrodito in the Oriental Institute* (Chicago, 1938). (٤٦)

Grohmann, *Arabic Papyri in the Egyptian Library*, 146-163. (٤٧)

P. Jernstedt, "Die Kome-Aphrodito Papyri der Sammlung Lichaïov", in G. Zereteli, (ed.), *Papyri Russicher und Georgischer Sammlungen*, IV (Tiflis, 1927), 92-3. (٤٨)

Y. Rāghib, "Lettres nouvelles de Qurra b. Sharīk", *Journal of Near Eastern Studies*, XL (1981), 173-87. (٤٩)

Becker, *Papyri Schott-Reinhardt.* (٥٠)

Grohmann, *Protokolle.* (٥١)

K. Jahn, "Vom frühislamischen Briefwesen. Studien zur islamischen Epistolographie der ersten drei Jahrhunderte der Hiğra auf Grund der arabischen Papyri", *Archiv Orientální*, IX (1937), 153-200. (٥٢)

Y. Rāghib, *Marchands d'étoffe du Fayyoum au* III^{e}/IX^{e} *siècle, d'après leurs archives (actes et lettres)*, I-II, Suppléments aux Annales Islamologiques, II, V (Cairo, 1982-5). (٥٣)

R. G. Khoury, *Chrestomathie de papyrologie arabe, préparée par Adolf Grohmann; retravaillée et élargie par Raif Georges Khoury* (Leiden, New York and Cologne, 1993). (٥٤)

J. Blau and S. Hopkins, "Judaeo-Arabic Papyri - Collected Edited, Translated and Analysed", *Jerusalem Studies in Arabic and Islam*, IX (1987), 87-160. (٥٥)

(٥٦) [انظر الهامش (١٩) أعلاه]. Hopkins, *Studies in the Grammar of Early Arabic*

(٥٧) Diem, *Arabische Briefe.*

(٥٨) N. Abbot, "Arabic Papyri of the Reign of Ǧa'far al-Mutawakkil 'alā-allāh(AH 232-47/AD 847-61)",*Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft*, XCII (1938), 88-135.

(٥٩) E. Herzfeld, *Erster vorläufiger Bericht über die Ausgragungen von Samarra* (Berlin, 1912), pl. xxxvi b.

(٦٠) C. J. Kraemer, "The Colt Papyri from Palestine", *Actes du v^e congrès international de papyrologie* (Brussels, 1938), 238-44; idem, *Excavations at Nessana*, III (Princeton, 1958).

(٦١) نشر جروهمان بعض المختارات، *Arabic Papyri from Khirbet el-Mird* (Louvain, 1963) - للبرديات الأدبية انظر مطبوعات Abbott وKhoury المذكورة أعلاه.

(٦٢) Theophrastus, *Historia Plantarum*, ed. F. Wimmer (Leipzig, 1854), IV xviii. 3; Strabo, *Geographica*, ed. G. Kramer (Berlin, 1852), XVII. i. 15; Pliny, *Naturalis Historia*, ed. C. Mayhoff (Leipzig, 1875), XIII. xxii. 71.

(٦٣) *Aegyptische Urkunden aus den königlichen Museen zu Berlin. Griechische Urkunden*, IV (Berlin, 1904-12), nos. 1121, 1180

(٦٤) يبدو أن السلوقيين هم الذين أدخلوا البردي إلى بلاد ما بين النهرين في القرن الثالث قبل الميلاد، وهذا بسبب التقطع في استيراده من مصر البطلمية. انظر Lewis, *Papyrus in Classical Antiquity*,11, Pliny, *Naturalis Historia*, XIII. xxii. 73.

(٦٥) ابن حوقل، «كتاب المسالك والممالك»، ٨٦.

(٦٦) Abū Ṣāliḥ, *The Churches and Monasteries of Egypt and Some Neighbouring Countries Attributed to Abu Salih, the Armenian*, ed. and tr. B. T. A. Evetts (Oxford, 1895), 66;

اليعقوبي، «كتاب البلدان» تحقيق M. J. de Goeje (ليدن، ١٨٩٢)، ١٢٦، ١٢٧.

(٦٧) اليعقوبي، «كتاب البلدان»، ٣٩؛ نفس المؤلف، «تاريخ» تحقيق M. T. Houtsma (ليدن، ١٨٨٣)، ٢/ ٥٧٧.

(٦٨) Grohmann, *Protokolle*, nos. 116, 140, 162, 204.

(٦٩) Pliny, *Naturalis Historia*, XIII. xxiii. 74 - xxvi. 82.

(٧٠) نفس المرجع: XIII. xxiii. 77.

(٧١) Lewis, *Papyrus in Classical Antiquity*, 47-9.

(٧٢) Pliny, *Naturalis Historia*, XIII. xxv. 81.

(٧٣) ضمن ابن البيطار (وهو أحد تلامذة النباتي) هذا الوصف في كتابه «الجامع» (الجزء الأول، الصفحة ٨٧).

(٧٤) Grohmann, *Allgemeine Einführung in die a rabischeu Papyri, nebst Grundzügen der arabischen Diplomatik*, Corpus Papyrorum Raineri Archiducis Austriae, III, Series Arabica, I/1 (Vienna, 1924), 40-1.

(٧٥) Pliny, *Naturalis Historia*, XIII. xxiv. 78; Lewis, *Papyrus in Classical Antiquity*, 56.

(٧٦) انظر: Pliny, *Naturalis Historia*, XIII. xxiii. 74, 76. يورد Isidore of Seville (*Origines*, ed. W. M. Lindsay [Oxford, 1911], VI, 10) أسماء مختلفة للبردي بدرجاته، هي: *Emporetica, Augustea and Libyana*

(٧٧) Khan, *Arabic Papyri*, 149.

(٧٨) Khan, *Arabic Papyri*, nos. 1 and 2.

(٧٩) Grohmann, *Allgemeine Einführung*, 42.

(٨٠) انظر المراجع المذكورة في الهامش ٢١ أعلاه.

(٨١) لمزيد من التفاصيل حول الملفوفات البردية، أنظر: E. G. Turner, "The Terms Recto and Verso. The Anatomy of the Papyrus Roll", *Actes du XVe Congrès International de Papyrologie*, première partie (Brussels,1978),15-53

(٨٢) نفس المرجع، ٢١.

(٨٣) Grohmann, *From the World of Arabic Papyri*, 39–42

(٨٤) Pliny, *Naturalis Historia*, XIII. xxiii. 77.

(٨٥) Grohmann, *From the World of Arabic Papyri*, 43–4

(٨٦) نفس المرجع، ٦٢- ٦٨.

خصائص تجليد المخطوطات في العصر المملوكي

سهام محمد المهدي

كانت مصر رائدة فن التجليد منذ القرن الرابع الميلادي حيث نقلت عنها المراكز الحضارية المجاوره عبر العصور. واشتهرت مصر بنشاطها الواسع في تصنيع وتصدير كميات من الجلد. كما اشتهرت مراكز كثيرة في الجزيرة العربية مثل صنعاء وصعدة وزبيد ونجران في الجنوب ومثل الطائف في الحجاز التي اشتهرت بجلودها من نوع الرق. وقد مدح أبو القاسم حسين بن محمد الأصفهاني (٥٠٢هـ/١١٠٨م) كتابا رآه في الطائف من الرق كتب بالخط الكوفي ومغلف بلوحين من الخشب.[١]

كما ذكر المجلد والجغرافي المقدسي (كتب في ٣٧٥هـ/٩٨٥-٩٨٦م) أنه تعلم صناعة التجليد في جنوب الجزيرة في إحدى رحلاته الطويلة، وكان يتخذ لقب ورّاق ومجلّد ضمن ألقابه العديدة ويجلد المصاحف بالأجر، بل إن حارة الحسينية في القاهرة تنسب إلى جماعة من الأشراف الحسينيين قدموا من الحجاز في أيام الملك الكامل (٦١٥-٦٣٤هـ/١٢١٨-١٢٣٦م) ويقال إنهم نزلوا خارج باب النصر بالقاهرة وبنوا مدابغ صنعوا بها الأديم المشبه بالطائفي.[٢]

وحفلت المصادر المختلفة بذكر الكثير من المخطوطات المزوقة ذات الأغلفة الفاخرة، وخاصة المصاحف التي حرص المسلمون على وضعها في أغلفة تناسب قيمة محتواها في نفوسهم فضلا عن كتب الحديث والتفسير والفقه والعلوم المختلفة.

ولفن التجليد في العصر المملوكي مكانة خاصة حيث وصلتنا أمثلة عديدة لهذا الفن، حفلت بها المكتبات الخاصة والعامة في أوروبا والعالم الإسلامي. ويمكن من خلال هذه الأمثلة متابعة تطور فن التجليد وازدهاره ودراسة أساليب الصناعة والزخارف المختلفة، وهو ما لم يتوفر للباحثين في العصور الإسلامية قبل ذلك العصر، لأسباب عديدة منها ما أصاب المكتبات الشهيرة من تخريب على أيدي الغزاة، وما أفرزته الخلافات المذهبية. ونذكر، على سبيل المثال، ما حدث للمكتبة الفاطمية في مصر، والتي أفاض المقريزي في وصف ما كان بها من آلاف الكتب المجلدة، التي صارت تلالا تعرف بتلال الكتب، أخذ العبيد جلودها فصنعوا منها أحذية لهم.[٣]

وهناك عدة عوامل أثرت بطريقة مباشرة في ازدهار فن التجليد في هذا العصر، أهمها النشاط الثقافي والديني، الذي كان من أبرز مظاهره كثرة الإنشاءات الدينية والخيرية، كالمدارس والخانقاوات والمساجد، التي لعبت دورا مزدوجا، ففضلاً عن وظيفتها الدينية لإقامة الصلوات، كان لها الدور الأكبر في تدريس علوم الشريعة والحديث والفقه والتفسير على المذاهب الأربعة، بل قام بعضها بتدريس علوم أخرى، كالطب والكيمياء، وقد صاحب *تلك الإنشاءات تزويدها بالكتب التي تضاعفت أعدادها* لكثرة ما أوقف منها. واشتغل الطلبة والصوفية بنسخ الكتب، وتجليدها.

ولم يقتصر وجود المكتبة على منشآت السلاطين والأمراء المماليك، بل وجدت خزانات خاصة كثيرة، منها الخزانة السلطانية بقلعة الجبل، والخزانات الأميرية لدى الأمراء، وكذلك العلماء والأدباء، الذين تباروا في جمع المخطوطات النادرة والمصاحف الثمينة وقد وصلنا كثير من المخطوطات والمصاحف، التي جمعت من تلك المنشآت، وتفخر دار الكتب المصرية باقتنائها مجموعة رائعة من الكتب الدينية والمصاحف والربعات، التي بقي بعضها محتفظا بأغلفته الأصلية، وقد سبق لي دراسة أكثر من سبعين مثالا منها.[٤]

ولدراسة فن التجليد وخصائصه في العصر المملوكي يمكن التركيز على عناصر محددة مثل شكل المخطوط، وطريقة صناعته، والمواد المستخدمة في هذه الصناعة وطرق زخرفته، وأساليبها المختلفة، وأخيراً تسليط الضوء على بعض الأمثلة التي توضح تطور هذا الفن وازدهاره. وقد اعتمدت في الدراسة السابق ذكرها على دراسة عملية لمجموعة دار الكتب المصرية من مخطوطات العصرين الأيوبي والمملوكي.

ولا يتسع المجال هنا لتناول طريقة صناعة المخطوط بالتفصيل الدقيق، ولكن مجمل القول أنه اتبعت في صناعته طرق حافظت على شكله حتى الآن، رغم مرور عدة قرون، وهو ما لم يتوفر للكتاب في العصر الحديث.

وقد اتخذ الكتاب المخطوط، وخاصة المصحف، شكلا موحدا بدأ في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وهو الشكل الأفقي (أي الذي يزيد الارتفاع فيه عن العرض) أو ما يسمى بالمصحف العمودي، أو الفورمه الفرنسية، ويتصل به لسان خماسي الأضلاع تصل مساحته إلى ثلث حجم الكتاب، ويكون الاتصال بواسطة ما يطلق عليه «قنطرة اللسان» وهو تطور شكل اللسان في الكتب المبكرة، التي كانت تتصل بالغلاف من جهاته الثلاث. وتم الاستغناء عن الأحزمة ذات العراوي والأقفال التي تربط الكتاب. كما يتكون الغلاف من الجلدة الخارجية، والبطانة الداخلية، وبينهما دفوف من الورق المستعمل المضغوط. أما الكتاب فيتكون من ملازم مخزومة معا بطريقة تجعل الخيوط تبدو كالسلسلة أو الجديلة في خلفية الملازم، مع تقفية كعب الكتاب، أي تدويره حتى لا ينصرم إلى الأمام فيما بعد. وتتصل الملازم بالغلاف الجلد بواسطة الدفوف. وتترك صفحات خالية من الملازم في أول الكتاب ونهايته لتثبيت أطراف البطانة بها من الجهتين، ثم يشبك الجميع في كعب قماش في رأس وذيل الكتاب، منسوجا في طرفيه بخيوط ملونة. وكان الغلاف الخارجي للكتاب من الجلد البني بدرجاته، من قطعة واحدة مع الكعب واللسان، أما البطانة فمن الجلد المبشور أو الخفيف، وقد تكون من القماش الحرير الأزرق أو الأخضر بدرجاته. واستخدم النشا والكثيراء في لصق الجلد والكعب في خلفيات الملازم. ونفذت الزخارف بطرق عديدة، منها الطرق القديمة مثل الدلك أو التمحيط والتثقيب والتخريم. وطرق متطورة مثل القطع أو التفريغ على أرضية من الحرير الأزرق أو الأخضر، والضغط بالأختام أو القوالب الساخنة،

وقد لعب هذا الأخير دورا رئيسيا. كما صاحب التذهيب معظم الزخارف خاصة المفرغة منها فضلاً عن استخدامه مضغوطاً على بعض الأغلفة.

واستخدمت طرق كثيرة في التذهيب، منها الضغط بالذهب المصهور، أو الضغط بصفائح الذهب تحت القوالب الساخنة المنقوشة، وكذلك وضع تلك الصفائح على الزخارف المضغوطة وإعادة الضغط عليها. وفي أواخر القرن الخامس عشر استخدم التذهيب بالفرشاة.

ونالت بطانة المخطوط حقها في الزخرفة، فكان يتم زخرفتها قبل قصها بقدر الكتاب. واستخدم في زخرفتها قوالب خاصة البروز بعد تسخينها، ويبدو أنها كانت قوالب كبيرة الحجم، تتسع لضغط زخارف من وحدات وعناصر زخرفية كبيرة، بعكس الغلاف الخارجي الذي كان يتم تقسيمه إلى متن وأركان وإطار ولسان، وكل منها يحتاج إلى نوع خاص من القوالب لاستخدام وحدات زخرفية متكررة ومتتابعة. وفي زخرفة اللسان أيضا روعي نقش نفس الوحدات في المتن والإطار. وفي أحيان أخرى اختلفت زخرفة اللسان عن زخارف المتن. وبملاحظة دقة الرسوم والعناصر الزخرفية، وضبط قياسها على صفحة الجلدة، يتضح لنا أنها صممت بخيال دارس، وعارف بأصول الرسم والهندسة، ثم نفذها النقاشون على القوالب، ثم استخدمها المجلد. ويرجع إلى ذلك تكرار النماذج الزخرفية على تحف مختلفة المواد، كالأحجار والأخشاب والمعادن والنسيج. ومن المعروف أن زخارف المنسوجات والوزرات الرخامية والمحاريب كان يصمم لها الرسوم مثل هؤلاء الرسامين والمهندسين.[٥] ومن جهة أخرى كان من بين المجلدين من جمع بين حرفة التجليد وبين الزخرفة. وقد وصلتنا أسماء بعض فناني التجليد، في العصر المملوكي، من العلماء الذين جمعوا بين العلم وفنون التجليد والوراقة وأحيانا التذهيب، منهم يوسف بن علي عبد الواحد المكناسي (ولد عام ٧٠١هـ/١٢٠٦م) الذي جمع بين المشيخة والتجليد والخط،[٦] ومحمد بن أحمد بن عبد الله الشمس (ولد عام ٧٥٧ هـ/١٢٥٦م) الذي تميز في صناعة التجليد والتذهيب والكتابة وعمل المزهرات وقص الورق وقام برسم برقع الكعبة والمقام من سنة ٧٨٥-٨٦٠هـ،[٧] وهناك ابن المصري مرشد بن محمد بن محمد الزين، من مجلدي القرن التاسع الهجري، الذي كان كثير التنقل للاسترزاق، وقد نشر أخيرا غلاف نسب إلى مصر في القرن الرابع عشر عليه توقيع «عمل ابن المصري».[٨] كما وصلتنا توقيعات جديدة لمجلدين لم يستدل على سيرهم الذاتية، ولكن يمكن دراسة أساليبهم الفنية، من خلال ما قاموا

بتجليده من مخطوطات، ومن هؤلاء إسماعيل ويسن بن يحيى وأمين أو أميني، ومحمد الشريف والحسن.

وكما أبدع فنان العصر المملوكي في صنعة التجليد، فقد أبدع في زخرفة الجلدة بمختلف الوحدات والعناصر الزخرفية. وقد اتخذت زخارف التجليد في هذا العصر صوراً مختلفة ومتنوعة التفاصيل، ولكنها لم تتجاوز في مضمونها الأشكال والتكوينات الهندسية والعناصر النباتية التي تتوسط المتن، فلم يستخدم الفنان صوراً آدمية أو حيوانية، بعكس ما نراه في أغلفة المخطوطات الإيرانية. وكان للكتابات نصيب ولكن في نطاق ضيق. وعني بزخارف أغلفة المصحف وأجزائه، على حين كانت أغلفة الكتب المخطوطة بسيطة الزخارف. ومما يلفت النظر تكرار الزخارف ذاتهاعلى أغلفة من عصورمتتابعة، مما يرجح أنها إما نفذت بنماذج من القوالب الجاهزة التي استخدمت لسنوات عديدة، وإما أن الفنان استمر في العمل لمدة طويلة بحيث تتابع عمله لدى أكثر من سلطان أو صاحب منشأة.

وشملت العناية بزخرفة الغلاف كل تقسيماته: المتن والإطار والأركان واللسان وباطن الغلاف. وتنقسم زخرفة المتن إلى طرازين، أهمهما المناطق الهندسية المختلفة الأشكال، منها الدائرية واللوزية من المربعات أو المثلثات المتداخلة، وقد يقسم داخلها بالتالي إلى تكوينات تفصيلية أخرى من الأطباق النجمية، أو الأشكال الأخرى من التقسيمات الهندسية كاللوزات والسروات والمخموسات والسداسيات..الخ. وأحيطت تلك المناطق، والدائرية منها بصفة خاصة، بفصوص نصف دائرية أو ميمات متتابعة أو خطوط إشعاعية، وملئت كل تلك التقسيمات بأنواع من الجديلات والخطوط السلسلية والوريدات والدوامات والخطوط المعكوفة. وقد عرفت المناطق الهندسية في فن التجليد منذ ما قبل العصر المملوكي، وهناك نماذج منها على أغلفة المخطوطات الأيوبية بدار الكتب المصرية، إلا أنها تطورت تطورا كبيرا على أغلفة المخطوطات المملوكية، فتنوعت أشكالها وتفاصيلها، واستخدم التذهيب في تحديدها.

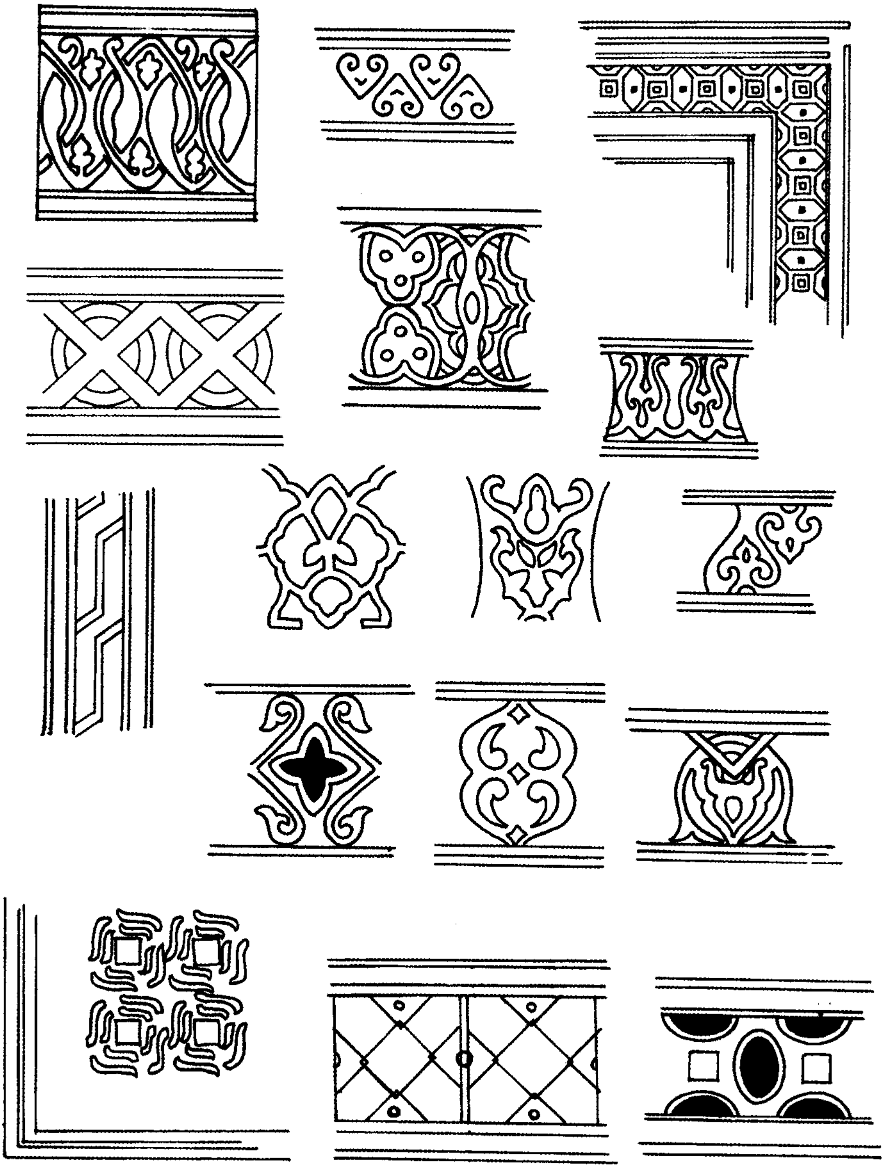
أما الطراز الثاني من زخرفة المتن فهو التكوينات الهندسية وأشهرها الأطباق النجمية التي يتناثر حولها أطباق أصغر منها، أو وحدات من أشكال هندسية مختلفة الأشكال بحيث تغطي كامل مساحة المتن. وينقسم الطبق

النجمي إلى ترس مركزي يقوم حول سروات (لوزات) مضلعة، يتداخل معها عدد من الأشكال الخماسية الأضلاع، يطلق عليها اسم كندة أو بكشة، وتنتظم في ترتيب إشعاعي، فتقع أطرافها على محيط دائرة حقيقية. وتم ابتكار عناصر كثيرة لملء أسطح تلك المناطق الهندسية، كالنقط الذهبية والمشعة، والوريدات والدوامات، والعناصر السلسلية والقلبية والمجدولة والمعكوفة، فضلا عن التلاعب بالخطوط والدوائر لعمل أشكال زخرفية متنوعة. وزخرفت إطارات الأغلفة بأشرطة كاملة، قد تكون منفردة أو مزدوجة، من تلك العناصر (انظر أشكال زخرفية رقم ١-١٦).

أما لسان الغلاف، فقد زخرف غالبا بأجزاء من الوحدات الهندسية المزخرفة للمتن، وفي أمثلة قليلة زخرف اللسان بعناصر نباتية مورقة (شكل ١٧).

وقد حدث تطور كبير في الاتجاه إلى زخرفة باطن الغلاف بتكوينات من الرقش العربي، والعناصر النباتية المستوحاة من الطبيعة مثل زهرات اللوتس المصرية (البشنين) والآسيوية (النيلوفر) فضلا عن الزهرات الصينية الأخرى، كالمرجريت وعباد الشمس (شكل رقم ١٨-٢٣).

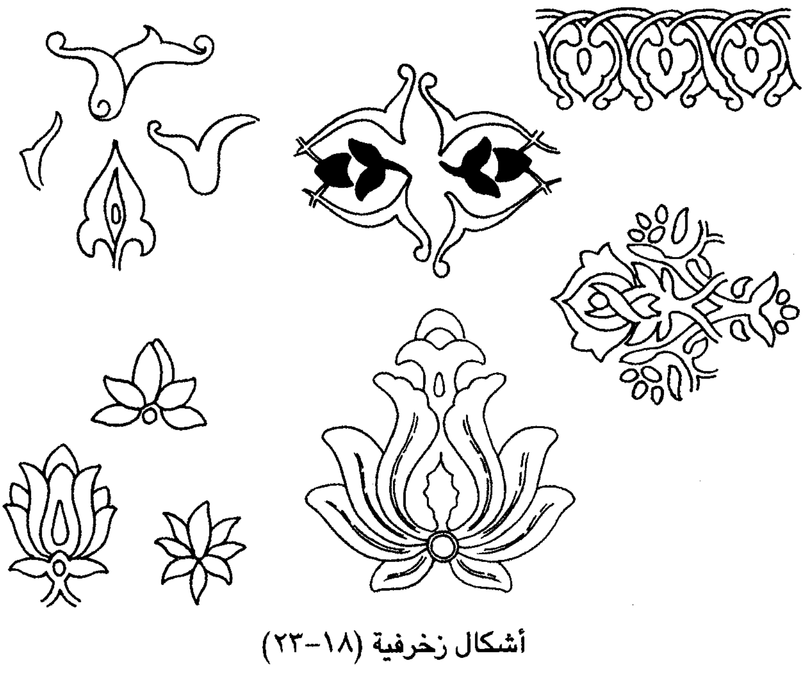
وفي أواخر العصر المملوكي، استخدم فن تفريغ الزخارف المضغوطة بالتذهيب على شكل أوراق وتفريعات نباتية، داخل منطقة أو جامة بيضاوية، وعلى أرضية من الحرير الملون. وأقدم ما وصلنا من أغلفة العصر المملوكي غلاف كتاب «شرح الحصيري» للجامع الكبير، المؤرخ عام ٦٦٣هـ،[٩] زخرف متنه بطبق نجمي من عشرة أضلاع، يتوسطه ترس كالوريدة، وحوله وحدات هندسية كالكندة والتاسومة والنرجسة وبيت الغراب. وبداخل كل منها عنصر الدوامة أو نقط ذهبية، ويزخرف الإطار خطوط منكسرة ومعلقة، تكون أشكالا هندسية في أوضاع معكوسة، وكلها محبوسة بالتذهيب.



أشكال زخرفية (١-١٦)



شكل (١٧) لسان للغلاف مزخرف بنباتات مورقة

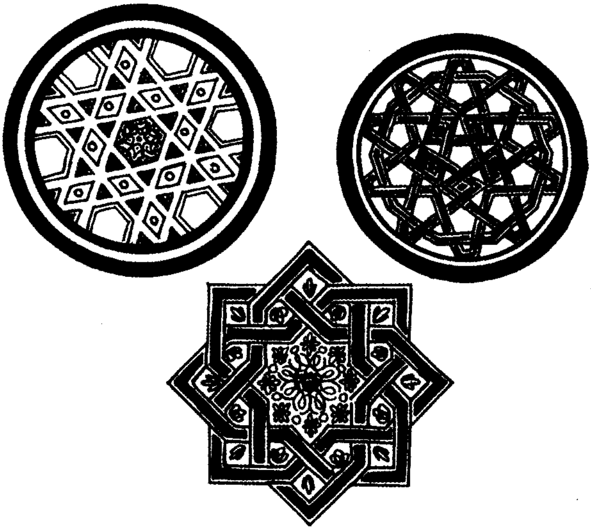


أشكال زخرفية (١٨-٢٣)

ويوضح هذا الفن في بداية العصر المملوكي غلاف «كتاب الوصايا» المؤرخ عام ٦٩٤هـ[١٠] الذي كتب بقرية دومة، من كور دمشق، إذ يتوسطه منطقة دائرية، بداخلها نجمة سداسية، مقسمة بالتالي إلى أشكال هندسية بها نقط مذهبة، وحول الدائرة فصوص صغيرة يخرج منها أشعة، كما يخرج من أعلى الدائرة وأسفلها دلاية مربعة. ويلاحظ في هذا الغلاف لأول مرة ظاهرة زخرفة باطن الغلاف بزخارف مضغوطة عبارة عن معينات بداخلها فروع نباتية. وفي غلاف كتاب «الشرح الصغير» للرافعي والذي كتب عام ٧٣٧هـ[١١] زخرف وسط المتن بوحدة لوزية الشكل، بداخلها عناصر مورقة. وهكذا نرى مثل تلك الوحدات الزخرفية البسيطة على معظم أغلفة الكتب حتى منتصف القرن الثامن الهجري.

غير أن ذلك الضرب من الزخارف يتجلى في أروع صوره في مجموعة ربعات يمتد تاريخها من منتصف القرن الثامن إلى أوائل العاشر الهجري/ الرابع عشر إلى السادس عشر الميلادي. وعلى الرغم من أن زخارفها لا تخرج عن الطرازين السابق ذكرهما، إلا أن التنوع والابتكار واضحان في تلك الأمثلة. فمنها خمس ربعات أوقفها الأمير صرغتمش عام ٧٥٧هـ على مدرسة الحنفية بجوار جامع ابن طولون بالقاهرة،[١٢] وزخرفت أغلفة أجزائها بمختلف أنواع الزخارف الهندسية، مثل دائرة بداخلها تقسيمات هندسية (الشكل ٢٤-٢٥)، أو منطقة هندسية من ربعتين متداخلتين، أو نجمتين متداخلتين (الشكل ٢٦). وترك السلطان الناصر حسن بن قلاوون[١٣] أجزاء ربعة زينت أغلفتها بمنطقة هندسية ذات محيط مفصص، يخرج من بين الفصوص رؤوس مثلثة، وفي المركز طبق نجمي حوله تقسيمات هندسية. وزخرف باطن الغلاف بعناصر نباتية متشابكة، بينها زهرات اللوتس بشكليها المصري والآسيوي (الشكل ٢١-٢٣).

ومن أروع أمثلة التجليد أيضا أغلفة ربعتين،[١٤] كتب بداخل كل جزء منها (حررها محمد بن علي، الإمام بالمدرسة الظاهرية)، وبتحقيق النص تبين أن ناسخها كان إماما بالمدرسة البيبرسية، وأنه توفي عام ٧٧٧هـ[١٥] وقد أحضرت أجزاؤهما من المدرسة البرقوقية، فهما قد ترجعان إلى عصر السلطان شعبان أو عصر الظاهر برقوق، وزخرفت أجزاؤهما بأشكال متنوعة من المناطق



أشكال زخرفية (٢٤، ٢٥، ٢٦)

الهندسية، مثل الجامة ذات الدلاية المحاطة بفصوص نصف دائرية، وفي داخلها تقسيمات هندسية متنوعة، وزخرفت بعض ألسنتها بعناصر نباتية من الرقش العربي أرابيسك، وزخرفت أغلفة أجزاء أخرى منهما بتقسيمات هندسية تغطي مساحة المتن وتميزت تلك الأغلفة بالتنوع في زخرفة باطن كل منها بمختلف العناصر النباتية المحورة، والزهور الطبيعية، مثل اللوتس المصرية والآسيوية. وفي أغلفة أجزاء ربعات أخرى أوقف بعضها الظاهر برقوق عام ٧٨٩هـ،[١٦] وبعضها الآخر أوقفها ابنه الناصر فرج عام ٨١٣هـ،[١٧] فقد زخرفت بنفس الطراز ذي المناطق الهندسية، بالإضافة إلى شكل آخر، هو منطقة دائرية حولها فصوص، وداخلها تقسيمات هندسية أيضا ولكن بتكوين مختلف. ونرى مثالا آخر للتنوع والغنى في تلك الأنماط من الزخرفة، في أغلفة أجزاء ربعات أوقفها الأشرف برسباي على جامعه فيما بين عامي ٨٢٦ و٨٣١هـ.[١٨]

وفي النصف الثاني من القرن التاسع الهجري حدث تطور كبير في أسلوب زخرفة أغلفة المصاحف، حيث زخرفت بأشكال لوزية (جامة) يخرج من طرفيها دلاية، وفي الأركان قطاع من نفس الشكل، وقد أضاف إليها الفنان لمسة جديدة، حيث تم تفريغها بشكل عناصر نباتية متشابكة ومذهبة على أرضية من الحرير الأزرق أو الأخضر، وأبرز أمثلتها أغلفة ربعة صغيرة الحجم، أوقفها السلطان الظاهر أبو سعيد خشقدم عام ٨٦٦هـ،[١٩] وقد زخرف باطن الغلاف واللسان بشكل دائرة بها تقسيمات هندسية بالضغط العميق. وتبدو الزخارف المفرغة في أروع صورها في باطن غلاف مصحف للأشرف قانصوه الغوري (مؤرخ بعام ٩٠٨هـ) من الجلد الأحمر.[٢٠] زخرف الغلاف الخارجي بشكل الجامة يغطي سطحها تفريعات نباتية، وفي الأركان أرباع الجامات. وقسم الإطار إلى بحور مستطيلة، بها عناصر السلاسل. أما باطن الغلاف فقد زخرف بشكل جامة بيضاوية مفصصة، يملؤها عناصر نباتية مفرغة، وفي الأركان واللسان شريحة مفرغة بنفس الشكل، إلا أنها تمت بطريقة مختلفة، حيث أن الجامة تم قطع مكانها وألصق مكانها جامة مفرغة الزخارف على بطانة من الرق الأزرق، ونقش على قنطرة اللسان عبارة «برسم الشريف مولانا المقام الشريف خادم الحرمين الشريفين السلطان الملك الأشرف أبي النصر قانصوه الغوري خلد الله ملكه».

وتعتبر زخارف غلاف المصحف العثماني، المحفوظ بحجرة المخلفات النبوية بالمسجد الحسيني بالقاهرة، من أجمل الأمثلة ذات الزخارف المفرغة. وتذكر المصادر التاريخية إعادة تغليف هذا المصحف بأمر السلطان الغوري،[٢١] وله مفصلات مذهبة بين الغلاف والكعب لحفظه من التمزق نقش عليها برسم المصحف الشريف العثماني «السلطان الملك الأشرف أبي النصر قانصوه الغوري عز نصره» ويتوسط المتن في الغلاف الأيمن منطقة مستطيلة مفرغة، وحولها إطار سميك، عليه نص بالخط الثلث المملوكي المذهب، يفيد، بعد الديباجة، بأنه «جدد هذا المصحف العثماني وأمر بتجليده السلطان الملك الأشرف قانصوه الغوري بعد ثمانمائة وأربع وسبعون (كذا) عاما مضت». هذا النص يفيد أن التجديد حدث بعد مضي ٨٧٤ عاما على وفاة عثمان ابن عفان رضي الله عنه، أي أن التجديد حدث عام ٩٠٩هـ.

وفضلا عن تلك الأشكال المتنوعة من المناطق الهندسية التي تتوسط متن الغلاف، فقد ملئت سطوح الأغلفة بتكوينات هندسية بأشكال متعددة، ويطلق عليها «ضرب خيط» لدى الفنانين من المرخمين والنجارين،[٢٢] لم تختص بعصر معين، وإنما كغيرها من الزخارف امتدت من القرن السابع إلى التاسع الهجري. وبمتابعة هذه التكوينات على الأغلفة، نلاحظ أن لكل منها أسلوب خاص في رسمها، يعتمد على التلاعب في تنظيم الخطوط. فمنها ما قام على أساس تقسيم المتن بخطوط رأسية وأفقية ومائلة، تكوّن في مجموعها أشباه منحرف متداخلة، وينتج عن تداخلها ذلك الشكل النجمي العشري الأضلاع، ومنها ما تم على تقسيم المتن إلى خطوط طولية، ومائلة، ينتج عنها أربع مثلثات متداخلة، تكوّن خطوطها هيكل طبق اثني عشري الأضلاع.

ومن القرن الثامن الهجري تحتفظ دار الكتب المصرية بربعة كبيرة، أوقفها الجاي اليوسفي من عصر السلطان شعبان بن حسين،[٢٣] زخرفت أغلفتها بأطباق نجمية في أكمل صورة، كالمعروفة على الأبواب المملوكية، وإن اختلفت زخارف الوجه الأمامي عن الخلفي، ففي الأول قسم المتن إلى مربع، أعلاه وأسفله منطقة مستطيلة، ثم إطار عريض ومربع في أركانه الأربع. وقد زخرف مربع المتن بأطباق نجمية من اثني عشر ضلعا، محددة بخطوط مذهبة، تملأ تقسيماته نقط مذهبة وخطوط معكوفة، وفي المنطقة المستطيلة أعلى المتن وأسفله آيات كريمة من سورة الواقعة «إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين»، ومن سورة الشعراء «إنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين» وكتبت النصوص بخط الثلث المضغوط بالتذهيب. وقد زخرف الغلاف الأيسر بنفس التكوينات الهندسية، ولكنها تغطي المتن كله دون نقش النصوص القرآنية، ومع ذلك فإن الأطباق النجمية موضوعة داخل مناطق محددة بالتذهيب، وحولها أشكال أخرى فاصلة، كالتي نراها داخل المناطق الهندسية السابق ذكرها، كالنرجسة والتاسومة والسقط وبيت الغراب.. الخ.

ويمكن القول بأن الزخارف من التكوينات الهندسية، وخاصة الأطباق النجمية، قد استمرت حتى القرن التاسع الهجري، مع التنوع في أسلوب تكوينها والتأنق في رسمها. ففي نموذج من أغلفة كتب أوقفها الظاهر برقوق على خانقاته،[٢٤] زخرف المتن بشكل طبق نجمي من عشرة أضلاع، وأرباع منه في الأركان، ويكمل باقي مساحة المتن تقسيمات هندسية متنوعة، جميعها

بالتذهيب، وتملؤها خطوط معكوفة. ويزخرف الإطار أشرطة زخرفية على هيئة وحدات من ضفيرة، أما اللسان فقد زخرف بمجموعة من فروع نباتية، بها عناصر كأسية وأنصاف كأسية. وفي أغلفة ربعة أوقفها جانبك بن عبد الله دوادار الزيني عبد الباسط(٢٥) على الجامع الباسطي، بعد سنة ٨٢٣هـ (وهو تاريخ إنشاء الجامع)، زخرف متن كل غلاف بشكل طبق نجمي، به اثنا عشر ضلعا، وفي الأركان أرباع منه، وحوله أشكال هندسية، أضلاعها مكونة من ثلاث أقواس دائرية، متبادلة مع ثلاث رؤوس مثلثة، وفي كل منها شكل مخموس.

واستمرت زخرفة الإطارات كذلك، حيث زخرفت إطارات المتن بأشرطة من عناصر على شكل القلب، متتابعة في أوضاع معكوسة. وفي شريط آخر مجموعات متتابعة من خطين متقاطعين، بينهما نقط مماثلة لنمط من أغلفة ربعة سابقة.(٢٦)

أما في غلاف جزء من ربعة أوقفها الأشرف قايتباي على مدرسته بالصحراء،(٢٧) فيزخرف المتن أطباق نجمية أيضا من عشرة أضلاع، محددة بخطوط مذهبة، والتروس بشكل وريدات مفصصة، وفي الجوانب والأركان أجزاء من أطباق نجمية، يفصل بينها أشكال من تقسيمات هندسية كالمعتاد.

الحواشي

(١) T. Arnold & A. Grohmann, *The Islamic Book*, (London,1929), p. 31.

(٢) المقدسي: «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» (ليدن ١٩٠٤) ص ٣٣-٣٤، ١٠٠.

(٣) المقريزي: «كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار» ج١ ص ٤٠٩، ج ٢ ص ٣٢٩، ٤٠٢.

(٤) سهام المهدي: «تجليد الكتب في مصر العصر المملوكي» (رسالة ماجستير مخطوطة بكلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٤).

(٥) المقريزي: المرجع السابق، ج ٢ ص ٣١، ذكر هانز لوبيز أن المجلد كان يعتمد على آخرين لإتمام عمله ممن اختصوا بعمل أقفال الكتب أو صهر المعادن لعمل قوالب وطوابع الزخرفة، بينما أضاف غروهمان إلى هؤلاء قاطعي الورق والرسامين الذين يرسمون الزخارف التي يحتاج إليها حفار المعادن كنماذج ينفذها هو وغيره من

صناع التحف المختلفة، ويقرر أن الغلاف يتداوله عدة صناع لزخرفة الإطار والمتن واللسان. انظر:

H. Loubier, *Der Bucheinband von seinen Anfängen bis zum Ende des18 Jahrhunderts*, (Leipzig,1926). p. 10; T. Arnold & A. Grohmann, *The Islamic Book*, (London, 1929).

(٦) العسقلاني: «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة»، تحقيق محمد سيد جاد الحق، ج ٤ ص ٤٦٦.

(٧) السخاوي: «الضوء اللامع في أبناء القرن التاسع»، القاهرة، ١٣٥٥هـ، ج ٩ ص ٦.

(٨) G. Bosch, *Islamic Bindings and Bookbinding*, (Michigan University, 1981), p. 87, no.2.

(٩) رقم ٧١٢، فقه حنفي، طلعت، مقاس ٢١X ١٧سم.

(١٠) رقم ٩، فقه حنفي، مؤيد، مقاس ٢٤x١٨سم. وهذا الغلاف شاهد على وحده الفن السوري والمصري.

(١١) رقم ١٩٢، فقه شافعي، طبعت بدار الكتب، مقاس ٢٥×١٥سم. وهناك أمثلة أخرى بدار الكتب، منها غلاف الجزء الرابع من كتاب «الشرح الوجيز» للرافعي، كتب عام ٧٣٩هـ (رقم ١٩٢، فقه شافعي، طلعت) مقاس ٢٤×٥ر١٧سم، وكتاب «المنتخب في تفسير مائة آية من كتاب الله» (رقم ١١، تصوف، مؤيد، بدار الكتب) مقاس ٢٥×٥ر١٦سم، وكتاب «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» لابن فضل الله العمري، حوالي ٧٤٣هـ (رقم ٥٥٦، معارف عامة) مقاس ٢٦×١٨سم، وأخيرا كتاب «بدائع الفوائد» لابن قيم الجوزي، المتوفى ٧٥٦هـ (رقم ٢٩، فقه حنبلي) مقاس ٥ر٢٦×٣ر١٨سم.

(١٢) أرقام ١٤٨، مصاحف، مقاس كل جزء ٢٦x١٨سم، ١٤٩، مصاحف، مقاس ٢٦×٥ر١٨سم، ١٥٠، مصاحف، مقاس ١٨×١٣سم، وعليها توقيع صانعها «عمل يس بن يحيى»، رقم ٦٠، مصاحف، مقاس ٣٧× ٥ر٢٧سم، ورقم ٦١، مصاحف، مقاس ٣٨×٥ر٢٩سم. كان الأمير صرغتمش الناصري رأس نوبة، اشتراه السلطان ناصر محمد وانفرد بتدبير أمور المملكة، وعزل قضاة مصر والشام، وغير النواب، فحقد عليه السلطان وحبسه واستولى على أمواله. المقريزي، «الخطط» ج ٢ ص ٤٠٤.

(١٣) رقم ٥٩، مصاحف، مقاس ٤٦×٥ر٣٣سم.

(١٤) أرقام ١٢٠ و١٢١، مصاحف، بدار الكتب، مقاس كل منها ٣٧×٢٦سم.

(١٥) ابن حجر العسقلاني: المرجع السابق، ج ٤ ص ١٧١.

(١٦) رقم ١٢٢ و١٢٣، مصاحف.

(١٧) أرقام ٧٦ و١٢٥ مصاحف، و٧٤ و١٢٢مصاحف.

(١٨) أرقام ٩٩ و١٠٥ و١٠٧ و١٠٨ مصاحف، مقاساتها على التوالي ٣٥×٥ر٢٦سم و٣٢×٥ر٢١سم و٣١×

٢١سم و٤ر٢١×٢ر٣١سم.

(١٩) رقم ١٠٤، مصاحف، مقاس ٣ر٢٧×١٨سم.

(٢٠) رقم ٧٣، مصاحف، مقاس ٤٧×٣٦سم.

(٢١) ابن إياس: «بدائع الزهور في وقائع الدهور»، ج ٤ ص ٩٧، ومما يؤسف له أن وصف الغلاف جاء من المشاهدة عن بعد، حيث باءت محاولاتي لدراسته وتصويره بالفشل.

(٢٢) عبد اللطيف إبراهيم: «الوثائق في خدمة الآثار» (مؤتمر الآثار سنة ١٩٥٧) ص ٢٥٤.

(٢٣) رقم ٦٢، مصاحف مقاس ٥٣×٥ر٣٦سم، الجاي بن عبد الله اليوسفي، أمير سلاح، ثم أتابك العساكر، وناظر المارستان المنصوري، في عصر السلطان شعبان، تزوج والدته، خوند بركة، ومات غريقاً عام ٧٧٥هـ، المقريزي «السلوك» ج ٣ ص ١٥٥.

(٢٤) رقم ١٢٠، مصاحف، بدار الكتب، كتبها محمد بن علي، أحد أئمة البيبرسية، توفي عام ٧٧٧هـ، مقاس ٣٧×٢٦سم.

(٢٥) رقم ١٠٢، مصاحف، بدار الكتب، مقاس ٣٢× ٢سم. جانبك بن عبد الله، ولي الاستادارية في الدولة الأشرفية برسباي إلى أن قبض عليه الظاهر جقمق.

(٢٦) رقم ١٢٥، مصاحف، بدار الكتب، مقاس ٣٨×٥ر٢٦سم.

(٢٧) رقم ٨٨، مصاحف مقاس ٥ر٤٣×٣٢سم.

استخدام الرق في المخطوطات الإسلامية:
ملاحظات تمهيدية

فرانسوا ديروش

كان الرق (بفتح القاف أو كسرها مع التشديد، وهو ما يعرف أيضاً بالجلد) يحتل إلى جانب البردي موقع الصدارة في مجال صناعة المخطوطات، وذلك قبل أن يعرف الورق ويصبح المادة الوحيدة المستخدمة في هذا الغرض. ولم يكن استخدام الرق محصوراً في هذا المجال، وهو ما تشهد به الوثائق العديدة حول هذه المادة والتي جرى العرف بإدراجها في مجال دراسة البرديات العربية، ولكننا لن نتعرض لها في سياق بحثنا هذا المخصص لفن الكتاب. وعلى الرغم من أهمية الرق في العصور السالفة إلا أنه لم يتبق لنا من مخطوطاته سوى النزر اليسير، وهو ما قد يفسر جهلنا النسبي بكيفية استخدام النسّاخ والمجلِّدون المسلمون له. ولكي نتمكن ذات يوم من كتابة تاريخ الرق في العالم الإسلامي يتحتم على علماء المخطوطات أن يستكشفوا النماذج المحفوظة في بطون المكتبات وأن يدرسوا استخداماتها المختلفة، فعن طريق رصد هذه الممارسات على مر العصور وبامتداد الرقعة الإسلامية يمكننا إرساء أسس هذه الدراسة التاريخية. وإذا اقتضى الأمر، يمكننا أن نجمع بين النتائج التي نتوصل إليها من ناحية، وبين معطيات النصوص غير المؤكدة من ناحية

أخرى، إضافة إلى ما تكشف عنه التحاليل المعملية لنماذج الرق القديمة. وأخيراً فإن المقارنة بين ما نعرفه عن صناعة هذه المادة واستخدامها وبين مثل هذه الممارسات في مجتمعات أخرى (إسبانيا أو الشرق الأوسط على سبيل المثال)، تيسر لنا فهماً أفضل لبعض جوانب العملية أو على الأقل تيسر لنا طرحاً أفضل للأسئلة التي تحيرنا. وفي كل الأحوال فإنه يجب علينا أن ندرك أن الفحص الدقيق للمخطوطات ذاتها يمثل خطوة لا غنى عنها نحو فهم طريقة استخدام الرق في صناعة الكتاب.[١]

لا يزال أمامنا شوط طويل قبل أن نتمكن من إيفاء متطلبات هذا البحث حقها، ولا زلنا بغير شك نواجه أسئلة بلا حل. ذلك أن خبرتنا لا تتجاوز بضعة مئات من المخطوطات أو أجزاء من المخطوطات أغلبها مخطوطات قرآنية غير مؤكدة المصدر. كذلك فإن الدلالات الجغرافية لبعض ما نرصد من ظواهر تبقى غامضة بغير استثناء. لذلك يميل المرء إلى تقديم سلسلة من الدراسات لنماذج مفردة يمكن من خلالها دراسة استخدامات الرق في إطار تسلسلها الزمني ممهدين لذلك أولاً بسوق نبذة موجزة عن تاريخ صناعة الرق والوسائل المستخدمة فيها.

١ – الرقّ: أصله ووسائل تحضيره وخواصه

بالرغم مما توحي به تسميات الرق في اللغات المختلفة،[٢] فالثابت أنه لم «يخترَع» في القرن الثاني قبل الميلاد في برجامة (پرجام).[٣] بل يبدو أنه كان معروفا ومستخدما في الشرق طويلا، ربما منذ ألف عام قبل العهد الجديد.[٤] وبالرغم من أن وسيلة تصنيع الرق تبدو بسيطة وهينة، إلا أنها تغصّ بالمشاكل إذا حكمنا عليها من خلال التفسيرات المتباينة للمراجع المتخصصة. ومع ذلك، نرى ضرورة النظر في هذه العملية حتى نتمكن من الإلمام باستخدامات هذه المادة. ما هو الرق؟ الرق وفقا لتعريف معجم خاص بعلم المخطوطات ومعد طبقا للمفاهيم الأوروبية هو «جلد حيواني منتوف ومكحوت من خلال معالجة غير دابغة (أو دابغة قليلا) تليها عملية تجفيف وشدّ تعِدّ شريحة الجلد للكتابة على وجهيها».[٥]

إذن، فالمادة الأساسية أصلها حيواني: الخروف أو الماعز أو العجل: أو ربما الحمار – ولكن العرف كان يحبِّذ استخدام الغزال.[٦] كما سيتضح لنا،

معظم النصوص تدل على تفضيل استخدام جلد الخروف. بينما يعطينا «كتاب الأنواء» للقرن الرابع/ العاشر، معلومة مثيرة، إذ يذكر تحت مدخل شهر مايو/ أيار أن: الرق يصنع من جلد الظبي والغزال إلى نهاية شهر يوليو/ تموز.[٧] ويبدو أن نوعية جلود الحيوانات البرية كانت تفضل على جلود الحيوانات المستأنسة[٨] – وهذا خيار فنيّ أساسا، يدعونا إلى التساؤل عن المشاكل الاقتصادية المعنية إذا أخذنا في الاعتبار كمية الجلود اللازمة لإنتاج مخطوط متوسط السمك. كما أننا نتساءل عن تسمية «جلد الغزال»، فقد تعود إلى نوع معيّن من الرق – مثل التسمية الفرنسية vélin؛ ففي مرجع (ملحق القواميس العربية) لـ «دوزي» *Supplément aux dictionnaires arabes* يخبرنا أن «رق الغزال» يعني فعلا «جلود عذراء» أي الرق المعدّ من جلد «الجدي الصغير أو الحمل المولود ميتا».[٩] تعطينا رسائل الحسبة بعض الإشارات العابرة عن الوسائل المستخدمة. ومن ضمنها رسالة ابن عبدون المحررة في أسبانيا في أواخر القرن الخامس/ الحادي عشر أو أوائل القرن السادس/ الثاني عشر، التي توصي بعدم استخدام جلود الخراف النحيفة لتحضير الرق،[١٠] والتي نستنتج منها أن جلد الخروف كان هو المستخدم غالبا وأن الرقاقين كانوا على علم بأن حالة الحيوان الصحية كانت عاملا أساسيا في تحديد جودة الرق. فالحيوان الذي يشكو من سوء التغذية يعطي جلدا رقيقا وضعيفا ملمسه غير منتظم ويعيبه انطباع شكل العظام عليه.[١١] ومع ذلك فواضح أن بعض الحرفيين لم يكونوا يلتزمون بالمقاييس المعترف بها – مما كان يستتبع مساءلتهم في ذلك. إذ يمكن مبدئيا تعيين الحيوان الذي استخدم جلده لتصنيع الرق بمتابعة نمط جذور الوبر في قطعة الرق المنجزة. ولكن غالبا ما محت المعالجة العشوائية لهذه الجلود العلامات المميزة لفروة الحيوان، وبالتالي نعجز عن تحديد مصدرها بدقة – ونضطر إلى الحديث عن «الرق» عامة. ويجب الاقتصار في استخدام لفظة vélin الفرنسية على معنى الرق المصنع من جلد العجل الصغير.

يبدأ الرقاق بإزالة الشعر: والطريقة المعروفة التي مارسها الغرب في العصور الوسطى كانت غمر جلد الحيوان في حمام من الجير يسهِّل نزع الفروة. ويدل مؤلف «الفهرست» على علمه بهذه العملية في القرن الرابع/ العاشر بذكره لمعجون مزيل للشعر – «نورة» – مكون من الجير والزرنيخ،[١٢] والذي، حسب قوله، كان يعيبه أنه يؤدي إلى تجفيف الجلد. ولكن هناك وسيلة

أخرى استخدمت في الكوفة لم يكن لها ذلك الأثر، وكانت تعتمد على خلطة أساسها ثمرة البلح.(١٣) على أن استخدام الجير - كما ثبت في الشرق الأوسط خلال القرن الثالث/ التاسع(١٤) - موضح في مخطوط لاتيني منسوخ في إيطاليا في القرن الثامن، المخطوط «لوك - Lucques, Biblioteca capitolare 490»، وفيه نظريتان متعارضتان: إحداهما، وإن لم تؤكد نسبة اختراع معالجة الجلد بحمام الجير إلى العرب، فهي تحبذ أنهم نقلوها إلى الأوروبيين،(١٥) بينما تؤكد الأخرى أن انتشار هذا الأسلوب كان في الاتجاه العكسي.(١٦) أما استخدام خلطة البلح، فقد كان متبعا في المجتمعات اليهودية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى.(١٧) وبصدد استخدام الطباشير لإزالة الشحم، فالنصوص لا تفيدنا بما يوضح ذلك، ولكننا لاحظنا على رقائق من مصحف منسوخ بالخط الحجازي - أي يؤرخ بين أواخر القرن الأول/ السابع وأوائل القرن الثاني/ الثامن - طبقة طباشيرية قد تؤخذ كدليل على هذه العملية إن لم يكن القصد منها إضفاء طابع متجانس على وجهي الصفحة.(١٨) كما يحدثنا «ريد» Reed عن استخدام الطباشير أو الجبس للتحكم في عملية تجفيف الجلد المشدود.(١٩)

كانت رواسب اللحم والشحم على السطح اللحمي للجلد تكحت بأداة حادة كالشفرة أو النصل. ويبدو نص ابن عبدون متمسكا بهذه العملية إذ يقول إنه يجب أن لا يعمل رق إلا مبشورا.(٢٠) ثم يكرر عمر الجرسيفي (أوائل القرن السابع/ الثالث عشر؟) أنه واجب على المحتسب مراقبة الورّاقين خاصة، وكذلك الرقاقين من حيث اختيار الجلد الذي يجب أن يكون مكشوطا ناعما ونظيفا.(٢١) ولكننا لا نؤكد أن تصنيع الرق بعد ذلك في العالم الإسلامي اعتمد بانتظام على صنفرة الجلد لإزالة جميع الفروق بين وجهيه. الخطوة الأساسية أثناء معالجة الجلد كانت شده على إطارات وتركه حتى يجف. وأما المساحة اللازمة لهذه العملية، فقد وجدها الرقاقون الأندلسيون في أفنية المدافن - مما دعا ابن عبدون إلى التذكرة بعدم صحة فرش الوسخ مثل جلود الدباغين والرقاقين في أفنيتها.(٢٢)

بناءً على فحص أمثلة المخطوطات الرقية المحفوظة، نلاحظ اختلافا كبيرا في نوعية الرق المستخدم. تتوقف تلك النوعية على عوامل كثيرة نسردها باختصار. نعلم من الدراسات السابقة أن أصناف الحيوانات المختلفة لا تعطينا نفس نوعية الجلود. كما أنه لا يتحتم أن يعطي حيوانان من نفس الجنس جلودا

متماثلة النوعية، وبما أننا قررنا من خلال بحثنا في هذا المجال أن حالة الحيوان - وصحة جلده بالذات - تلعب دورا أساسيا في نوعية المنتج النهائي، فأي جرح أو شكّة أو رطمة سابقة للذبح تترك علاماتها على الجلد. كما أنه هناك احتمال إتلاف الجلد أثناء معالجته. كل ذلك يترك أثره على الرق في صورة ثقوب دائرية أو بيضاوية لجأ البعض إلى حياكة أطرافها معا لترميمها. وفي المخطوط Paris, BN Arabe 6095 نجد أن شريحة دقيقة من الرق ألصقت بالثقوب لتغطيتها - انظر الصحائف ٣ و٥ و٢٨.[٢٣] وأثناء تحضير الجلدَ بإخضاعه للشد، قد تظهر به بقع شبه شفافة تسمّى «عيون» كما في الصحيفة ٤٧ من المخطوط BN Arabe 6090.[٢٤]

نضيف إلى هذه الشوائب عاملا آخر هاما وهو جديّة الرقاق وحذره أثناء تحضيره للجلد. فكما سبق، يبدو أن الرقاقين لم يعتنوا بمحو الفوارق بين سطح الوبر والسطح اللحمي فالأخير أكثر بياضا من الأول ويتميز بملمس مخملي، ونتيجة ذلك أن المداد يثبت بسهولة أكثر على السطح الوبري وهو ما يتضح خاصة في بعض نماذج المصاحف العباسية الكبرى.[٢٥] ويمكن التحقق من ذلك بسهولة. فبمجرد فتح المخطوط أمامنا بحيث يمكننا مشاهدة هوامش عدد من الرقائق المتتالية، نستطيع أن نرى الفارق واضحا بين وجهي الصحائف.[٢٦] الوجه العلوي يمدنا في بعض الحالات بقرائن ثابتة: الشعر أو الوبر يبقى بصورة ملحوظة على محيط الثقوب التي ناقشناها أعلاه وعلى حواف قطعة الجلد - كما في مخطوط باريس - Paris, BN Arabe 6095 f.39 verso - ظهر/صحيفة ٣٩.[٢٧] وقد يحدث ألاّ تَنَفَّذ عملية النتف كما يجب فنجد الشعر في مواضع لا نتوقعه بها حسب فهمنا لإجراءات هذه العملية. ففي مخطوطات مغربية عديدة نجد أن جذور الوبر ما زالت واضحة على السطح العلوي للرق - كما في المخطوط 6090 أو Paris, BN Arabe 5935[٢٨ و٢٩] - ويبدو أن الأداة المستخدمة لسحف الوجه اللحمي كانت تترك أحيانا رواسب كالتي نلاحظها في المخطوط Paris, BN Arabe 6095 - صفحة ١٧.[٣٠] إن وجود مخطوطات رديئة يقابله وجود العديد من المخطوطات الممتازة في نوعية إنتاجها مثل مخطوط إستانبول نور عثمانية ٢٧[٣١] - الذي نُسخ على صحيفات رق أعدّ وجهاها بعناية تامة إلى درجة أننا نجد صعوبة في التمييز بينهما. كما أنَّ الوسائل المتعددة المعروفة لاستخدام الجلد في تصنيع كراسات المخطوطات ومجلداتها تفتح مجال تنوعات نتعرض له فيما بعد بالأمثلة.

بالطبع، تتحدد مقاسات الرق وفقا لمقاسات جلد الحيوان المستخدم في صناعته، وكما هو معلوم تختلف خواص الفصائل الحيوانية المستخدمة كما تختلف الخواص الفردية للحيوانات داخل الفصيلة الواحدة. وأودّ أن أناقش هنا مثالا واضحا لما أعنيه في صورة مخطوط ووثائق تحدّد أقصى مقاسات صحيفة الرق - وذلك مع إهمال القيم الدنيا لهذه المقاسات لعدم أهميتها.(٣٢) فأجزاء المصحف المصنف تحت مصحف - BN Arabe 324 - في باريس تتكون من رقائق مختصرة بشدة وقياساتها ٥٣٧ x ٦٢٠ مم.(٣٣) كما أن وثيقة محفوظة في لندن تحت رقم British Library Or. 4684/III تبلغ مقاساتها ٨٥٠ x ٨٢٠ مم.(٣٤)

وقد يُصبَغ الرق قبل أن يستعمله الناسخ كما كان المعتاد في حوض البحر الأبيض المتوسط.(٣٥) ولن نتطرق هنا إلى مناقشة أشهر مخطوط إسلامي منسوخ على الرق المصبوغ: المصحف الأزرق.(٣٦) فالحرفيون الإسلاميون استخدموا ألوانا أخرى مثل أصفر الزعفران والصبغة البرتقالية.(٣٧) وقد أملت الطبيعة الخاصة للرق استخدام ألوان من المداد والأحبار يتميز بها: فابن باديس يذكر المداد الذهبي والمداد الأزرق.(٣٨)

يمكن من ناحية المبدأ تصنيع الرق في أي مكان، وذلك بخلاف البرديّ الذي يقتصر إنتاجه على بعض مناطق محددة ينمو فيها نبات «سيبروس بابيروس ل Cyperus papyrus L» حيث أن المادة الأساسية تكاد تكون متوفرة في كل مكان ووسائل التصنيع بسيطة نوعا ما. ونجد أن ذلك كان من أهم مزايا هذه الصناعة: إذ إن مستخدمي الرق لم يعتمدوا على إمدادات من مصادر بعيدة قد تنقطع الطرق المؤدية إليها نتيجة لظروف سياسية أو اقتصادية. وبالرغم من أننا على علم بتفضيل إنتاج مدن معينة مشهورة بجودة رقها - مثل الكوفة والرُها(٣٩) - إلا أننا للأسف لم نحصل على معلومات توضح لنا أسباب هذا التميز في الإنتاج - سواء كانت عوامل فنية(٤٠) أو مناخية(٤١) أو غيرها.

٢ - استخدام الرق في المخطوطات الإسلامية

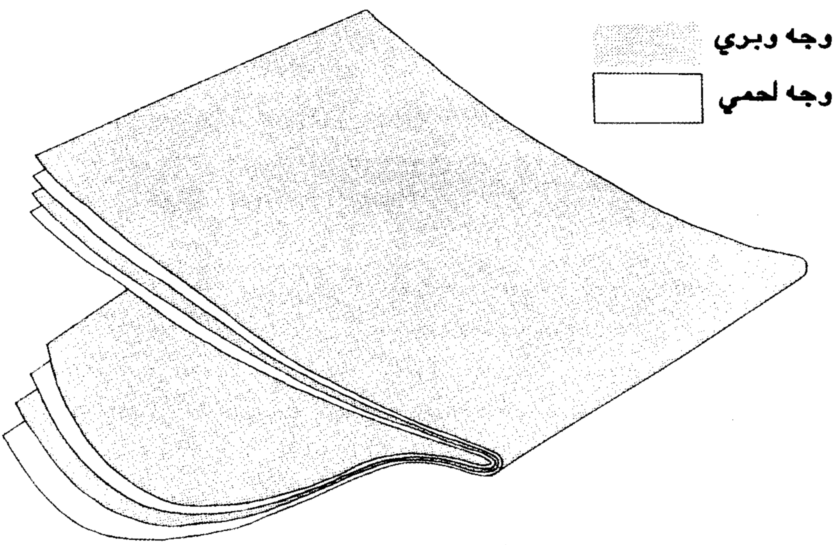
عندما نتحدث عن المخطوطات الإسلامية، يبدر إلى ذهننا مباشرة المخطوط المجلّد في صورة كتاب - codex - وعلى الرغم من أن هذه هي

الصورة التي وصلتنا بها أعداد وفيرة من المخطوطات، تفوق بكثير أي أمثلة أخرى، إلا أنها لم تكن الصورة الوحيدة التي أنتجت بها المخطوطات الإسلامية. وبالنسبة للرق، فنعرف على الأقل مثالا واحدا على أنه استُخدم في مخطوطات ليست مجلدة، ونعني بذلك اللفائف (الدَرْج – rotulus – حسب التعبير المستخدم بخلاف اللفة – volumen)[٤٢] التي وصلنا منها عدد صغير. نعرف أن هذه اللفائف كانت شائعة في العالم الإسلامي القديم بالرغم من أن أمثلتها المتبقية قليلة[٤٣] وفي مجموعة متحف الفنون التركية والإسلامية في إستانبول[٤٤] نجد أجزاء من كتابات قرآنية منسوخة على لفائف قد تكون مكونة من أجزاء منفصلة مخيطة[٤٥] أو ملصوقة ببعضها[٤٦] طرفا لطرف.

أ – تصنيع الكراسة: المصاحف القديمة

هناك دلائل على استخدام الرق في العالم العربي القديم،[٤٧] على نحو لا يقل عن استخدام البردي. ففي أوائل العصر الإسلامي، كان يستخدم الرق مع البردي في الكتابات الديوانية وفي نسخ المخطوطات على وجه سواء. وكان الرق مكلفا، ولذلك كثيرا ما أعيد استخدامه منذ العصور القديمة كما سنرى فيما بعد. ولم يلبث ظهور الورق أن أدى إلى إعادة النظر في استخدام الرق، وذلك بالرغم من مزاياه وشدة مقاومته خاصة. فمن القرن الرابع/ العاشر إلى القرن الثامن/ الرابع عشر – أو ربما التاسع/ الخامس عشر[٤٨] – أخذت استعمالاته في الانكماش بينما تطورت أساليب استخدامه. ولا تتوفر لنا إحصائيات بعدد المخطوطات العربية الإسلامية المنسوخة على الرقّ – كما اتضح لنا خلال بحثنا أن نسبة عدد المصاحف عالية جدا ضمن العينات التي درسناها – وقد يكون هذا دليلا على تفضيل الرق لهذا النوع من الكتابات أو على العناية الخاصة بحفظها أو نتيجة لأهمية هذين العاملين معا، ولم يثبت لنا أي أساليب خاصة لاستخدام الرق تتوقف على طبيعة الكتابات المدونة عليه سواء كانت مصاحف أو غير ذلك وأقصى ما نستطيع الجزم به هو أن المادة الخام المستخدمة للمصاحف كانت من نوع أفضل من المعتاد، إلا أنه من الضروري أن نفحص عددا أكبر من النصوص غير القرآنية المدونة على الرق كي نستطيع الجزم بأمر في هذا الموضوع.

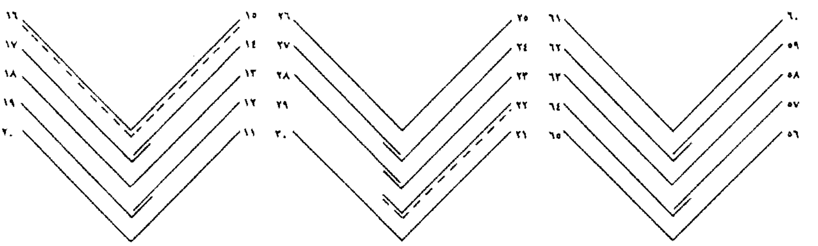
وقبل أن نتعرض لوسائل تصنيع الناسخين المسلمين لكراسة الرق، قد نستفيد من إلقاء نظرة على أساليب ناسخي العصور الوسطى في الغرب. فقد كان هؤلاء يطوون الجلد، منصِّفينه مرة أو مرتين أو ثلاثا، فيحصلون على كراسة تتكون من صحيفتين (مقاس فوليو) أو أربع (مقاس كوارتو) أو ثماني صحائف (مقاس أوكتافو) أو ست عشرة صحيفة (مقاس ١٢).[٤٩] وينتج عن هذا النمط في الطيّ ما يُعرف بقاعدة «جريجوري» المسماة على لقب العالم الألماني، أول من لاحظ أنه في الكراسات يكون وجها الصحائف المتقابلة متماثلين نوعا - فإن كانت الصفحة «س/ظهر» الوجه العلوي للرق يكون الوجه المقابل لها «صفحة س+١/ وجه» مأخوذا أيضا من الوجه العلوي للرق (انظر الرسم ١).



الرسم (١) كراسة من ٤ ورقات من النوع الغربي

في بداية دراستنا للمصاحف الرقية المحفوظة في المكتبة الوطنية، وضعنا جانبا بعض المخطوطات المتضمنة لنصوص متسلسلة تسلسلا كافيا بحيث يسمح لنا باستخلاص نتائج مفيدة عن طريقة تكوين الكراسة. من هذه النسخ نخص بالذكر المخطوط «سميث–لوسويف Smith-Lesouëf 193 » كعيّنة نموذجية في تكوينها.(٥٠) فبالرغم من الفجوات المتناثرة التي تحرمنا من بعض الصحائف (انظر مثلا الكراسة ٣ – رسم ٣) يتضح مباشرة أن الكراريس تكونت من عشر صحائف مجمّعة بالتسلسل الآتي:(٥١)

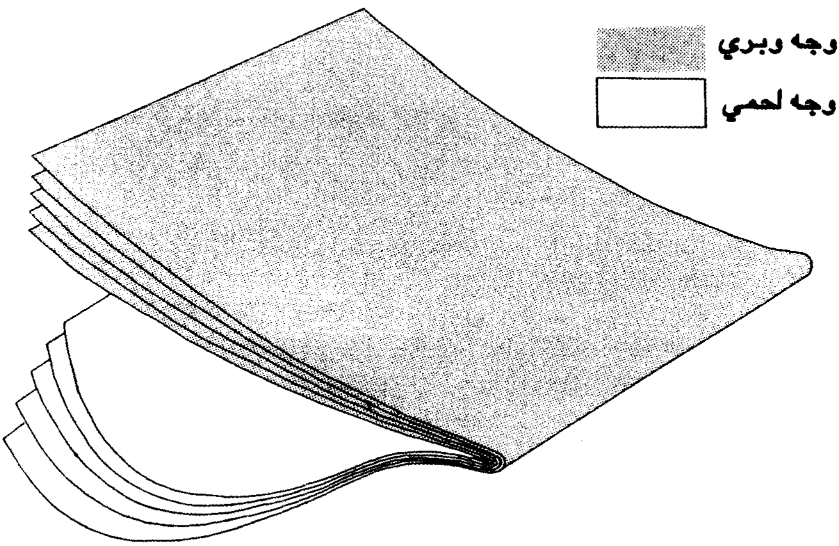
و/ل، و/ل، و/ل، و/ل، و/ل + ل/و، ل/و، ل/و، ل/و، ل/و (الرسم ٢).



الكراريس رقم ٢ و٣ و٧ من مخطوط باريس BN Smith-Lesouëf 193: ١– رق (الخط المتقطع يبيِّن وضع الوجه الوبري) – (ملاحظة: نتيجة لعملية ترميم قديمة – ربما عثمانية – ألصِقت الصحيفتان المتناظرتان غير المتجانستين بإحدى التعقيبتين – كما في ص ١٤ و١٧ – بينما أزيلت الأخرى).

وقد أكدت هذه الملاحظات دراسة مجموعتين واسعتين من المصاحف المنسوخة على الرق نسخت فيما بين نهاية القرن الأول/ السابع والقرن الرابع/ العاشر. نبدأ بمجموعة باريس ونتبعها بالمجموعة المحفوظة في متحف الفنون التركية والإسلامية بإستانبول. عند فحصها، يتضح لنا أن معظم الكراريس

مكونة من عشر صحائف - أي خمس مزدوجة، مما يعني أنها لا يمكن أن تنتج عن الطيّ البسيط، كما سنبينه فيما يتبع. ونلاحظ نفس النسق في عادات الحرفيين المصنعين للكتب عند استعمالهم الرق في الكراسة: وجه الصفحة «١» (أي الوجه المتصدر) يكاد يكون دائما الوجه الوبري للرق.[٥٢] وجوه الصحائف التالية - أي الصفحات ٢ و٣ و٤ و٥ من الكراسة، هي أيضاً الوجوه الوبرية. (انظر الرسم ٣) إذن، فلا يمكن هنا تطبيق قاعدة «جريجوري»، فعند فتح المخطوط، نلاحظ اختلافا واضحا بين نصفي الصفحة المزدوجة[٥٣] - فيما عدا نقطة تلاحم كراستين - حيث نجد أن وجهي وبر يتقابلان - وفي منتصف كل كراسة - حيث، بالطبع، نجد وجهين لحميين. وقد يحدث بالصدفة ألا نجد هذه الخاصية داخل كراسة في مخطوط أعدّ بعناية خاصة متّبعا التسلسل الذي وصفناه بدقّة. على ذلك الأساس، لا يسنَح لنا سوى استنتاج أن الناسخين - أو الورّاقين - في العالم الإسلامي لم يكونوا يطوون الجلد - بل كانوا يفضلون قطع الرق بالمقاسات المناسبة لحجم المخطوط الذي يعملون فيه.



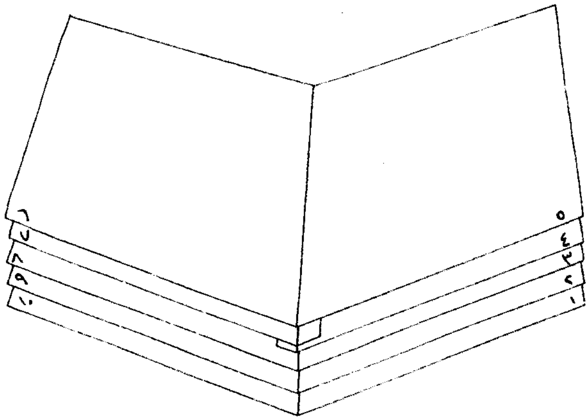
الرسم (٣) كراسة من ٥ ورقات من النوع التقليدي (القرن الثالث/ التاسع)

وأنهم، إن لم ينجحوا في إعداد الجلد حسب حاجتهم، كانوا يستعملونه في كراريس أخرى، أي مخطوطات أخرى[٥٤] إذ كانت تجمع شقفات من نفس الحجم، - خمس شقفات في العادة - في نفس الوضع ثم تطوى إلى قسمين من منتصفها لتكوين كراسة.

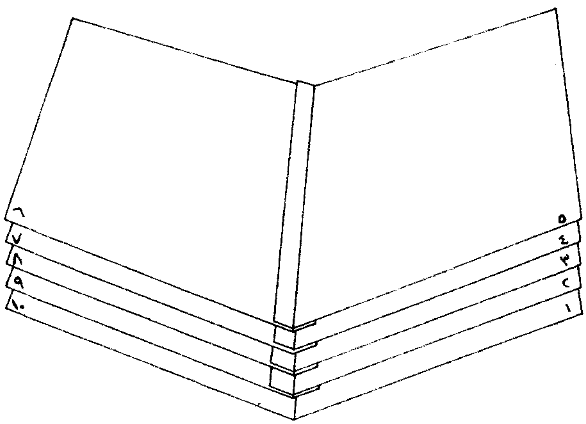
لقد سبق أن أشرنا إلى اختلاف هذا الأسلوب عن الوسائل المعتادة المستخدمة في الغرب. هل كان ذلك ابتكارا أم ترى كان يوجد تقليد متبع في ميدان صناعة الكتاب رجع إليه الحرفيون المسلمون؟ الإجابة عن هذا السؤال قد تكمن في فحص وسائل تصنيع الكتب من ورق البردي، إذ إن لدينا معلومات دقيقة عن فن صناعة الكراسة توضح أن ورق البردي كان يُقطّع شرائح يضاف بعضها إلى بعض بحيث تكون الألياف الأفقية إلى أعلى. وبعد تجميع العدد المرغوب من الصحائف، تُطوى كومة الورق إلى اثنين من منتصفها لعمل كراسة حيث تواجه الصفحات ذات الألياف الرأسية تلك ذات الألياف الأفقية على نحو منتظم - فيما عدا طبعا الصفحة المزدوجة المنصِّفة للكراسة.[٥٥] عند هذا الموضع يشتد الإغراء بتعليل تتالي الوجوه العلوية للرق داخل كراريس المخطوطات التي وصفناها قياسا إلى طبقات أوراق البردي المزدوجة المقطوعة لتصنيع اللفائف، إذ أن شكل المجموعات الخماسية التي نلحظها في كراريس البردي يسهل شرحه في هذه الحالة من الناحية العددية.[٥٦] كما نجد أن هذه الطريقة في إعداد الكراريس كانت تبدو معروفة في أقدم المخطوطات السريانية.[٥٧]

إن تتالي وجوه الرق في كراريس خماسية ليس الظاهرة الوحيدة الملحوظة في مخطوطات المصاحف في هاتين المجموعتين، فاستخدام الجلد فيهما أيضاً يسترعي الانتباه: إذ إننا لاحظنا أثناء فحصنا للكراريس وجود العديد من التعقيبات، وذلك منذ قديم بدليل جزء من مصحف حجازي - المخطوط Paris, BN Arabe 328a - حيث تكتمل الصحيفة رقم ١٧ بتعقيب. ومع البحث، تأكد لنا أن هذه التعقيبات ليست دليلا على ضياع جزء من النص، فالتدقيق في الأمثلة الموجودة أظهر لنا أن الصحائف المنفصلة المزودة بتعقيبات كانت تُضَمن بانتظام في الكراريس «كبدائل» لصحائف مزدوجة أصلية. وفي

داخل الكراريس المكونة من مجموعات شرائح خماسية، تتراوح أعداد التعقيبات بين ٢ و٨ (انظر الرسم ٤ و٥) بحيث نحصل دائما على عشر صحائف.

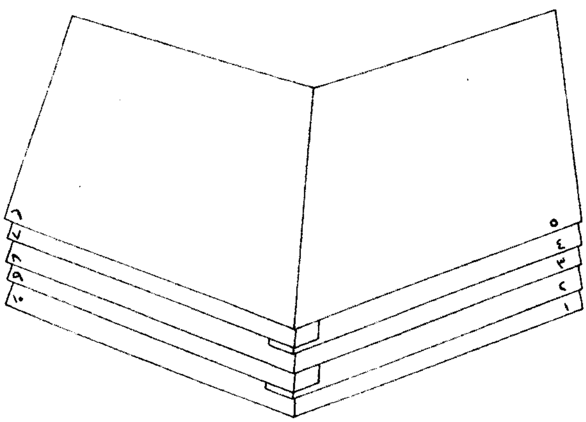


الرسم (٤) كراس من خمس ورقات يتضمن صحيفتين غير متجانستين مزودتين بتعقيبة (ص ٤ و٧) وموضوعتين بالتناظر.



الرسم (٥) كراس من خمس ورقات به ثماني صحائف غير متجانسة مزودة بتعقيبة (ص ٢ إلى ٩) وموضوعة بالتناظر.

وبالفحص التفصيلي لمجموعة من المخطوطات متناسقة من حيث الخط وطريقة التصنيع وصلنا إلى أن ربع عدد الكراريس فقط يتكون من خمس صحائف مزدوجة.[٥٨] وفي الحالات الأخرى، أدخلت صحائف منفصلة متناظرة بين الطبقات لتحل محل الصحائف المزدوجة الغائبة (انظر الرسم ٦). والصيغة الأخرى الأكثر شيوعا والتي تضاهي في تواترها الكراس ذا الخمس صحائف المزدوجة هي إدخال صحيفتين منفصلتين مكان ص ٣ و٨ للكراس. وعامة، في ٤٠٪ من الحالات، نجد أن صحيفتين منفصلتين أدخلتا بالتناظر في مواضع مختلفة بين الصحائف المزدوجة. كما أنه في حوالي ١٠٪ من الحالات نجد ست صحائف منفصلة (أي ثلاث مجموعات من صحيفتين) موضوعة بين صحيفتين مزدوجتين. والظاهر أن المصنعين كانوا يعتنون - على قدر المستطاع - بألا يضعفوا من صلابة الكراس - أي المخطوط.[٥٩]



الرسم (٦) كراس من خمس ورقات يتضمن أربع صحائف غير متجانسة مزودة بتعقيبة (ص ٢ و٤ و٧ و٩) وموضوعة بالتناظر.

ويجب أن نشير هنا إلى بعض الحالات الاستثنائية – وإن كانت شاذة ومعدودة – حيث يكون مجموع عدد صحائف الكراس أكثر أو أقل من عشر: فيكون أحيانا إحدى عشرة أو تسع صحائف بدون أي فراغات في النص. وفي بعض الحالات الأخرى نجد أن الصحائف المنفصلة المضافة ليست في أوضاع متناظرة: فمثلا تكون في موضع ص ٣ و٧ من الكراس بدلا من ص ٣ و٨ – ولكن بدون الإخلال بتوزيع نصفي الكراس أو بتسلسل وجهي الرق.

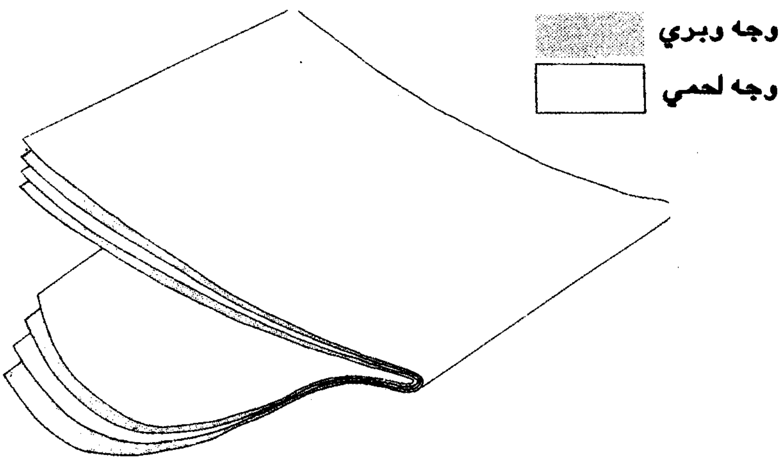
ب – تصنيع الكراريس: خصائصها في العصور القديمة

إن عرضنا السابق ينطبق بالذات على مخطوطات المصاحف من القرن الثالث/ التاسع.[٦٠] ولكن، هل كان الوضع دائما كذلك؟ من أجل الوصول إلى إجابة مفيدة لهذا السؤال، يتحتم علينا دراسة أعداد وفيرة من مجموعات المخطوطات كما سبق أعلاه – إلا أن عدد المخطوطات السابقة على القرن الثالث/ التاسع أقل مما بعد ذلك، مما يجعل المقارنة أمرا معقدا. إننا نفترض أن جزء المخطوطة القرآنية باريس Paris, BN Arabe 328a المذكور أعلاه نسخ في أوائل القرن الثاني/ الثامن أو حتى أواخر القرن الأول/ السابع،[٦١] وأساس هذا التأريخ هو خطها الحجازي. اقتنت المكتبة الوطنية في القرن التاسع عشر هذه المجموعة من الصحائف المبعثرة التي حصل عليها ج. ل. أسلان دي شرفيل J. L. Asselin de Cherville في القاهرة. وقامت المكتبة حفاظا على المخطوطة بجمع الصحائف ووضعت بينها أوراقا للحماية كانت نتيجتها إعاقة البحث في فن تصنيع الكتاب والمخطوط المجلد. ويكوّن العديد من الصحائف نصا متسلسلا: الصحائف ٤ إلى ٢٢ – و٢٣ إلى ٤٠ – و٤١ إلى ٤٨؛ نضيف إليها الصحائف ٥٧ إلى ٦٤ التي حفظت مستقلة تحت رقم Arabe 328b بسبب استبعادها على أساس التحليل الخطي والتي نرى الآن تضمينها في نفس المصحف.[٦٢] ولما كنا غير قادرين على القيام بتحليل المخطوط بصورة تفصيلية للأسباب السابق ذكرها، فإني أقترح التحليل الآتي: الجزء يتكون من أربع مجموعات رباعية، الصحائف ٧ إلى ١٤ و٢٤ إلى ٣١ و٣٢ إلى ٣٩ و٥٧ إلى ٦٤، ونضيف الكراس ص ٤٢ إلى ٤٨ (٧ صحائف) ناقصا صحيفته

الأخيرة. أما ص ١٥ إلى ٢١ فتكوينها شاذ. وتسلسل وجوه الرق في ص ٧ إلى ١٤ مثلا يسترعي الانتباه:[٦٢]

ل/و، و/ل، ل/و، و/ل + ل/و، و/ل، ل/و، و/ل (انظر الرسم ٧).

وبما أننا لاحظنا هذا النمط في أمثلة أخرى، فقد نستنتج أن هذا المخطوط يكوِّن مثالا على تصنيع الكراس بالطيّ. ولكن هناك مثالين من المجموعات الرباعية التي تتعارض مع هذا الافتراض وهما: ص ٤٣ إلى ٤٨ و٤٤ إلى ٤٧ التي، مثلها كمثل ص ٥٩ إلى ٦٢ و٦٠ إلى ٦١، تتقابل فيها وجوه لحمية مع وجوه وبرية. وهذا دليل قوي ضد افتراض الطيّ، ولكن مع ذلك نلاحظ أن الوجه المتصدر لمختلف الكراريس هو الوجه اللحمي. لا نستنتج من ذلك أن المجموعات الرباعية التي وصفناها هي الأمثلة الوحيدة المعروفة من تلك الفترة. فهناك مخطوط آخر بالخط الحجازي (انظر الرسم ٧)– Paris, BN 328c – تكوينه خماسي معتاد (بمعنى أن الوجه الوبري هو وجه جميع الصحائف في نصفه الأول). فعلينا الانتظار إلى أن نتعرف على عدد أكبر من المصاحف الحجازية كي نضع الخطوط العريضة للاتجاهات المختلفة.



الرسم (٧) كراس من ٤ ورقات. مخطوطة باريس BN Arabe 328a
(نهاية القرن الأول/السابع وبداية القرن الثاني/ الثامن)

وإلى أن نتمكن من ذلك، فلنذكر الآن التنوع النسبي في استخدامات الرق السائد في هذه الفترة – أواخر القرن الأول/ السابع وأوائل القرن الثاني/ الثامن – والذي لا يخرج عن المعتاد من حيث عدد صحائف الكراريس بينما يلفت انتباهنا ظاهرة أخرى غير عادية وهي استخدام الوجه اللحمي للرق في صدارة الكراس.

نعود الآن لذكر مخطوط باريس Paris, BN Arabe 324 الذي يرجح أن يرجع تاريخه إلى النصف الثاني للقرن الثاني/ الثامن، فندرك من أول نظرة أن الوجه المتصدر لمعظم صحائفه هو الوجه اللحمي. وتتميز مجموعتان من الصحائف بنص متسلسل – ص ١٨ إلى ٢٧ ثم ٣٠ إلى ٣٧ – الأولى على عشر صحائف والثانية على ثماني صحائف. وقد أشرنا إلى أن واجهات الصحائف هي الجانب اللحمي للرق، ذلك فيما عدا ص ٢٣ المعكوسة. قد نظن أننا نتعامل مع كراريس من ١٦ أو ٢٠ صحيفة. ولكننا نحبذ تفسيرا آخر في ضوء دراسة ١٢٢ صحيفة من النص القرآني مجمّعة في مخطوطي إستانبول TIEM 51-52 خطها مثل خط الأجزاء المحفوظة في باريس والتي تتسلسل فيها الجوانب من الجانب اللحمي للرق.[٦٤] في كلتا الحالتين، المخطوط «مسطّح» in plano – أي أن كل صحيفة مكونة من جلدة كاملة،[٦٥] إذن فالكراسة ليست أساس الكتاب. وجميع الصحائف موضوعة بنفس النمط: أي أن جميع الوجوه على الجانب اللحمي للرق وجميع ظهور الصحائف على الجانب الوبري. وللأسف لم يصلنا أي من المخطوطين في حالة تجليده الأصلية فلا نستطيع أن نعرف كيف كانت الصحائف مجمّعة – هل كانت مخيّطة مسطّحة[٦٦] أم محمّلة على شرائط؟ حالة المخطوطين لا تسمح لنا بالإجابة. ويبدو أن مخطوط صنعاء – دار المخطوطات ٢٠ – ٣٣.١ – كان مركبا بنفس الأسلوب ولكننا لا نعرف إن كانت جميع صحائفه على نفس الوجه.[٦٧]

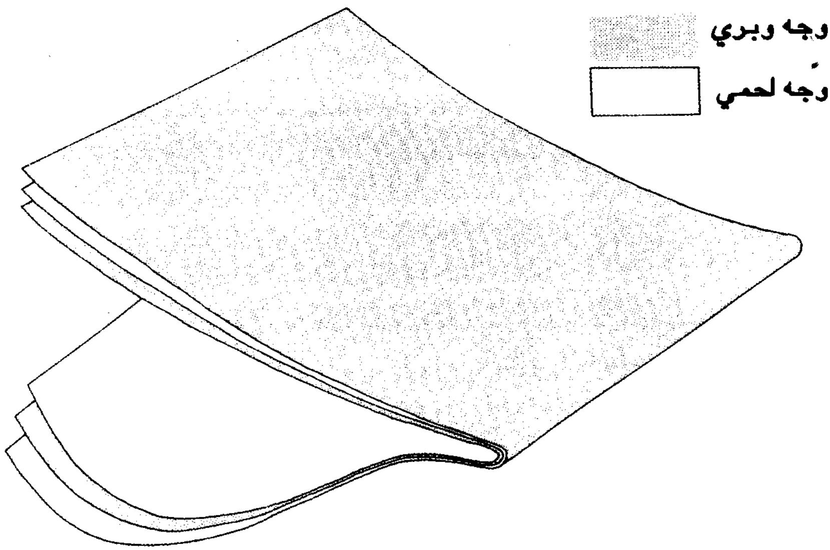
من وقت لآخر، تظهر أمثلة لمخطوطات رقية مركبّة بصور أخرى. فأحيانا نجد الصورة الرباعية بين المخطوطات المستطيلة من القرن الثالث/ التاسع وبين المصاحف الرأسية الهيئة من القرن الرابع/ العاشر، ومن العجيب أن ذلك لا يؤثرعلى تتالي وجوه الرق الذي لا يختلف في هذه الأمثلة عنه في الأمثلة أعلاه حيث يكون الوجه المتصدر للمخطوط من جانب الرق الوبري. وبعض الأمثلة محيّرة فعلا – كمخطوطي إستانبول (من القرن الثالث/ التاسع) TIEM 552-553 المكونين من مجموعات رباعية بداخلها وجوه الصحائف ١ و٢ و٤ من

جانب الوبر بينما ص ٣ معكوسة ووجهها من جانب اللحم. كما نجد أجزاء مخطوط آخر في هذه المجموعة -SE 148 - يبدو وكأنه مكون من مجموعات خماسية تتبع قاعدة جريجوري بينما يكون الوجه المتصدر للكراريس أحيانا وبريا وأحيانا لحميا، ولسبب ما نلاحظ أن الصحائف المزدوجة ٢ و/أو ٤ معابة على نحو متواتر.

جـ - تصنيع الكراريس: أحوال المغرب

في مناطق مغرب العالم الاسلامي، استمر استخدام الرق بعد انقطاعه في المناطق الأخرى، وخاصة لنسخ المصاحف، فنجده بقي شائعا حتى القرن الثامن/ الرابع عشر أو حتى القرن التاسع/ الخامس عشر إلى جانب الورق. وقد تدعونا هذه الظاهرة إلى الظن بأن تصنيع الرق استمر على الصورة التي وصفناها. ولكن هذا غير صحيح، فالملاحظ أن تتالي وجوه الرق يتبع قاعدة جريجوري ولا يبدو أنه كان ثمة أسلوب مفضل في تجميع الكراريس. أما المجموعات الخماسية فلم تكن مجهولة الشأن، بل نجد منها مخطوطين في مجموعة باريس Arabe 6090[٦٨] و6499[٦٩] يتكونان من كراريس أساسها خماسي - وإن لم تكن النوع الوحيد. فقد تكون الكراريس الرقية أكثر أهمية: كراريس المخطوط Arabe 6095 يبلغ عدد صحائفها ١٤ صحيفة.[٧٠] ولكن النساخين استخدموا أيضاً النمط الرباعي كما في المخطوطات الموجودة في باريس - المكتبة الوطنية - Bibliothèque Nationale Arabe 385[٧١] وفي الڤاتيكان - مكتبة الڤاتيكان - Biblioteca Vaticana, Arab 881.[٧٢] ووفقا لما يعتقده پ. أورساتي P. Orsatti[٧٣] ويبدو أن استخدام المجموعات الثلاثية لمخطوطات الرق كان خاصية مغربية، مما يمثل اختلافا هاما عن تقاليد تصنيع المصاحف في العالم القديم التي استخلصناها إلى الآن. ففي المصاحف الرقية الصادرة من المغرب الإسلامي، تكثر المجموعات الثلاثية: كالمصاحف الثمانية المخطوطة المحفوظة في المكتبة الوطنية بباريس - والتي معظمها إن لم يكن جميعها مكون من مجموعات ثلاثية.[٧٤] وفي مكتبة الڤاتيكان، يتبع هذا النمط اثنان من المخطوطات الرقية غير القرآنية مكونان من كراريس أساسها ثلاثي، إلى جانب ستة من المصاحف السبعة في هذه المجموعة.[٧٥] جميع هذه المخطوطات، سواء في باريس أو الڤاتيكان، يتبع قاعدة جريجوري كما يتضح

لنا مثلا في المخطوط Arabe 395 المكون من تكوينات ثلاثية مختلطة بأخرى ثنائية والوجه المتصدر لبعضها هو الوجه الوبري للرق (انظر الرسم ٨).(٧٦) ونلاحظ نفس الخواص في المخطوط Arabe 5935(٧٧) - ولكنه أكثر انتظاما من المخطوط السابق، فالظاهرة الشاذة الوحيدة به هي الكراسة الأخيرة، وتركيبها خماسي حيث يتبع تتالي وجوه الرق قاعدة جريجوري. ويبدو أن هذه الخاصية ليست ناتجة عن ابتكار متأخر كالوضع في مخطوط الفاتيكان Vatican, BAV Vat. arab. 310 . فهناك أمثلة لها منذ القرن الرابع/ العاشر.(٧٨)



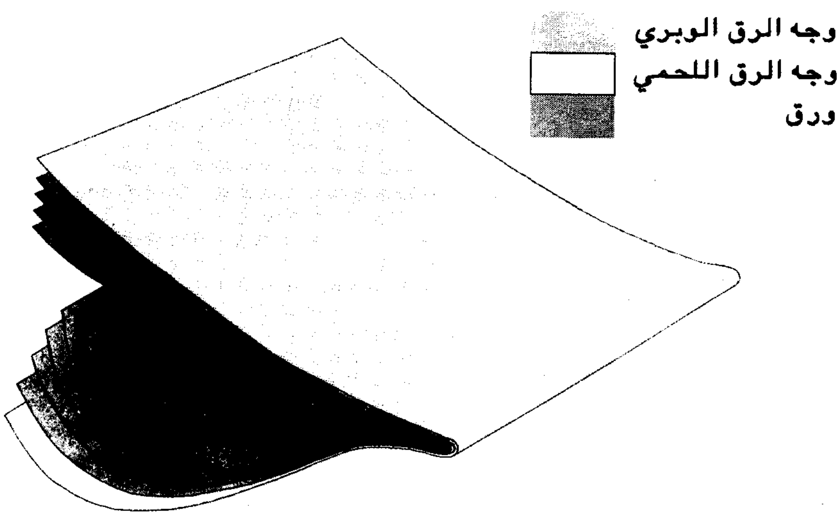
الرسم (٨) كراسة من ٣ ورقات من مخطوط مغربي

تتبع الكراريس الخماسية لمخطوطين آخرين من المجموعة الباريسية Arabe 6090(٧٩) وArabe 6499(٨٠) منسوخين في الأندلس هذه القاعدة بصفة عامة إذ تتكون غالبا من صفحات مزدوجة يتقابل فيها وجهان من نفس النوع. ولكن لا يعني ذلك أن الكراريس صنعت بالطيِّ مثل كراريس المخطوطات الغربية التي ذكرناها في أوائل حديثنا. فمثلا، «العيوب» في الصحيفتين المزدوجتين

الأولين من الكراسة رقم ١ في المخطوط Arabe 6090 وأيضا في أول الكراسة رقم ٨ (ص ١٣٠ - ١٣٢) في Arabe 6499 تجعلنا نعتقد ذلك. كما أن الغرابة البادية في الصحائف المزدوجة المتداخلة في تكوين نفس الكراسة قد تؤخذ كدليل على ذلك: فقد تحدثنا أعلاه عن بقايا جذور الشعر في عدد من صحائف مخطوطين في باريس - 6090 - BN Arabe 5935 - ويعزز التوزيع العشوائي لهذه الصحائف إلى جانب عدم قدرتنا على إيجاد صحيفتين مصدرهما نفس الجلد من الافتراض بأن الرق كان مقصوصا مسبقا وأن مصنعي الكراريس راكموا القطع الموجودة بدون أي اعتبار لمصدرها.[٨١]

د - تصنيع الكراريس: حلول مختلطة

ثمة عناصر عديدة تعضد فكرة أن قوة تحمّل الرق كانت تحظى بتقدير كبير. وعندما بدأ الورق في منافسة الرق بجدية، اتخذ النساخون - أو أوصياؤهم - الذين كانوا حريصين على بقاء المخطوطات على مر الدهر، موقفين مختلفين، الأول تمثل في اختيار النصوص التي يقتصر عليها استخدام تلك المادة المكلّفة: وغالبا ما كان الاختيار يقع على النصوص القرآنية، والآخر كان



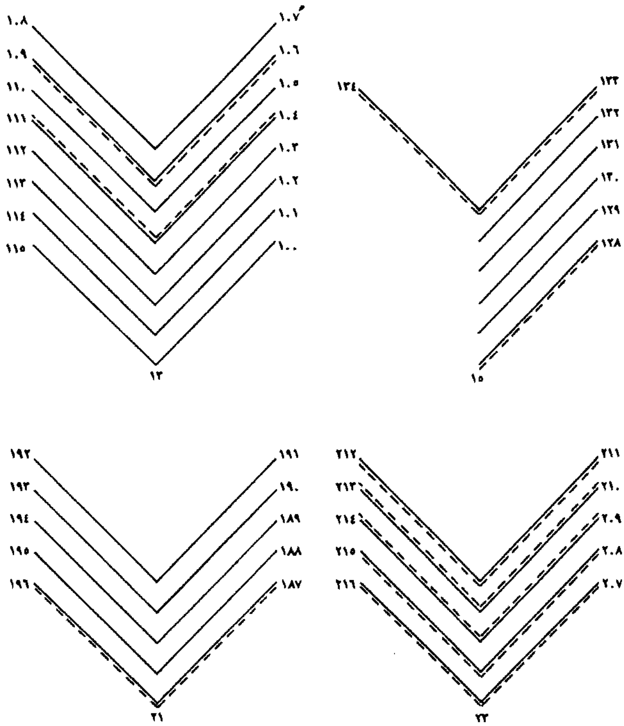
الرسم (٩) كراس من خمس ورقات مختلط

الجمع بين الرق والورق بحيث يجمعون بين متانة الرق ورخص الورق باستخدام هذا الأخير حيث لا يكون ظاهرا. وهكذا ظهرت الكراريس المختلطة المكونة من الورق والرق معا، حيث كان الرق يوضع خارج (ثم في وسط) الكراس (انظر الرسم ٩) بينما يملأ الورق باقي الفراغات بين الطبقات الرقية.

وقبل أن نتوسع في مناقشة مخطوطين استُخدم فيهما الرق والورق معا، أود أن أذكر أسلوبا فنيا لم يصلنا منه سوى مثال واحد في هذا المجال للمخطوطات الإسلامية – وتدل على استخدامه قبل ظهور الإسلام المخطوطات المنسوخة على البرديّ.[٨٢] نعلم أن خيط الحياكة يمر في طية الصحيفة المنصَّفة لكل كراس. ومع كثرة تداول المخطوط أثناء قراءته، قد يقطع الخيط الورق وتتبعثر الصحائف في النهاية. وفي مخطوط برلين، المكتبة الوطنية – Staatsbibliothek Spr . 517 – نجد أن المجلِّد، بدلا من أن يستخدم صحيفة مركزية كاملة من الرق لمنع الانشقاق، خيَّط قطعة مستطيلة صغيرة من الرق مع كل غرزة يمر بها في ثنية الكراس بحيث يزيد طول الشقفة قليلا عن المسافة بين كل غرزتين.[٨٣] وبتفاوت أطراف الشقفات الحامية، تمكن من حفظ الكراس من الانشقاق.

الكراريس المختلطة التي ذكرناها تزودنا بدليل آخر على الأساليب التي لجأ إليها الحرفيون من مصنعي الكتب لتحسين مقاومة المخطوطات في الوقت الذي يدمجون الورق في صناعتها لخفض تكلفتها،[٨٤] ولا شكّ أن مخطوط باريس – BN Arabe 6499 – نسخة النحوي علي بن محمد بن خروف في الأندلس – ربما إشبيلية – في ٥٦٢/ ١١٦٦ يعتبر مثالا قيما على ذلك.[٨٥] فهو فعلا أقدم دليل على الجمع بين الورق والرق، بحيث تحمي متانة الرق الورق، أي العنصر الأقل مقاومة. وحقق مصنع المخطوط هذه الحماية في اتجاهين: الكراريس الثلاثة الأولى للمخطوط (ص ١ – ٢٥) ومثلها الكراريس الثلاثة الأخيرة (ص ١٣٠ – ١٦٥) مكونة بأكملها من الرق لأنها أجزاء الكتاب الأكثر تعرضا للعوامل المختلفة. تتكون الكراريس الأخرى من صحيفة مزدوجة خارجية من الرق تليها ثلاث صحائف أو أربع مزدوجة من الورق تغطي الصحيفة الرقية المزدوجة الأخيرة التي هي الصحيفة المنصَّفة للكراس. إذن فالكراريس الموضوعة بين ص ٢٦ و١٢٩ تتمتع بحماية الرق في الكراريس ص ١ إلى ٢٥ و١٣٠ إلى ١٦٥ من ناحية، تضاف إليها من ناحية أخرى حماية الصحيفتين المزدوجتين الحاضنتين لرزمة الصحائف الورقية.[٨٦]

هناك مخطوط آخر في المكتبة الوطنية بباريس يجمع بين الرق والورق. وهو المخطوط BN Arabe 2547 – عبارة عن مجموعة مؤلفات في الفلك نسخَت أساسا في ٩٨٠/ ١٥٧٢ – ١٥٧٣في دمشق.[٨٧] وفي القرن التاسع عشر زُوِّد المخطوط بجلدة من الطراز الغربي عليها علامة لويس فيليب. ومعظم كراريس المخطوط خماسية، وخمسة منها تحتوي على صحائف من الرق مختلطة بصحائف ورقية تكون أحيانا مصبوغة. أما الكراس الأول (رقم ١٢ – ص ٩٢ إلى ٩٩) فناقص وغير منتظم. وبه صحيفتان غير متجانستين من الرق (ص ٩٧ و٩٩) موضوعتان في النصف الثاني للكراس في وضع متماثل، ووجه الصدارة لكليهما هو الجانب الوبري للرق. وأما الكراس الثاني (رقم ١٣ – ص ١٠٠ إلى ١١٥ – انظر الرسم ١٠) فبه أربع صحائف رقية (ص ١٠٤ و١٠٦



الرسم (١٠) الكراريس رقم ٨ و١٥و٢١ و٢٣ من المخطوط Paris, BN Arabe 2547. (الخط المتقطع يبين وضع وجه الوبري).

و١٠٩ و١١١). وهي عبارة عن صحيفتين مزدوجتين وضعهما مختلف (وجه ص ١٠٤ من الجانب الوبري بينما وجه ص ١٠٦ من الوجه اللحمي). الكراس الثالث من ناحية أخرى (رقم ١٥ - ص ١٢٨ إلى ١٣٤) مشوَّه: فهو يحتوي على ثلاث صحائف رقية أولها غير متجانسة (ص ١٢٨ - وجه وبري) والأخريان تكونان الصحيفة المزدوجة المنصِّفة للكراس (ص ١٣٣ و١٣٤)، حيث تتميز الأولى بوجه لحمي. وأما الكراس الرابع (رقم ٢١ - ص ١٨٧ إلى ١٩٦) فمنتظم: الصحيفة المزدوجة الخارجية من الرق والوجه المتصدر للكراس من الجانب الوبري. فإذا ما جئنا للكراس الأخير (رقم ٢٣ - ص ٢٠٧ إلى ٢١٦) وجدناه يتكون بكامله من الرق: وتسلسل وجوه صحائفه كالآتي:

و/ل، و/ل، ل/و، ل/و، و/ل + ل/و، و/ل، و/ل، ل/و، ل/و.[٨٨]

وكما يتضح لنا، فإن استخدامات الرق لا تتبع نمطا موحدًا في جميع الحالات: فباستثناء الكراسين رقم ٢١ وربما ١٥ (في حالته الأصلية)، الرق لا يُستخدم للوقاية الخارجية وأسلوب وضعه يبدو عشوائيا بالرغم من التفضيل النسبي لوجه الرق الوبري في ترتيب وجوه الصحائف كما أن نوع الرق نفسه يختلف عن الرق القديم الذي كان أكثر سُمْكا: هل عولج الرق؟ هل أعيد استخدامه؟ هناك العديد من الأسئلة بلا إجابات. وعلى أية حال، فهذه ليست كراريس مختلَطة مصنَّعة على نسق كراريس المخطوط Arabe 6499 ، ولكنها خليط. فالمخطوط يميل بنوعيته إلى مجال النوادر والغرائب curiosa ونعتقد أن الناسخ اختار الرق لندرته، مثلما أكثر من استخدام الورق المصبوغ - بمعنى أنه لا مجال هنا لاعتبار أن خياراته أساسها رغبته في الاستفادة من شدة مقاومة الرق. وإلى أن نعرف المزيد، يمكننا القول إن المخطوط BN Arabe 2546 هو أحدث مثال لاستخدام الرق في المخطوطات الإسلامية.

هـ - بعض الملاحظات عن استخدامات الجلود

نظرا لأهمية تصنيع الكراريس نسبة إلى تصنيع المخطوط المجلَّد، كان طبيعيا أن نخصص لها جزءا هاما من هذه الدراسة. ومجموعة الأمثلة التي عرضناها توضح أنماطا مختلفة لهذه العملية. ولكن دارس المخطوطات المجلَّدة

لا يمكن أن يكتفي بذلك: فهناك بعض الخواص لاستخدامات الرق تتطلب الإشارة إليها. وأكرر أن من استباق الأمور أن نحاول في الوقت الراهن وضع قائمة شاملة، ولذلك نقتصر على عدد من الأمثلة نستنتج منها بعض المعلومات الاقتصادية. فنجد مثلا أن المخطوط Paris, BN 6095 يحتوي على صفحات تتفق حوافها مع حواف الرق الطبيعية (ص١٧ مثلا) أو أخرى ما زال الوبر عالقا بها (مثل ظهر ص ٣٩). وقد نستنتج من ذلك أن هذه النسخة صنعت بأقل التكاليف. أما المخطوط Arabe 6499 من نفس المجموعة، وإن كان مصنَّعا بعناية أكثر، فإن به صحيفة حافة هامشها الخارجي مقطوعة بزاوية، مما يظهر أن على الرغم من عناية ابن خروف الواضحة بإنتاج مخطوط جميل، فيبدو أنه لم تطاوعه نفسه على الاستغناء عن قطعة لا تعطيه صحيفة مزدوجة كاملة. وحتى مخطوطات الأمراء، مثل MS Arabe 6090، تشهد على هذه الرغبة في الاقتصاد، إذ يوجد في بعض صحائف هذا المخطوط ثقب صغير داخل حدود الأسطر لإجبار الناسخ على تعديل كتابته للالتزام بالهامش، وفي مصاحف القرن الثالث/ التاسع، كما أوضحناه أعلاه (انظر أيضا الرسم ٣ إلى ٥) استُخدمت مرارا صحائف غير متجانسة لإعادة تكوين الصحائف المزدوجة – مما يقنعنا تماما بجهود مصنعي المخطوطات في تحري الاقتصاد في استخدامهم الجلود وإصرارهم على استعمال القصاصات العديدة الناتجة عن قطعها.

و – التسطير على الرق

طبيعة الرق كمادة غير مرنة أملت اللجوء إلى أساليب خاصة في تسطير الرق. فبدلا من استخدام المسطرة بصورتها المعروفة لدى دارسي المخطوطات الإسلامية الأكثر حداثة استُخدِم القلم الجاف ذو سن من الرصاص أو الحبر. ولا يهمنا الآن دراسة التطوراتِ النوعية لأساليب التسطير، ولكننا نجد من المناسب أن نشير إلى وسائل تسطير الرق. من الناحية النظرية يسمح القلم الجاف بتسطير عدة صحائف في نفس الوقت – على شرط أن يُضغَط على القلم قليلا. ومع ذلك فلم نجِد إلى اليوم أي دليل على استخدام هذا الأسلوب، ولكننا نعلم أن الرق كان يُسطَّر بالصحيفة المزدوجة، بمعنى أنه عندما لم تكن الكراسة محاكة، كانت الصحائف المزدوجة تعالج كل على حدة.[٨٩] كما يبدو أنه

جرت العادة على تسطير كل صحيفة على حدة كما لا حظنا في أعمال الناسخين الذين استعملوا الحبر أو السن الرصاصية.

وقد احتفظت بعض المخطوطات المنسوخة بالخط الحجازي بآثار التسطير، مما يثبت لنا أن الناسخين كانوا على دراية بمشاكل تنسيق الصفحات منذ البداية.[٩٠] بالتالي ندهش لانعدام آثار التسطير في معظم المصاحف المنسوخة بالخط العباسي القديم:[٩١] فانتظام الخط يدعونا إلى افتراض أن الناسخ اعتمد على نظام معين للتحكم في نسق السطور - ولكن ليس ثمة من دليل على ذلك.[٩٢]

٣ - إعادة استخدام الرق

سبق لنا أن أشرنا إلى رسائل الحسبة التي نشرها بالفرنسية لڤي پروڤنسال حيث يُنصح بعدم إعداد أي رق غير مكحوت.[٩٣] يذيل الكاتب توصية ابن عبدون بتوضيح منه مفاده أن الرق المعني قد يكون الرق الجديد المكحوت قبل بيعه أو الرق المُستَعمَل، أي الحامل للكتابات، الذي يُحكّ لإعادة استعماله (الطرس).[٩٤] ونتساءل عن معنى «الطرس» في هذه الحالة على التحديد، إذ يبدو لنا أن التوصية بالحك لإزالة الكتابة وإعادة استعمال الرق ليست ضرورية، فنحن نعلم أن الناسخين، بحكم غلاء الرق، أعادوا استخدام صحائف عليها كتابات يمحونها بالغسيل أو بمجرد الحك. ولا تنقصنا المراجع التاريخية الدالة على ذلك. ثم أن رسائل ابن باديس تشرح لنا بوضوح كيفية محو أجزاء محدودة من النصوص.[٩٥]

إلى جانب المصادر الأدبية المذكورة، لدينا أمثلة عربية للطرس تؤكد لنا هذه الممارسات. ولعل واحدا من أقدم الأمثلة هو جزء من مصحف عُرض للبيع أخيرا في لندن،[٩٦] وعلى الرغم من أننا محقين في تشككنا في دقة تاريخه المبكر إلا أننا نقبل أن صحيفته استُعملت خلال القرن الأول/ السابع. وثمة شبيه لهذا المصحف هو مخطوط اكتُشف في اليمن وأعلن عنه الفريق الألماني المسؤول عن ترميم مصاحف صنعاء المَخطوطة،[٩٧] ولكن مصنعي المخطوطات لم يكتفوا بإعادة استعمال الرق في إطار تقليد معتمد: فإلى جانب النصوص العربية الإسلامية المكتوبة فوق نصوص أقدم في نفس اللغة، كما في الأمثلة السابقة، نجد أمثلة للطرس حيث تغطي النصوص العربية نصوصا بلغات

أخرى،[٩٨] والعكس صحيح: ففي أطراس «لويس-منجانا» نجد نصوصا مسيحية بالعربية من القرن العاشر أو حتى التاسع فوق صفحة من التوراة بالإغريقية، ومقتطفات سريانية، وثلاث فقرات قرآنية بالخط الحجازي.[٩٩] ولم يكن الفارق الزمني بين النصين المتتاليين بالضرورة طويلا: وقد يستفيد الناسخ من هذه العملية عندما يحتاج تصحيح نص أدرك أنه أخطأ فيه.[١٠٠]

لا تمثل إعادة استخدام الرق التي أسلفنا وصفها حصرا شاملا لتلك الظاهرة، فدراسة المجلَّدات القديمة تثبت أن المجلِّدين لم يترددوا في استخدام رق مستَعمَل. فأثناء التجليد بالألواح الخشبية، يبدو أنهم كثيرا ما لجأوا إلى تبطين الوجه الداخلي للوح بلصق صحيفة من مخطوط قديم.[١٠١] كما أنهم اعتادوا تقطيع الصحائف إلى شرائط لتقوية ظهر رزم الكراريس،[١٠٢] أو لاستخدامها كمفاصل في تعشيقة التجليد التي تميزت بها المصاحف القديمة.[١٠٣] كما حولوا صحائف الرق المناسبة حجما إلى أغلفة.[١٠٤] ولكننا نخطئ حين نصوِّر المجلِّد في دور المنقب عن الرق المستعمل، إذ نجد بكر الإشبيلي، على سبيل المثال، يكرر في رسالته عن التجليد «كتاب التيسير في صناعة التسفير» ذكر الرق عدة مرات بدون تحديد ولو مرة إن كان الرق جديدا أم لا. ويمكننا الأخذ بأن اقتراحاته تشمل أيضا الرق الجديد.[١٠٥] إذ يمكننا أن نتعرف فيها على الاستخدامات التي شهدناها في المجلدات القديمة مثل البطانة،[١٠٦] واستعمال شرائط الرق في المفصل بين اللوح الخشبي ورزمة الكراريس.[١٠٧] ونشير هنا إلى نوع من الأغلفة يسمى الشدق يتكون من قطعة من الجلد تلصق عليها ورقتان أو ثلاث ثم طبقة من الرق: مما يؤدي إلى نوع من الورق المقوّى أو الكرتون.[١٠٨] وأخيرا، ننبه إلى أن الإشبيلي ينصح باستخدام نوع معين من الصمغ مخصص للرق.[١٠٩]

الخاتمة

إن الخبرة الفنية الواسعة للرقّاق العربي تفتح مجالا واسعا للمناقشة، إلا أننا نقف على أرض صلبة في تحليلنا لاستخدامات الجلود في صناعة المخطوطات، وهو تحليل نخرج منه بأن المسلمين يحتلون مكانة خاصة بين وارثي فن الكتاب القديم. ترى هل كانوا يتبنون مهارات سبق أن تأسست في الشرق الأوسط؟ – بالنسبة لصناعة كتب البردي، نجد أن التقليد الذي يبدو

شائعا في القرنين الثالث-الرابع/التاسع-العاشر يتميز بقواعد تتسم بالابتكار منها القطع المسبق للجلود بانتظام، وتفضيل يكاد يكون تاما للكراريس خماسية التركيب، وتسلسل منتظم لوجوه الرق، وإعادة تكوين الصحائف المزدوجة «المزيفة» بتجميع صحيفتين غير متجانستين، تقابلها طرق تصنيع أخرى معروفة في ذلك الوقت إلا أنها نادرة الوجود ولا تسمح لنا حاليا بأي تفسيرات موثوقة. ويجدر بنا أن نؤكد أن الأساليب الفنية التي تميّز بها المغرب الإسلامي في هذا المجال تضفي على المنطقة طابعا خاص بدون أن تيسر لنا سبيلا لتفسيره.

إن التسلسل الزمني لاستخدام الرق في المخطوطات الإسلامية قد بدأ يسير على درب التحديد الدقيق. وقد نقبل بصعوبة تاريخ المخطوط BN Arabe 2547 - ٩٨٠/ ١٥٧٢ - ١٥٧٣ - كإعلان قاطع بنهاية استخدام الرق في المخطوطات الإسلامية. لقد استُخدِم الرق منذ القرن الأول/ السابع بكميات يستحيل تحديدها بالمقارنة مع استخدَام البردي. وبالرغم من أنه لم يتبق لنا أي مخطوط مؤكَّد التاريخ والمصدر من الفترة السابقة للقرن الثالث/ التاسع،[١١٠] فإنه يمكننا القول إن الرق استخدم في تصنيع المخطوطات في جميع أركان العالم الإسلامي خلال عصر ذهبي يمتد إلى القرن الرابع/ التاسع. وثمة مثالان من أواخر القرن الثالث/ التاسع - يظن أنهما نسخا في إيران - يدلان على أن الرق ظل يستخدم في تلك المنطقة بينما كان الورق في طريقه إلى التربع على عرش فن المخطوطات بلا منافس.[١١١] على أن الأمثلة لنفس الفترة في المنطقة الوسطى للعالم الإسلامي أكثر عددا ودقة، خاصة عند دراستها في ضوء الأمثلة المتبقية لنا من المجتمعات الأخرى في نفس المنطقة - كمخطوطات طور سيناء على سبيل المثال.[١١٢] وفي القرن الرابع/ العاشر وبعده، يقتصر استخدام الرق على المغرب الإسلامي تدريجيا، باستثناء عدد من الحالات المعزولة التي لا نقدر حاليا على تقييمها بدقة. واستمر استخدام الرق في قلعته الأخيرة بالمغرب، سواء على حدة أو مجتمعا بالورق إلى القرن الثامن/ الرابع عشر أو ربما القرن التاسع/ الخامس عشر.

إن توفر معرفة أفضل بفن صناعة المخطوطات الرقية، وخاصة القيام بدراسة المجموعات المنشورة بانتظام للمخطوطات المؤرَّخة، لحريّ أن يسمح لنا بإكمال جدولنا الزمني. كما أن المقابلة بين النتائج التي نصل إليها وبين

الشواهد النصية العديدة أو شواهد أسماء المدن،[١١٣] قد تسمح لنا أن نكوّن تصورا ما عن الجغرافية التاريخية لاستخدام الرق في العالم الإسلامي.

الحواشي

(١) نجد بعض المعلومات المفيدة (مع ملاحظة تخصصه في علم الورق عند العرب) في:

A. Grohmann, *s.v. Djild, EI²*, II, p. 533–54,

و لنفس المؤلف

Arabische Paläographie I [Denkschriften der Österreichische Akademie der Wissenschaften], Phil.-hist Klasse, 94, Vienna, 1967, p. 108–11;

وكذلك عند J. Pedersen, *The Arabic book*, ed. with an introduction by R.Hillenbrand, Princeton, NJ, 1984, p. 55–7; G. Endress, "Pergament in der Codicologie des islamisch-arabischen Mittelalters", *Pergament, Geschichte – Struktur–Restaurierung-Herstellung*, P. Rück éd. Sigmaringen, 1991,p. 45–6.

(٢) بالانجليزية parchment وبالالمانية Pergament وبالفرنسية parchemin وبالإيطالية pergameno إلخ... الكلمة الإغريقية الدالة على الرق diphthera أصل الكلمة العربية دفتر

(انظر: B. Lewis, *s.v.* Daftar, *EI²*, II, p. 78).

(٣) راجع:

F. Bilabel, s.v. "Membrana", Paulys Real-Encyclopädie der classischen Altertumswissenschaft, XV/1 (Stuttgart, 1931), col. 596-601;

وفقا لرايدر بلينيوس الأرشد (Pline l'Ancien) مسؤول عن نشر هذا التفسير.

M. L. Ryder,"The biology and history of parchment", *Pergament, Geschichte – Struktur – Restaurierung – Herstellung*, P. Rück éd. [Historische Hilfswissenschaften, 2], Sigmaringen, 1991, p. 25.

(٤) انظر:

R. Reed, *Ancient skins, parchments and leathers* [Studies in archaeological science], London-New York, 1972,p. 277; M. L. Ryder, *op. cit.* [no. 3], p. 25.

يجب الحذر عند استخدام اللفظ «رق». فوجود الكتابة على وجهي الجلد ليس مقياسا كافيا. ثم أن هناك موادا أخرى مشابهة تصنّع بأساليب مختلفة تماما (انظر ١٦ أدناه).

(٥) D. Muzerelle, *Vocabulaire codicologique*, Paris, 1985, p. 39;

M. L. Ryder (*ibid.*)

يصران على أن الدباغة لم تكن تستخدم، بينما هاران، الذي يتحدث عن skins يعتقد أن الجلود في الشرق الأوسط كانت تعالج بعملية دباغة خفيفة:

M. Haran,""Technological heritage in the preparation of skins for biblical texts in Medieval Oriental Jewry", *Pergament, Geschichte – Struktur – Restaurierung – Herstellung*, P. Rück éd. Sigmaringen, 1991, p. 35 - 37.

ويشاركه ريد هذا الرأي في *Ancient Skin* ص١٢٢-١٢٣. ويفرق بيت آري كذلك بين المشرق وأوروبا – بما في ذلك أسبانيا – ولكنه يتحدث عن «الرق» في كلتا الحالتين:

M. Beit-Arié *Hebrew Codicology*, Paris, 1976, p. 22, no. 25 .

(٦) لسنا على علم بأي دراسات عن أصناف الحيوانات المستخدمة. كما أن المصادر لا تفيدنا بأية معلومات عن ذلك في العصور القديمة. (راجع بلابل، المرجع نفسه، العمود٥٩٧)، بالنسبة للعالم الإسلامي، يتحدث الكتاب الذين ذكروا الرق عن الخروف والماعز والعجل. راجع: غروهمان (المرجع السابق [1] ص١٠٨) و إندرس (المرجع السابق[1] ص٤٥)

U. Dreibholz, "Der Fund von Sanaa. Frühislamische Handschriften auf Pergament", *Pergament , Geschichte – Struktur – Restaurierung – Herstellung*, P. Rück éd. [Historische Hilfswissenschaften, 2], Sigmaringen, 1991 p. 301).

يكثر ذكر جلد الغزال في الفهارس وبفاتر المعلومات، مثلا:

A. Mousa, *Islamische Buchmalerei*, Cairo, 1931, p. 46 et pl. XVIII [29];

M. Ülker, *Baslangıçtan günümüze Türk hat sanatı*, Ankara, 1987, p. 110,

و يخصص غروهمان بعض السطور لهذا الموضوع في *Arabische Paläographie*, I, 110 ومع ذلك، فثمة مصادر أرمنية تعدد الأصناف المستخدمة: الماعز والظبي والخروف المستأنس والبري والأيّل والقواع و العجل والحمير. راجع:

P. Schreiner, "Zur Pergamentherstellung im byzantinischen Osten", *Codices manuscripti*, 9, 1983, p. 126.

(٧) *Le Calendrier de Cordoue*, R. Dozy éd., Texts and Studies, I], Leiden, 1961, p. 90–1;

و هي طبعة جديدة تصحبها ترجمة فرنسية أعد حواشيها شارل بيلان. ونحن نشكر M. G. Guesdon للفته نظرنا إلى هذه الفقرة.

(٨) عن جلود الأيّل المستخدمة في تصنيع الرق، راجع ريد المرجع السابق [4] ص٢٧ وص١٠٦

(٩) T. I, p. 545, s.v. *Raqq*

يجب أيضا أخذ طبيعة الحيوان في الاعتبار: فمقاسات جلد الغزال الشرقي تكون حوالي ٤٠ X ٥٠ سم.

(١٠) راجع:

E. Levi-Provençal, *Séville musulmane au début du XII^e s., Le traité d'Ibn Abdūn sur la vie urbaine et les corps de métier* [Islam d'hier et d'aujourd'hui II], Paris, 1947, p.133, n. 219 (=traduction);

ولنفس المؤلف *Documents arabes inédits sur la vie sociale et économique en Occident musulman au Moyen-Age*, Première série, *Trois traités hispaniques de hisba (texte arabe)* [Publications de l'IFAO, Textes et traductions d'auteurs orientaux, 2], Cairo, 1955, p. 59 (texte arabe).

(١١) راجع: ريد (المرجع السابق [4] ص ٣٧)

(١٢) لا يذكر النص هذا التركيب، ولكنه يوجد في قواميس مختلفة عربية وتركية وفارسية – كما يذكرها

B .Dodge, *The Fihrist of al-Nadīm*, New York-London, 1970, I, p . 40 , no .92

(١٣) Ibn Al-Nadīm, al-*Fihrist*, éd. G. Flügel, (Leipzig, 1871-2) p. 21;

و دودج (المرجع السابق [12] ص٤)

(١٤) يذكره R. Hay Gaon (العراق، نهاية القرن التاسع)، انظر أيضا:

A. Harkavy, *Studien und Mittheilungen aus der kaiserlichen öffentlichen Bibliothek zu St Petersburg, 4 Theil, Responsen der Geonim (zumeist aus dem X–XI Jahrhundert)*, Berlin, 1885–7, p. 28.

ونخص بالشكر M. Garel على مساعدته لنا في دراسة هذه الفقرات الدقيقة.

(١٥) راجع: ريد (المرجع السابق [4] ص ١٣٥-١٣٦) و رايدر (المرجع السابق [2] ص ٢٧)

(١٦) يقول شراينر إن هذا الأسلوب كان معروفا في العصور القديمة (المرجع السابق[٦] ص١٢)، و يوافقه في

ذلك هاران(المرجع السابق[٥] ص٤٢)، وهذه الاختلافات ناتجة جزئيا عن صعوبة تفسير المصادر النصية ولكنها لا تضعف من أهمية مقارنة فنون تصنيع المخطوطات المجلدة. فمقارنة تقاليد تصنيع المخطوطات في مناطق مثل الشرق الأوسط أو أسبانيا قد تتمم لنا معلومة ناقصة. فلنأخذ مثلا مسألة نشر الجلود في اتجاه السمك – أي شد ورقتين من قطعة جلد واحدة. يؤيد هاران وجود طريقتين، إحداهما في الغرب ينتج عنها الرق بمعناه المفهوم والأخرى في الشرق ينتج عنها منتج يشابهه وإن لم يطابقه، ويعتقد أن الرقاقين المسلمين مهروا في عملية النشر بحيث أمكنهم شد طبقتين من الجلد: raqq (raq بالعبرية) – وهي الطبقة السميكة القريبة من اللحم – والقشط qasht – وهي الجزء الرقيق من ناحية الوبر. راجع:

"Bible scrolls in Eastern and Western Jewish communities from Qumran to the High Middle Ages" *Hebrew Union College Annual*, LVI, 1985,p . 47-50.

وبالإضافة إلى نص لابن ميمون يرجع إليه كثيرا (Mishne Tora, II Hilkhot tephillin 6-7)، يذكر هاران فقرة من رسالة لابن ميمون تبين أسماء هذه المنتجات ولكنه قرأ «قشط» بدلا من «قنط» وهو اللفظ الموجود في النص الذي حرره

J . Blau, *R . Moses ben Maimon responsa*,I, Jerusalem, 1957, p . 268 , 1.7

(للنص العربي والعبري) و يبدو أن النصوص العربية لم تحفظ لنا معلومات عن هذا الأسلوب الفني وإن كانت حروف الكلمة الجذرية ق ش ط ذات معنى فلا نجد في القواميس التي استشرناها دليلا على كلمة قَشط بمعنى نوع من الرق (مع ذلك، نجد الأصل ق ش ط عند الحديث عن الطرس: انظر ٨٩). ومع ذلك نؤيد أن التقنية كانت معروفة منذ القدم: فقبل أعمال ابن ميمون Maïmonide الذي سكن بمصر في القرن الثاني عشر نصادفها في كتابات من القرن التاسع، أي في عصر كان تصنيع الرق فيه ما زال شائعا. يلخص لنا هاران خطوات تصنيع الرَّق والقَشط كالآتي: (١) تمليح الجلد لمدة يومين أو ثلاثة. (٢) غمره في محلول ماء وجير. (٣) تجفيفه بشدة على إطارات خشبية، وتزول بقايا الوبر أثناء هذه العملية، كما أن هذه مرحلة فصل الرَّق عن القَشط (نفس المرجع، ص ٤٨–٤٩). يتضح مما سبق، وباستثناء الخطوة الأخيرة، أن الإجراءات قريبة جدا من إجراءات التصنيع المتبعة في أوروبا، آخذين في الاعتبار أننا لم نتمكن من العثور على أي دلائل في المخطوطات التي درسناها على فصل الجلد إلى منتجات مختلفة.

(١٧) هاران، المرجع السابق [5] ص٣٦، و المرجع السابق [16] ص٣٦–٣٧.

(١٨) درايبهولتز، المرجع السابق [6] ص٣٠١.

(١٩) ريد، المرجع السابق [4] ص١٤٧.

(٢٠) ليفي بروفنسال، المرجع السابق [10] النص العربي ص٥٩، الترجمة، ص١٣٢، رقم ٢١٩.

(٢١) انظر ليفي بروفنسال، المرجع السابق [10] النص العربي ص١٢٤.

R. Arié, "Traduction annotée et commentée des traités de hisba d'Ibn 'Abd al-Ra'ūf et de 'Umar al-Jarsīfī", *Hesperis Tamuda* I, p. 371.

(٢٢) ليفي بروفنسال، المرجع السابق [10] النص العربي ص٢٧، ١، ١٧-١٨، الترجمة، ص٦٠، رقم ٤٥.

(٢٣) راجع:

F. Déroche, FiMMOD, no 16; (G. Humbert, FiMMOD, no 65)

انظر أيضا مخطوط BN Arabe 6499,

كان الرق الشفاف معروفا في العصور الوسطى: راجع ريد، المرجع السابق [4] ص ١٤٢-١٤٥، وما قيل عن goldbeaters' parchment ص ١٣١.

(٢٤) راجع:

E. Blochet, *Catalogue des manuscrits arabes des nouvelles acquisition (1884–1924)*, Paris, 1925, p. 184; F. Déroche, *FiMMOD*, n° 68.

(٢٥) راجع:

F. Déroche, *Les manuscrits du Coran, aux origines de la calligraphie coranique* [Bibliothèque Nationale, Catalogue des manuscrits arabes, 2e partie, Manuscrits musulmans, I/1], Paris, 1983, p. 20;

و درايبهولتز، المرجع السابق [6] ص٣٠١، كما نجد مثالا جيدا في

F. Déroche, *The Abbasid tradition, Qur'āns of the 8th to the10th centuries AD* [The Nasser Khalili collection of Islamic art], London, 1992, p.62–3, n°15

(٢٦) حتى تنجح هذه التجربة، يجب إهمال منتصف الكراريس وأيضا الصحائف الأولى والأخيرة من كراسين متلازمين (انظر أدناه).

(٢٧) انظر ٢٣

(٢٨) F. Déroche, *Les manuscrits du Coran, du Maghreb à l'Insulinde* [Bibliothèque Nationale, Catalogue des manuscrits arabes, 2e partie, Manuscrits musulmans, I/2], Paris, 1985, p. 34–5, n° 302 et pl. XIV a.

(٢٩) انظر ٢٤

(٣٠) انظر ٢٣

(٣١) M. Lings, *The Qur'anic art of calligraphy and illumination*, London, 1976, pl. 3 et 4;

و أولكر، المرجع السابق [6] ص١٠٥ و١٠٧؛ وديروش، المرجع السابق [22 لعام ١٩٩٢] ص٩٠-٩١ رقم ٤١، ويبدو أن جزءا من المجلد الأول لهذا المصحف – أو كله – محفوظ في برينستون. راجع:

P. K. Hitti, N. A. Faris et B. 'Abd al-Malik, *Descriptive catalogue of the Garrett collection of Arabic manuscripts in the Princeton University Library*, Princeton, 1938, p. 359, n° 1156 = 35G.

(٣٢) غروهمان، المرجع السابق [1] الجزء الأول و الثالث.

(٣٣) E. Tisserant, *Specimina codicum orientalium*, Bonn, 1914, XXXII, pl. 42; R. Blachère, *Introduction au Coran*, 2ᵉ éd., Paris, 1959, p. 96, 99, 100; G. Bergsträsser et O. Pretzl, *Die Geschichte des Korantexts*, dans Th. Nöldeke, *Geschichte des Qorans*, III, 2ᵉ éd., III, Leipzig, 1938, p. 254;

و ديروش، المرجع السابق [25 لعام ١٩٨٣] ص٧٥-٧٧. وتوجد صحائف أخرى في مجموعات أخرى مثل دار الكتب بالقاهرة، انظر:

B. Moritz, *Arabic palaeography*, Cairo, 1905, pl. 1–12) et Gotha, Forschungsbibliothek (*cf.* J. H. Möller, *Paläographische Beiträge aus den herzoglichen Sammlungen in Gotha*, 1. Heft, Erfurt, 1844, pl. XIV).

و توجد مخطوطات أخرى مقاساتها مقاربة وطرازها مشابه، و إن كان هذا وفقا لمصدر غير علمي:

F. Neema, "Restaurado, el Coran mas antiguo", *Excelsior*, Mexico, D.F., suppl, du dimanche 25/07/1993.

ومقاسات المصحف في مسجد سيدنا الحسين في القاهرة هي ٧٠٠ X ٦٠٠ مم حسب صلاح الدين المنجد، دراسات في تاريخ الخط العربي منذ بدايته إلى نهاية العصر الأموي، بيروت (١٩٧١)، ص ٥٣ – ٥٤. ووفقا لريد، توافق هذه المقاسات مقاسات الرق المصنع من جلد الجدي (انظر ريد، المرجع السابق.[4] ص١٢٠)

(٣٤) غروهمان، المرجع السابق [1] ص١١١.

(٣٥) بلابل، المرجع السابق [3] العمود ٥٩٨، وعرفت الآثار القديمة الرق ذا اللّون الأصفر، وفي هذا الصدد، يشير إلى كتاب Isidore de Séville, "*fiebant autem coloris lutei*", الذي يذكر فضلا عن هذا،

الرقّ ذا اللّون الأرجواني (الأحمر القاتم):

"*membrana autem aut candida aut lutea aut pupurea sunt*" (*Etimologias*, texto latino, version española y notas por J. Oroz Reta y M. A.Marcos Casquero, Introduccion general por M. C. Diaz y Diaz, Madrid, 1982, p. 586–9: VI, 11, 2–5).

ولاحظ بلابل في مجموعة القطع المنسوخة على رقائق مكتبة جامعة «هيديلبيرغ»، نماذج ذات لون أصفر، والنماذج البيزنطية التي استطاعت التأثير على إنتاج (الرق) في البلاد الإسلامية معروفة جيدا. انظر على سبيل المثال الحادثة التي نقلها غروهمان، في المرجع السابق ذكره [١] ص ١١١.

(٣٦) الذي خصص له بلوم دراستين J. Bloom("Al-Ma'mun's Blue Koran?" *Revue des Etudes Islamiques* (REI), 54, 1986, p56-65.

J. Bloom"The Blue Koran. An Early Fatimid Kufic manuscript from the Maghrib", *Les manuscrits du Moyen-Orient,* F. Déroche éd. [Varia Turcica VIII], Istanbul-Paris, 1989, p.95–9.

و توجد ببليوغرافيا وافية في ديروش،المرجع السابق [٢٥(١٩٩٢)] ص ٩٢

(٣٧) من أجل نموذج ذي لون برتقالي، راجع المرجع السابق [٢٥(١٩٩٢)]ص٥٨، رقم ١١.

(٣٨) M. Levey, *Medieval Arabic bookmaking and its relation to early chemistry and pharmacology* [Transactions of the American philosophical society, New series, vol. 52, part 4], Philadelphia, 1962, p. 22–3.

(٣٩) حسب غروهمان، المرجع السابق [1] ص ١١٠، الذي يشير إلى الراغب الأصفهاني والبكري. انظر أيضا رقم ١٣.

(٤٠) فيما يخص نماذج الكوفة، يمكننا أن نعتبر أن استعمال المزيج المكوّن من التّمور الذي أشرنا إليه سالفا، كان له تأثير على شهرة الرقائق التي أُنْتِجَتْ فيها. وهنا نستطيع ملاحظة تشابه نسبي مع حالة Pergame حيث تقنية إنتاج الرق، وكما يشير إلى ذلك البعض، تقدّمت تقدّما ملموسا إلى درجة جعلت المدينة تشتهر وكأنها مهد للرّق. انظر رايدر، المرجع السابق [3] ص٢٥.

(٤١) يؤكّدريد (المرجع السابق [١]ص ١٣٢) أهميّة الماء في عملية التّصنيع كما يناقش المشاكل المتعلّقة بالتّجفيف في البلاد الحارة ص١٤٧.

(٤٢) تعني كلمة (*rotulus*) أن تكون خطوط الكتابة عمودية بالنسبة إلى اتجاه نشر اللفة. بينما

(*volumen*) تعني تعامد الكتابة بحيث تكون موازية لاتجاه النشر.

(٤٣) استخدمت الإدارة الساسانية لفائف من الجلد المدبوغ (انظر غروهمان، المرجع السابق [١] ص ١٠٧) ويبدو أن مكتب قاضي القضاة العبّاسي قد تخلّى عن «اللفة» فيما يخص مجموعة المخطوطات(ص ١٠٨) غير أن مجموعة مخطوطات إدارة مصر الأموية بقيت محفوظة (راجع القائمة في

J. Gascou, "Les codices documentaires égyptiens", *Les débuts du codex*, A. Blanchard éd. Turnhout, 1989, p. 100)

إن اللفة التي قد يقصد بها *rotulus* قد عُرِفَتْ في الميدان الأدبي أيضا راجع:

N. Abbott, *Studies in Arabic literary papyri*, II, *Qur'anic commentary and tradition* [Oriental Institute Publications, LXXVI], Chicago, 1967, p. 57–8.

(٤٤) S. Ory, "Un nouveau type de muṣḥaf, inventaire des Corans en rouleaux de provenance damascaine, conservés à Istanbul", *REI*, XXXIII, 1965, p.87–149.

(٤٥) انظر أوري، المرجع السابق [44] ص ٩٧، ١٠١، ١٠٢، وغيرها، حيث نجد خيطا - يمكن أن يكون من الحرير وكذلك حبلا من الجلد المدبوغ (ص١١٦).

(٤٦) المرجع السابق [44] ص ١١٤.

(٤٧) ذُكر الرق في القرآن الكريم (٣:٥٢). وقد عُرِفَ الرق في اللغة العربية قبل الإسلام مثل ورق البردي ولنفس الأسباب، كما ذكرغروهمان في المرجع السابق [1] ص١٠٩.

(٤٨) يعلن غروهمان (المرجع السابق [1]ص١١١) أن الاستعمال الأكثر حداثة للرق، يعود تاريخيا إلى ٤٩٨/ ١١٠٥، وذلك يخصّ فقط ورق البردي (انظررقم ١). وفيما يخص المخطوطات، وخاصة مخطوطات القرآن الكريم، فإن الأمر يختلف عن ذلك. وخلال بحوثنا وجدنا أمثلة لاستعمال الرق في مصاحف مكتوبة في الشرق حتى نصف القرن ٤/ ١٠، انظر على سبيل المثال

F. Déroche, "Collections de manuscrits anciens du Coran à Istanbul: Rapport préliminaire", *Etudes médiévales et partrimoine turc*, J. Sourdel-Thomine éd. [Cultures et civilisations médiévales, 1], Paris, 1983, p. 155: un Coran copié à Fustat en 325/936–7.

ومخطوطات أخرى يمكن أن تكون قد كتبت فيما بعد، وكذلك نأخذ بعين الاعتبار مخطوطة BN Arabe 2547 التي سنقدمها لاحقا.

(٤٩) L. Gilissen, *Prolégomènes à la codicologie, Recherches sur la construction des cahiers et la mise en page des manuscrits médiévaux*, Ghent, 1977, p. 26–35; J. Lemaire, *Introduction à la codicologie* [Université catholique de Louvain, Publications de l'Institut d'études médiévales, 9], Louvain-la-Neuve, 1989, p. 69–94.

(٥٠) ديروش، المرجع السابق[٢٥(١٩٧٣)] ص ٩٦، رقم ١١٠ونصادف نفس البنية في قطعة BN Arabe 358 b التي يمكن إعادة تاريخها إلى قبل ٣٠٠هـ/٩١٣م (انظر *FIMMOD* رقم ١٩).

(٥١) ورقة تطابق مجموع «و/ل» أو «ل/و» (و = الوجه الوبري، ل = الوجه اللحمي للرق) ويشار إلى الخياطة في وسط الكرّاسة بالرّمز «+».

(٥٢) فيما يخص ورق الرق البردي فقد استُعْمِلَ جانبه الداخلي فقط في البداية (راجع غروهمان المرجع السابق [1]ص١١١)، وحسب هاران يحتمل أن يكون النّساخ العرب قد قاموا بنفس العمل، كما هو عليه الحال في الرّق المتحصّل عليه بنشر الجلد في اتجاه السّمك، بينما كانوا يفضّلون بالدّرجة الأولى استعمال الجانب الوبري للقشط (المرجع السابق [١٦] ص٤٨)

(٥٣) موزيريل، المرجع السابق (٥) ص٩٢:

"ensemble de deux pages se faisant vis-à-vis, constitué par le verso d'un feuillet et le recto du suivant" .

(بحيث تكون جملة صحيفتين تقابل إحداهما الأخرى، إذ تشكل إحداهما ظهر الصّحيفة الأولى بينما تشكل الأخرى وجه الصّحيفة الثّانية).

(٥٤) انظر حالة المخطوطات في المكتبة الوطنية BN Arabe 5935

(٥٥) انظر على سبيل المثال

J. Robinson, "Codicological analysis of Nag Hammadi Codices V and VI and Papyrus Berolinensis 8502", *Nag Hammadi Studies* X, Leiden, 1979, p.14–5; A. Wouters, "From Papyrus Roll to Papyrus Codex, Some Technical Aspects of the Ancient Book Fabrication", *MME*, V (1990–1), p. 12.

(٥٦) ليس من المؤكد أن هناك إجماعا على تركيب لفائف الرقّ: فأحيانا يشار إلى ٢٠ ورقة ملصقة بأطراف بعضها البعض، كما هو الحال في ما ورد بعد بلينيوس، ولكن ذلك لا يشكل قاعدة.

(٥٧) على سبيل المثال مخطوط باريس BN Syriaque 27 الذي يعود إلى الفترة قبل ٧٢٠م، أما قبل ٦٤٠م فكانت الكراسات المتكونة من ٨ إلى ١٠ أوراق تتواجد إلى جانب بعضها البعض، وظلّت كذلك بعد هذا التاريخ،

راجع

W. H. P. Hatch, *An Album of Dated Syriac Manuscripts*, Boston, 1946, p.23; M. Mundell Mango, "The Production of Syriac Manuscripts, 400–700AD", *Scrittura, libri e testi nelle aree provinciali de Bisanzio*, G. Cavallo,

G. de Gregorio et M. Maniaci éd., I [Biblioteca del "Centro per il colegamento degli studi medievali e umanistici nell'Università di Perugia", 5], Spoleto, 1991, p. 163.

(٥٨) F. Déroche, "A propos d'une série de manuscrits coraniques anciens", *Les manuscrits du Moyen-Orient*, F. Déroche éd. [Varia Turcica VIII], Istanbul-Paris, 1989, p. 107–8.

(٥٩) لا زلنا غير قادرين على تحديد ما إذا كان وجود عدد من الأوراق غير المربوطة بعضها مع البعض له تأثير على سعر المخطوطات.

(٦٠) تبدأ الفترة التي تُغَطّي هذا النوع من الإنتاج من نهاية القرن ٢/٨ إلى وسط القرن ٥/ ١٠، ولكن جل النماذج المدروسة تعود إلى القرن ٣/٩.

(٦١) M. Amari, "Bibliographie primitive du Coran" (éd. par H. Dérenbourg), *Centenario della nascita di M. Amari*, I Palermo, 1910, p. 18–9;

N. Abbott, *The rise of the North Arabic script and its Qur'anic development, with a full descripton of the Qur'ān manuscripts in the Oriental Institute* [Oriental Institute publications, 50], Chicago, 1938, p. 24; A. Grohmann, "The problem of dating early Qur'āns", *Der Islam*, 33, 1958, p. 216, 222, 226 et n. 48;

و تيسران، المرجع السابق [33] ص٣٢ والشكل ١٤١أ؛ و برجشتراسر وبريتزل، المرجع السابق[33] ص٢٢٥ و اللوحة٩؛ و غروهمان، المرجع السابق [1]ص٤٢، رقم١؛ و ديروش، المرجع السابق [25 (١٩٨٣)] ص٥٩–٦٠، رقم ٢.

(٦٢) انظر ٦١.

(٦٣) انظر ٥١.

(٦٤) بالرجوع إلى نسخ القرآن الكريم الموجودة في مسجد الحسين بالقاهرة (انظر رقم ٣٣) يصعب الحكم حول ما إذا كان نفس الترتيب قد رُوعي.

(٦٥) معنى ذلك أن الرق لم يكن يثنى، عكس الحال في قطع الفوليو.

(٦٦) يعني أن الفرز يتم على كامل سمك مجموعة الأوراق على طول الهامش الداخلي وعلى مسافة قصيرة من خط الطي، راجع موزيريل، المرجع السابق[5] ص١٧٩.

(٦٧) درايبهولتز، المرجع السابق[6] ص٢٠١، رقم ٩.

(٦٨) انظر ٢٤.

(٦٩) انظر أدناه.

(٧٠) راجع رقم ٢٣، بحيث أن كل جزء يتشكل من كراستين الأولى تتكوّن دائما من ١٤ ورقة، بينما الثّانية تتضمّن ٨ إلى ١٢ ورقة.

(٧١) E. Blochet, *Les enluminures des manuscrits orientaux de la Bibliothèque Nationale*, Paris, 1926, p. 62–4; *Les arts de l'Iran, l'ancienne Perse et Bagdad* [exposition, Bibliothèque Nationale, Paris], Paris, 1938, p. 172–3, n° 109;

G. Vajda *Album de paléographie arabe*, Paris, 1958, pl. 46; *Trésors d'Orient* [exposition, Bibliothèque Nationale, Paris], Paris, 1972, p. 64, n° 172;

M. Lings et Y. H. Safadi, *The Qur'ān* [exposition, The British Library, Londres], London, 1976, p. 40, n° 48 et pl. VI; *L'islam dans les collections nationales* [exposition, Grand Palais, Paris], Paris, 1977, p. 118, n° 212 et fig;

و لينجز، المرجع السابق [31]ص٥٠٥ و اللوحات ١٠٤ و ١٠٥؛ و ديروش، المرجع السابق [28] ص٣١-٣٢ و اللوحة ١٤ب.

(٧٢) P. Orsatti, "Le manuscrit islamique: caractéristiques matérielles et typologie", *Ancient and Medieval Book Materials and Techniques*, M. Maniaci and P. Munaò, ed. (Vatican, 1993), II, 297.

(٧٣) نفس المرجع:٢٩٧-٢٩٨. تتفق ملاحظاتنا مع هذا الاتجاه (راجع المصدر المذكور في رقم ٢٥ ص ١٤) ويوجد إجماع حول هذه النقطة مع المخطوطات العبرية الإسبانية، فحسب بيت أري فإن ثماني نسخ من المخطوطات تم انجازها في مجموعات ثلاثية (مكونة من ثلاث صحف) في الفترة ما بين ١١٩٦م و ١٣٠٠م وبصفة خاصة في طليطلة. (راجع المصدر المذكور في رقم ٥، ص ٤٣).

(٧٤) Mss Arabe 386, 388, 395, 423, 5935; Smith-Lesouëf 194 et 202.

(٧٥) Vat. arab. 310 et Barb. or. 46, et les Corans Vat. arab. 210, 211, 212, 213, 215 et Borg. arab. 51; voir P. Orsatti loc. cit..

(٧٦) ديروش، المرجع السابق[٢٨] ص٣٢-٣٣، رقم ٢٩٨. تسلسل وجه الصّحائف يتم عادة بشكل و/ل + و/ل؛ بينما في الدفتر رقم (٤) يوجد و/ل + و/ل + ل/و. أما فيما يخص المجموعات المزدوجة (أي المكوّنة من صحيفتين) فإن واحدة منها غير منتظمة (الدفتر رقم ١٣)، بينما الثلاثة الأخرى منتظمة.

(٧٧) انظر ٢٨.

(٧٨) تيسران، المرجع السابق [33]ص٣٧ و اللوحة ١٥أ؛

G. Levi della Vida, *Elenco dei manoscritti arabi islamici della Biblioteca Vaticana,* [Studi e testi,67], Vatican, 1935, p. 26; P. Orsatti, "Le manuscrit islamique", 294, 298.

(٧٩) انظر ٢٤.

(٨٠) انظر أدناه..

(٨١) من المؤسف أن المخطوطات التي كُتبت على الرق في القيروان وبالأخص تلك المتعلقة بالقانون لم تُدرس دراسة فنية تسمح بجلاء بعض الخصوصيات الإقليمية. وفيما يخص استعمال الرق في المغرب العربي وتتمة لما قيل نشير إلى محمد المنوني، «تقنيات إعداد المخطوط المغربي» في

Le manuscrit et la codicologie, A.C.Binebine ed. (Rabat, 1994) 20-21.

(٨٢) يشير ريد (المرجع السابق[4] ص ٥) إشارة خاطفة إلى هذا الاستعمال. ونجد نموذجا له في

V. Scheil, *Deux traités de Philon* [Mémoires publiés par les membres de la mission archéologique française au Caire, IX/2], Paris, 1893, p. 7.

(٨٣) W. Ahlwardt, *Verzeichnis des arabischen Handschriften, der königlichen Bibliothek zu Berlin*, (Berlin, 1887-99), II, 249, no 1557.

(٨٤) كما أشرنا في الهامش رقم ٥٩، ليس لدينا من المعلومات ما يمكّننا من تقدير تكاليف صنع المخطوطات مع الأسف، ونود بصفة خاصّة معرفة أثر استعمال الورق ومبلغ أهميته بالنسبة لعنصر التكاليف.

(٨٥) أنظر [23] أعلاه، و

"Remarques sur les éditions du *Kitāb* de Sîbawayhi et leur base manuscrite", K. Versteegh & M. G. Carter ed., *Studies in the History of Arabic Grammar,* II [Studies in the history of the language sciences, 56] Amsterdam-Philadelphia , 1990, p. 185.

وفيما يخص المخطوطات العبرية يعود تاريخ أقدم شهادة حول هذا النوع من الكرّاسات إلى ١٢١٢م، ونصادف هذا النوع من العمل بصفة أساسية في شبه جزيرة إيبيريا وفي إيطاليا وفي الإمبراطورية البيزنطية (انظر بيت آري، المرجع السابق[٥] ص ٢٧-٢٩).

(٨٦)الكرّاسة رقم ١١ نهايتها غير منتظمة (ص ١٠٦ إلى ١١٥)، كما تشمل الكرّاسة رقم ١٢ ورقتين مزدوجتين من الرق في اتجاه المركز (ص ١٢١ إلى ص ١٢٤).

(٨٧) W. de Slane, *Catalogue des manuscrits arabes,* Paris, 1883–5, p. 457–8.

بعض الكتيبات أكثر قدما نوعا ما: محرم ٩٧٧/يونيو-يوليو ١٥٧٩ (الورقة رقم ١٨٣)؛ شوال ٩٧٩/فبراير-مارس ١٥٧٢ (الورقة رقم ١٢).

(٨٨) انظر ٥١.

(٨٩) انظر على سبيل المثال، MS Istanbul, TIEM, SE 362.

(٩٠) انظر على سبيل المثال، قطع باريس BN Arabe 328a (انظر رقم ٥٨) و تيسران، المرجع السابق [33]اللوحة ٤١ ب؛ وبرجشتراسر و بريتزل، المرجع السابق [33]، الشكل ٨؛ و آبوت، المرجع السابق [61] ص٢٤؛ و ديروش، المرجع السابق [25 (١٩٨٣)]ص٦١، رقم ٧.

(٩١) لا بد من الإشارة إلى ظاهرتين تناقضان الوضعية السائدة هنا: (١) تظهر نسخ المخطوطات على الرق المصبوغ (ونذكر هنا بصفة خاصة مثال القرآن الكريم المنسوخ على رق أزرق) آثارا لنظام كامل التسطير.

(٢) غالبا ما كان الصبّاغون يسمحون ببقاء التسطير التحضيري على المخطوطات التي لم يكن لها تسطير.

(٩٢) E. Whelan, "Writing the word of God: some early Qur'ān manuscripts and their milieux, Part I", *Ars Orientalis* 20, 1990, p. 115.

حسب هذا المرجع، فإن وجود التّسطير في الزخارف وأكثر من ذلك عدم الانتظام الذي لا يكاد يلاحظ في خط قاعدة الحروف، هي الحجّة بعدم وجود التّسطير إطلاقا، فقد اعتمد الناسخ فقط على تقدير العين المجرّدة، وهنا لا يبدو لنا أن ما يقال عنه تسطيرا يعني مسطرة شيء يجانب الصواب، والخط المتُسطَّر على الرق (أو الورق) ما هو إلا دليل لا يعيق حركة اليد قليلا أو كثيرا بالنسبة إلى السطر، من جهة أخرى لا تبدو لنا المقارنة بين تقنيات الملوّن وتقنيات الناسخ من القوة بمكان بحيث تمكّننا من البت في هذه المسألة.

(٩٣) (الترجمة) *Séville musulmane*, p. 133, no 21 (النص العربي) *Documents arabes*, p. 59

(٩٤) راجع، *Séville musulmane,* ص ١٦٠، الملاحظة «a» حيث يشرح دوزي مطوّلا عبارة «رق مبشور» التي تشابه عبارة «طرس مكشوط»، بما يصب في معنى *palimpseste*

(Lettre à M. Fleischer contenant des remarques critiques et explicatives sur

le texte d'al-Makkari, Leiden,1871, p. 78–81).

(٩٥) ليفي، المرجع السابق [38] ص ٢٦-٢٧

(٩٦) دار مزادات سوذبي، مبيعات يوم ٢٢/ ١٠/١٩٩٢، كمّية رقم ٥٥١.

(٩٧) G. R. Puin, *Maṣāḥif Ṣan'ā'* [exposition, Dār al-athār al-Islamiyya Kuwait] Kuwait,1985, 14 et 6.

(٩٨) يشير غروهمان إلى نموذجين: المرجع السابق [1] ص١٠٩

(٩٩) A. Mingana et A. Lewis, *Leaves from three ancient Qur'āns possibly pre'Uthmānic, with a list of their variants*, Cambridge,1914, p. v-vi.

(١٠٠) انظر على سبيل المثال:

H. Loevenstein, *Koranfragmente auf Pergament aus der Papyrussammlung der Österreichischen Nationalbibliothek* [Mitteilungen aus der Papyrussammlung der Österreichischen Nationalbibiothek (Papyrus Erzherzog Rainer), Neue Serie, XIV. F., Textbd.], Vienna, 1982, p. 24-5 (n° 1 = A Perg. 2).

إن القطعة القرآنية المذكورة أعلاه ربما تطابق مثل هذا.

(١٠١) G. Marçais et L. Poinssot, *Objets kairouanais, IXe au XIIIe siècle, reliures, verreries, cuivres et bronzes, bijoux*, fasc. 1 [Direction des antiquités et arts, notes et documents, 9], Tunis, 1948, p. 16, 65–7, etc …; F. Déroche, "Quelques reliures médiévales de provenance damscaine". *REI.* 54. 1986 [Mélanges D. Sourdel, L. Kalus éd.], p. 89.

(١٠٢) لا بد من التمييز بين هذا الاستعمال وذلك الخاص بالمتحفّظين الذين ذكرناهم سلفا.

(١٠٣)مارسي و بوانسو، المرجع السابق [101] ص١٤ و ٧٢، وديروش، المرجع السابق [101] ص٨٩.

(١٠٤) تقدّم لنا مجموعة مخطوطات المسجد الكبير بدمشق نموذجا من هذا.

(١٠٥) بكر بن إبراهيم بن المجاهد اللخمي الإشبيلي: «كتاب التيسير في صناعة التسفير» تحقيق عبد الله كنون في *Revista del Instituto de estudios islamicos en Madrid*، المجلد ٧/٨ (١٩٥٩-١٩٦٠) ص ١-٤٢ (النص العربي) و١٩٧-١٩٩ (موجز بالإسبانية)؛

A. Gacek, "Arabic bookmaking and terminology as portrayed by Bakr

al-Ishbīlī in his "Kitāb al-taysīr fī ṣinā'at al-tasfīr", *Manuscripts of the Middle East*, 5, 1990–1, p. 106–113.

(١٠٦) المرجع السابق [105] ص٢٧، وجاتشك، المرجع السابق [105] ص١٠٧.

(١٠٧) المرجع السابق [105] ص٢٧، وجاتشك، المرجع السابق [105] ص١٠٩.

(١٠٨) المرجع السابق [105] ص٢٧، وجاتشك، المرجع السابق. نستطيع أن نقارب بين هذه التقنية وبين تلك التي تستعمل بكثرة في التغليف (انظر أعلاه) والتي تتألف من لصق الرق والجلد المدبوغ.

(١٠٩) المرجع السابق [105] ص٢٧، وجاتشك، المرجع السابق [105] ص١٠٧.

(١١٠) بالنسبة للمخطوطات ذات التواريخ القديمة، نستطيع النقل عن كركيس عوّاد «أقدم المخطوطات العربية في مكتبات العالم المكتوبة منذ صدر الإسلام حتى سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م» بغداد ١٩٨٢، و أيضا عن

G. Endress ("Handschriftenkunde", *Grundriß der arabischen Philologie*, W. Fischer éd., I, Wiesbaden, 1982, p. 281) F. Déroche ("Les manuscrits arabes datés du III^{e}/IX^{e}s."*REI*, LV–LVII,1987–9, p.343–79).

(١١١) MSS Dublin, Chester Beatty Library 1417 (A. J. Arberry, *The Koran illuminated, a handlist of Korans in the Chester Beatty Library*, Dublin, 1967, n° 260; D. James, *Qur'āns and bindings from the Chester Beatty Library, a facsimile exhibition*, London, 1980, p. 26) et Istanbul, Topkapı Sarayı Müzesi, A 1.

ديروش المرجع السابق [48] ص ١٥٢–١٥٤.

(١١٢) انظر على سبيل المثال: ا. ص، عطية: «الفهارس التحليلية في مخطوطات طور سيناء العربية، المجلد ١ـ الإسكندرية،١٩٧٠؛ و

I. E. Meïmari, *Katalogos tôn neôn arabikôn cheirographôn tês Ieras Monês Agias Aikaterinês tou Orou Sina*, Athens, 1985.

(١١٣) لو أن جميع المشتغلين بالرق في مختلف المناطق في العالم الإسلامي تركوا أثرهم في جملة الأسماء العمرانية، فإن دراسة هذه الأسماء ستسمح بتدقيق التسلسل الزمني لصناعة الرقائق. وكذلك برسم خارطة لها في البلاد الاسلامية، انظر:

"Faubourg des Parcheminiers" à Cordoue: *Le calendrier de Cordoue* [n. 7], Dozy éd p. 166, n. 6.

تسافير مكتبة القيروان العتيقة

مراد الرمّاح

المعطيات العامة:

حافظت مكتبة القيروان العتيقة على مجموعة نادرة من المصاحف المكتوبة على الرّق والتسافير الجلدية التي تعود إلى فترة مبكرة من التاريخ الإسلامي. وقد كانت هذه المجموعة قبل اكتشاف مصاحف وتسافير جامع صنعاء باليمن المرجع الأساسي والفريد لدراسة أوجه من فنون الكتابة خلال العهد الإسلامي المبكّر.

وقد خص كل من مارساي وبوانسو التسافير القيروانية ببحث مستفيض[1] سمح بتوثيقها والتعرف على أهم خصائصها الزخرفية والفنية، إلا أن التركيز على دراستها مستقلة عن مصاحفها التي أخذت منها، وفي معزل عن اطارها العام حال دون التوفّق في تصنيفها والنجاح في ضبط تواريخها. كما أن الاطلاع على وثائق ونصوص لم تنشر في ذلك التاريخ كسجل قديم للمصاحف القيروانية وتحقيق بعض المخطوطات[2] المتصل بالمادة وخاصة كتاب «التيسير في صناعة التسفير» للشيخ بكر بن إبراهيم الإشبيلي[3] يسمح بالتثبت من مختلف مراحل مباشرة الجلد والتعرف على المصطلحات اللغوية والفنية الخاصة بذلك إلى جانب ما يمكن القيام به من استنتاجات حضارية تتعلق بمواد هذه الصناعة.

وقد ازدهرت صناعة الجلد بإفريقية خلال القرنين العاشر والحادي عشر ميلادي[٤] وكانت السروج القيروانية المطرزة بالفضّة والخزّ تصدّر إلى الممالك الأوروبية[٥] كما راجت صناعة الرق ويذكر المقدسي أن مصاحف ودفاتر أهل إفريقية كانت مصنوعة كلّها من الرق. وقد ساعدت الظروف المناخية على توفير الماشية ممّا جعل أهل إفريقية يعوّضون عن الكتابة على الكاغد بالكتابة على الرق، وقد أخذ الأندلسيون عن أهل إفريقية الأساليب المعتمدة فيها[٦] ونستشف من وثائق الجنيزة أن إفريقية قد أصبحت مركزا هاما لصناعة الكتابة تصدر بضاعته إلى المشرق والأندلس،[٧] كما تثبت نفس هذه الوثائق أن التجار الأفارقة كانوا يستوردون من المشرق حيث مستودع التجارة الهندية المواد الأولية اللازمة لذلك كالبقم المستعمل في دبغ الجلود باللون الأحمر[٨] وماء الإهليلج بالنسبة للأصفر.[٩] كما كانت إفريقية تستورد النوشادر المعتمد في تبييضها[١٠] وحجر البركان المتخذ للتسوية من جزيرة صقلية[١١] إلى جانب الحرير الصالح للتخزيم والحبك[١٢] ولعل بعض الجلود الجيّدة كانت تستجلب من اليمن مما يعمل بعر والطائف وينبع ومثل هذه الديار.[١٣] وقد ازدهرت تبعا لذلك صناعة المصاحف بإفريقية وسرى ذكر الوراقين بها ولعل من أشهرهم أحمد بن علي الوراق الذي باشر بمفرده إنجاز مصحف حاضنة الأمير ابن مناد باديس بن منصور الصنهاجي وقد جاء في وثيقة التحبيس: «كتب هذا المصحف وشكله ورسمه وذهبه وجلّده علي بن أحمد الوراق للحاضنة الجليلة حفظها اللّه على يدي درّة الكاتبة».[١٤] وذلك سنة ٤١٠هـ/١٠٢٠م.

ويمثل أحمد بن علي الوراق أوج المدرسة القيروانية التي أصبحت لها خصائص وتوالت فيه خطوط تميزها[١٥] وقد تبلورت هذه التجربة وبدا نضجها خلال كتاب «عمدة الكتاب وعدة ذوي الألباب» الذي ألفه صاحبه لتميم بن المعزّ الصنهاجي وهو يعتبر من أهم المصادر الإسلامية المتعلقة بفنون الكتاب.

التسافير القيروانية العتيقة:

لقد اكتشفت مجموعة التسافير القيروانية في أول القرن بمقصورة الجامع الأعظم ثم حفظت بمتحف باردو قبل تحول القسم الأوفر منها منذ سنة

١٩٨٥ إلى مركز دراسة الحضارة والفنون الإسلامية برقّادة - القيروان. وتعرض عيّنات منها حاليا بالمتحف الوطني بباردو وبمتحف رقادة وبمتحف المنستير. وتشتمل المجموعة على فئتين:

١- الفئة الأولى: وهي ذات قطع مستطيل أصبح يعرف فيما بعد بالنمط الإيطالي ويتراوح طولها بين ٦ و٢٧ سم وعرضها بين ٥، ١٠ و٣٨ سم ويكون طولها عادة قدر ثلثي عرضها ويتراوح سمكها بين ٤ و١١ سم ويشتمل هذا القسم على أقدم التجاليد القيروانية (من أواسط القرن ٣هـ/٩م إلى أواسط القرن ٥هـ/١١م) وأغلبها اللوح المتخذ من خشب التين أو الأرز أو الحور ويبدو أنها كانت تختص بالمصاحف، إلا أن إشارة بسجل قيرواني وضع لها سنة ٦٩٣هـ تفيدنا بأنها كانت تتخذ في بعض الأحيان للكتب الفقهية ومجامع الأحاديث.[١٦]

وقد كانت جلدة المخطوط تصنع على شكل صندوق يقفل من ثلاث جهات وتكون الدفة العليا غشاءه.[١٧] وكانت أوراق المخطوط تحاط وتلزم بكعب الصندوق، وقد حافظت بعض الأمثلة من مصاحف القيروان على بقايا الثقب التي كانت تتخذ للتخريم، وتتراوح سعة الصناديق في ما بين ٤٤ و١٤٠ ورقة وكانت الكراريس تضم لبعضها بخيوط من الحرير الملون[١٨] لتكون سفرا، ويقفل الصندوق بإطلاق الوجه المتحرك على أوراق المخطوط، ويكون القفل كروي الشكل معمول من الحديد أو البرنز ونادرا من الفضّة[١٩] ويشد إلى القسم السفلي بخيط من الجلد ويثبت في اللوح بمسمار ويبطن من الداخل بقطعتين أو ثلاث من الرّق[٢٠] تمد على أطراف الجلد وتغطّي الرقعة الخشبية وربما أضيفت فوقها طبقة من الجلد أو من الحرير.

وقد يتخذ وجه التبطين لتسجيل التحبيس والقائم به وتاريخه أو لعدد الأجزاء المسفرة. ويلاحظ أن أغلب الجلود من جلد الماعز وقد كان الاهتمام فيها منصبا على زخرفة الأسطح الخارجية، فبعد أن تتم عملية مد الجلد مباشرة يقوم المجلد برسم خطوط زخرفية بواسطة عظم محدب الطرف والجلد طري لم يجف بعد ثم يتركها قليلا ليمر عليها فيما بعد بقطعة من الحرير المحمي وكان تنفيذ الزخارف يتم بواسطة حدائد الكي أو المناقش، ويبدو أن هذه الحدائد المحمية كانت تطفأ بالشمع وهو ما يؤكد وجود بقايا منها على التسافير القيروانية[٢١] وتوجد ضمن هذه الفئة مجموعة متميزة تحتوي على زخارف أشبه

بالعروق، مستقيمة ومنحنية ودائرة، وهي أشبه بالنقش البارز، إذ ترتفع عن السطح بنسبة ملحوظة، وهذه طريقة صنعها:

يلصق الصانع بواسطة الغراء خيوطا على دفة الكتاب الخشبية، وتتخذ هذه الخيوط أوضاعا زخرفية معينة، وبعد تجفيفها يمدّ عليها الجلد، وقبل جفاف الجلد يوضع الكتاب تحت المعصرة لفترة ما ويفصل بين السطح المزخرف وجزء المعصرة الضاغط بقطعة من قماش الصوف، تسمح للزخارف أن تبرز وتأخذ شكلها في الجلد. ثم يقوم المجلد بمتابعة الزخارف البارزة بواسطة قطعة من العاج أو العظم المحدب حتى يتم تحديد الزخرفة تحديدا تاما، كما يقوم بتسطيح الأجزاء المحصورة بين الزخارف. وقد لوحظ أنه توضع أحيانا أقراص جلدية مستديرة بين الدفة الخشبية والجلد لتعطي زخارف مستديرة وشموسا (لوحة ١).

وتتمثل زخارف هذه الفئة من التسافير في تحانيش وتشابيك ودوائر. وتتكون الحواشي غالبا من شريط مضفور أو دويرات أو معينات أو مربعات على القاعدات، وتوجد عدة عناصر زخرفية لطيفة على الأرضية.[٢٢]

٢ - الفئة الثانية: وهي أقل عددا وتعود إلى فترات تاريخية متأخرة نسبيا جميعها على النمط المصطلح عليه بالفرنسي، ويتراوح عرضها بين ١٢سم و٢٢٫٤سم وطولها بين ١٥٫٤سم و٢١سم، كما أنها خالية من القفل المعدني، ذي المسمار والخيط، وهذه الجلود مصنوعة من قطعة واحدة من الجلد تشمل السطحية والكعب واللسان، ولم تعد تقوم كالسابق على دفتين خشبيتين، ولكن تكسي وتغشي الورق الملبد المقوى، كما أصبحت البطانة الداخلية من الجلد، أو من القماش باطراد، وزخارفها أقل كثافة وأحسن صنعة.

تاريخ التسافير القيروانية:

وقد قام كل من مارساي وبوانسو بتأريخ المجموعة وتقسيمها إلى خمسة نماذج تمسح كل منها فترة تاريخية، وذلك بالاعتماد على مجموعة من المعطيات الفنية والإشارات التاريخية التي سمحت بالقيام بالاستنتاجات التالية:

١ - مجموعة أولى تتكون من أربعة وخمسين مجلدا وتعود إلى القرن التاسع الميلادي وهي ذات قطع مستطيل على الشكل الذي أصبح يعرف فيما بعد بالشكل الإيطالي، ويحلي محور دفة الكتاب عادة تشبيك مكون من سلاسل

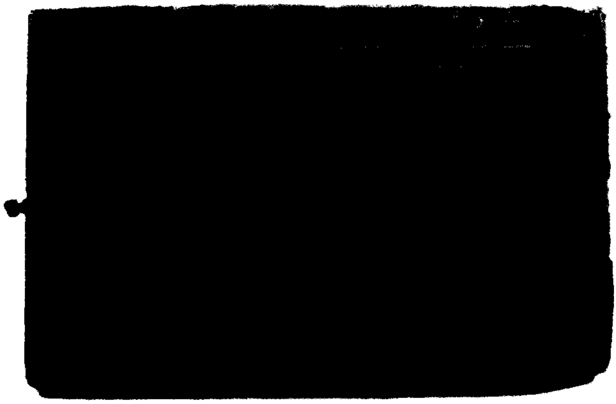


لوحة (١)



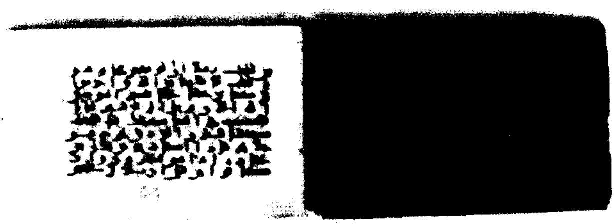
لوحة (٢)

أحد تسافير مصحف فضل مشدود لأوراقه



لوحة (٣)

تسفير مصحف خديجة بنت الأغلب بن عبد الله (أواسط القرن ٣هـ/٩م)



لوحة (٤)

التسفير من الجلد الأحمر المشدود إلى أجزاء من مصحفه الأصلي
(أوائل القرن ٥ هـ/ ١١م)

أو دوائر وفي بعض الحالات من ضفائر ذات أربع أو ست أو ثماني جدائل أو من مربعات متوازية مع الحاشية التي تكون مشتملة على أطر يحتوي بعضها على معينات أو مربعات وأغلبها على ضفائر أو تشابيك أو دوائر أو سطور تكون من وريدات وتحلى حافة الكتاب عادة خطوط مجمعة تكون متعامدة مع الدفة ويتمثل العنصر الأساسي في سرفات chenilles مكونة من حزات يتم تنفيذها بواسط حديدة الكي المشتملة على شفرتين متتاليتين.

وقد أرخ المؤلفان هذه المجموعة من القرن التاسع بالاعتماد على تجليد محفوظ بدار الكتب المصرية بالقاهرة يشتمل على أغلب الزخارف والأشكال المذكورة وهو محبس على جامع دمشق في سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣-٨٨٤م.[٢٣]

٢ - مجموعة ثانية يبلغ عددها ثمانية عشر تجليدا وهي ذات قطع على الشكل الإيطالي ويستجيب لنفس روح المجموعة الأولى، إلا أن حواشيها متعددة الأطر وزخارفها أكثر تنوعا بحيث تتعدد الدوائر المحفورة والمجوفة والبارزة ويتراجع استعمال المعينات والوريدات. وتتمثل الأطر عادة في أسطر من الدوائر المنقطة أو مربعات على القاعدة أو معينات أو ضفائر أو عقود أو أشكال كمثرية. وقد أرخت هذه المجموعة من القرن العاشر اعتمادا على تحبيس يشتمل عليه إحداهما ويعود إلى جمادى سنة ٣٧٨هـ/سبتمبر-أكتوبر ٩٨٨م.[٢٤]

٣ - مجموعة ثالثة: ويبلغ عددها ٤٥ تجليدا وأغلبها على شكل المجموعات الأخرى إلا البعض منها فهو على النمط الفرنسي وهي تتميز بتنوع زخارفها وثرائها وكثافتها وبكونها عملا فنيا أكثر إتقانا، وتحلى الأرضيات زخارف متعددة تتمثل في أشكال كمثرية أو معينات متداخلة أو عقود متلاحقة، وتظهر لأول مرة صحون ودوائر تحمل بعضها كتابات، وتتميز الحواشي بأطر متعددة الأشكال وهي نفس العناصر التي تتكرر في ملء الأرضية. وتختص السرفات بصغر حجمها وسلاسة وتناسق تشابيكها ورقة توزيعها.

وتؤرخ هذه المجموعة من القرن الحادي عشر وذلك بالاعتماد على خط مصحف أحد التجاليد الراجعة للمجموعة وعلى وجود زخارف تتمثل في وريقات ذات ثلاثة فصوص، حيث أن هذا العنصر يتكرر في شواهد القبور القيروانية التي تعود إلى أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر. كما أن أحد التسافير قد بطن بورقة من الرق مؤرخة من سنة ٣٢٧هـ/٩٣٨-٩٣٩م وهو حد أقصى لتاريخ إعادة استعماله.[٢٥]

٤ – مجموعة رابعة: وهي معاصرة للمجموعة الثالثة ويبلغ عدد نماذجها تسعة تسافير وهي تتميز بزخارفها المثبتة بالخيوط وهي أقل كثافة وتنوع مما نراه في الأمثلة السابقة، وتقتصر على أطر ووريقات ذات ثلاثة أو أربعة فصوص.[٢٦]

٥ – مجموعة خامسة: وهي أقلها عددا وتتركز فيها الزخارف على الجاهة والأركان وتمتاز بدقّة صنعتها وهي تؤرخ من القرنين الثاني عشر والثالث عشر حيث أنها تشبه إلى حد كبير التسافير الموحدية المحفوظة بمدرسة ابن يوسف بمرّاكش، وقد أرخ أحدها في شهر رجب ٦٥٤هـ/أغسطس ١٢٥٦.[٢٧]

وإن تميزت دراسة بوانسو ومارساي بإعطائنا جردا كاملا للتسافير القيروانية ومواصفاتها وأشكالها وأحجامها. وهي من هذه الناحية وثيقة ذات أهمية فائقة، فإن محاولة تأريخها للمجموعات لم ترتكز على مقاييس موضوعية واضحة.[٢٨] خاصة وإنه لم يتسن للباحثين المذكورين الاطلاع على المصاحف التي أخذت منها التسافير وقد ظل بعضها محافظا على تحابيس مؤرخة قد تفيدنا في زيادة التحري في الأمر. ثم إن توزيع المجموعات قد أتى مرتبكا ومتداخلا ولا يستجيب في حد ذاته إلى المقاييس التي ضبطها الباحثان نفسهما، من ذلك فإنه ليس هنالك ما يبرر وجود بعض التسافير في المجموعة الثالثة من دون الأولى، أو الأولى من دون الثانية[٢٩] وهكذا.

تاريخ الفئة الأولى

أ – المجموعات الثلاث الأولى: تثبت دراسة المصاحف القيروانية المكتوبة على الرق أن أقدم مثال مؤرخ فيها هو المصحف الذي حبسته فضل مولاة أيوب على الجامع الأعظم بالقيروان سنة ٢٩٥هـ/١٠٠٨م (اللوحة ٢)، وربما قدمنا ذلك بنصف قرن بالاعتماد على مصحف حبسته على جامع القيروان خديجة بنت الأغلب بن عبد الله بن الأغلب التي عاشت فيما يبدو إلى أواسط القرن الثالث الهجري (اللوحة ٣).[٣٠] وقد تطورت ظاهرة تحبيس المصاحف بقدر تبحر إفريقية في العمران وازدهار البلاد وثراء أهلها ونلاحظ من خلال المجموعة القيروانية أن الظاهرة قد استفحلت ونمت خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري والنصف الأول من القرن الخامس الهجري، وتعود إلى

هذه الفترة أنفس وأبهى المصاحف القيروانية التي وصلت إلينا كمصحف الحاضنة ومصحف المعز بن باديس وأم العلو أخت المعز وأم ملال عمته... والمصحف المكتوب بالذهب الخالص... والمصحف الذي حبسه أبو بكر محمد الكاتب على جامع مدينة عزّ الإسلام (أي صبرة المنصورية) سنة ٤٤٦هـ، وهو آخر المصاحف المحبسة ويوافق هذا التاريخ الزحفة الهلالية وخلاء القيروان ونكاد نجزم بالاعتماد على الإطار التاريخي العام للفترة أن صناعة التجليد والكتابة قد تعطلت خلال بقية القرن الخامس وكامل القرن السادس بالقيروان، حيث أن المدينة قد هجرها أهلها واندرس عمرانها وكسدت أسواقها وليس هنالك ما يبرر حتى الحاجة إلى استجلاب مصاحف من الآفاق بل إن بعض المساجد قد خلت واستلزم الأمر نقل المصاحف التي كانت موجودة فيها وحفظها بالجامع الأعظم بالقيروان، فقد جاء في مقدمة مصحف أم العلو أخت المعز الذي حبسته على مسجد ابن عبد المطلب بباب سلم ما يلي: «نقله قاضي السنة عمر بن أحمد بن علي إلى المسجد الجامع الأعظم بمدينة القيروان للخوف عليه وخلاء الموضع».(٣١)

ومن ثمة فإنه يمكن القطع أن المصاحف القيروانية وتسافيرها من الفئة الأولى تعود جلها، إن لم نقل جميعها، إلى الفترة الواقعة بين النصف الثاني من القرن الثالث ونهاية النصف الاول من القرن الخامس الهجري أي من النصف الثاني من القرن التاسع إلى نهاية النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي وفي ذلك اقتصار للمدة وتحديد أولي يتواصل على امتداد قرنين من الزمن فقط.

ومن حسن الطالع أن حافظت مجموعة من هذه المصاحف على تسافيرها وهو ما سيعيننا على إعادة تصنيفها. ومن ذلك فإن مصحف فضل (٢٩٥هـ/١٠٠٨م) قد أبقى أحد أجزائه على تسفيره مشدودا إليه (لوحة ٢) وتتمثل زخارفه في إطار في شكل ضفيرة تحيط بصفتين من الضفائر تحتل محور الكتاب ويعرف هذا الزخرف في مصطلح المسفرين المسلمين بالتحنيش، وقد أرخ صاحبا كتاب *Objets Kairouanais* أمثلة عديدة مشابهة له من القرن التاسع فقط.(٣٢)

كما أن مصحف خديجة (أواسط القرن التاسع) قد حافظ على تسفيره (لوحة ٣) ويتمثل إطاره في ضفيرة تتكون من خصلتين تحيط بمجموعة من

المربعات على القواعد وهي تتواتر بين مسطحة ومحزوزة ويتولد الزخرف المذكور عن سطور مائلة ومتقاطعة. وقد أرخ بوانسو ومارساي مثالا مطابقا له من القرن العاشر.[٣٢]

كما تم التعرف على تجليد من مصحف مكتوب بخط مولد عن الريحاني الذي كتب به مصحف الحاضنة وهو يتميّز بكتابته الحادة والدقيقة، إلا أن جميع حروفه تكون بنفس السمك بقطع النظر عن زاوية القلم عند رسمه لهيئة الحرف، وقد انتشرت هذه الكتابة بإفريقية بداية من القرن ٥هـ/١١م (لوحة ٤) ونحن نملك مصحفا مؤرخا من سنة ٤٢٣هـ كتب بنفس الخط وهو يطابق المصحف المشار إليه في طريقة تنقيط علامات الإعراب بالأحمر وفي تذهيب بدايات السور وتزويقها، مما يدعم التاريخ الذي اقترحناه. ويتمثل تجليده في دفة من الجلد الأحمر تشتمل حاشيتها على إطار في شكل ضفيرة تحلّي محورها زخارف ساذجة مرسومة رسما بسيطا بعظم محدب يتمثّل في أشكال مختلفة تعتمد العنصر الدائري. وتبدو طريقة زخرفته بدائية بالنسبة للتجاليد المتقدمة رغم أنها أحدث منها.

وتجعلنا مختلف المعطيات التي ذكرناها نتوقف في اعتماد التصنيف الذي أورده مارساي بالنسبة للثلاث مجموعات الأولى من التسافير القيروانية، وإن كان الاطلاع عليها عن قرب مرتبطة بمصاحفنا لا تسمح لنا بتقديم تصنيف جديد نظرا لأن التسافير المؤرخة لا تمثل إلا نسبة قليلة من المجموع، وهذه النسبة تدعونا بدورها إلى الاحتراز، نظرا لعدم بروز تطور واضح فيها يعتمد عناصر زخرفية تتغير بتغير الفترة التاريخية، بل إننا نلاحظ تداخلا وتقديما وتأخيرا فيها. ومن ثمة فإنه لا يمكن التأكد بأن هذا العنصر الزخرفي أو ذاك قد انتهى اعتماده في عهد ما. ومن ذلك أنه إن ثبت اعتماد الضفائر الدائرية منذ /أواسط القرن التاسع فإننا لا نستطيع الجزم بعدم تواصل استعمالها من طرف بعض المسفرين وصناع التجاليد في الحقب التالية. وبالاعتماد على ذلك فإنه يمكن التسليم بأنه منذ أواسط القرن ٣هـ/٩م تبلورت عناصر زخرفية في التسافير القيروانية تعتمد خاصة الأشكال الهندسية والضفائر والتشابيك والسرفات المحزوزة، وبقيت سائدة إلى أواسط القرن ٥هـ/١١م، على أن ذلك لا ينفي حصول تطور في الأنماط دون العناصر بداية من النصف الثاني من القرن ٤هـ/١٠م نتيجة التمرس والنضج الفني بعد أجيال من الممارسة والتطبيق. ونضرب مثلا على ذلك التسافير التي تحمل ضفائر كثيفة ومحززة

حزا لطيفا وتتخللها دويرات منتظمة وهي تنم عن تبحر في الصنعة وتراسب في المخزون الفني.

ب – المجموعة الرابعة: إن عدد دفات المجموعة الرابعة المزخرفة بالخيوط قليلة لا تسمح بالقيام باستنتاجات ثابتة، إلا أن مكتبة القيروان حافظت على مثالين يتسنى تاريخهما الأول من مصحف يحمل العدد الرتبي ٦٨ وتؤرخ كتابته الكوفية وزخارفه من النصف الثاني للقرن ٤هـ/١٠م، حيث أنه يعتبر متطورا بالنسبة لمصحف فضل السابق الذكر من حيث زخارفه وعلامات وقفه ومنمنماته، إلا أنه يقاربه في خطه وعلامات إعرابه ويعتبر تجليد هذا المصحف من أجمل الأمثلة التي تم العثور عليها بمجموعة القيروان حيث أنه من الجلد الأسود الذي تتوسط محوره زهرة متعددة الفصوص يحيط بها مستدير تنبثق منه أربعة زهيرات تشتمل كل منها على ثلاث وريقات.[٣٤] كما تم العثور على تجليد آخر مثبت بالخيوط تتمثل زخرفته في إطار بسيط تتوسطه دائرة تشتمل على زهرة. وهذا المصحف مكتوب بخط مستمد من الريحاني يؤرخ من بداية القرن ٥هـ/١١م،[٣٥] ونلاحظ أن المثال الأول رغم أنه أقدم من المثال الثاني إلا أنه أثرى منه زخرفة، وأن المعطيات المجمعة إضافة إلى عدم وجود أمثلة من هذه التسافير سابقة إلى أواسط القرن ٤هـ/١٠م رغم تعدد التجاليد المؤرخة من قبل ذلك، تجعلنا نذهب إلى التخمين بأن هذه المجموعة تؤرخ من أواسط القرن ٤هـ/١٠م إلى أواسط القرن ٥هـ/١١م كحد أقصى، ويدعم ذلك أن هذا النمط من التسافير قد اختصت به مدينة القيروان وهو ابتكار جديد لا يمكن أن يحصل إلا بعد أن يتمرس المسفرون بالأنماط القديمة حقبة من الزمن.

تاريخ الفئة الثانية:

لقد فصلت هذه المجموعة عن مصاحفها، ولم تحافظ على تحابيسها التي تسمح بالتدقيق في تاريخها ولا شك أن جميعها متأثر بالفن المغربي[٣٦] وهي مباينة للمدرسة القيروانية التي فقدت صناعها وتلاشت مقوماتها. إلا أنه بالاعتماد على الإطار التاريخي للمدينة فإنه يعسر تأريخ المجموعة من قبل أواسط القرن ٧هـ/١٣م، ويوافق ذلك إعادة تعمير القيروان واهتمام الخلفاء الحفصيين بترميم معالمها، حيث قام الخليفة المستنصر (٦٤٧-٦٧٥هـ/١٢٤٩ – ١٢٧٧م) بتجديد صحن الجامع وسقوفه، وتولى أبو حفص تدارك جدرانه

وتجميل مداخله. ولم تحفظ لنا مجموعة المصاحف المتبقية إلا مؤشرين لتدعيم رأينا: أولهما أن تبطين أحد المصاحف يحمل وثيقة من الورق مؤرخة من سنة تسع عشرة وستمائة، مما يسمح بتأريخ المصحف من أواسط القرن ٧هـ/١٣م، وثانيها أن أحد المصاحف المكتوبة على الورق قد حبسه أبو محمد الحسن بن محمد الحفصي (٨٩٩-٩٣٢هـ/١٤٩٣-١٥٢٦م). ومهما يكن من أمر فإن حصر تأريخ مجموعة التسافير من الفئة الثانية فيما بين أواسط القرن ٧هـ/١٣م والقرن ١٠هـ/١٥م لا يبدو اعتباطيا. وتجدر الملاحظة أننا لا نملك دلائل على أن هذه التسافير قد صنعت بالقيروان والأرجح أنها وردت من تونس أو من مراكش أو غيرها من مراكز التسفير التي ازدهرت في تلك الحقبة الزمنية.

إن مجموعة التسافير القيروانية تعتبر مرآة عاكسة لتطور المدينة يرتسم من خلالها خط بياني لمختلف المراحل التاريخية التي مرت بها، وهي تؤكد أن القيروان قد عرفت مدرسة في فن التسفير تضاف إلى المدارس الأخرى التي ازدهرت فيها في مجالات الطب والفقه والعمارة والأدب والشعر. وهي بزخارفها الهندسية النباتية تمثل تواصلا للفن التجريدي الذي ميز الفكر المغربي في العهد الإسلامي المبكر.

الحواشي

(١) G. Marçais & L.Poinssot, *Objets Kairouanais: IXe au XIIIes Reliures, Verreries, Cuivres et Bronses, Bijoux - Notes et Documents XI- Fasc. I* (Tunis, 1948), 364p + LIV Planches.

(٢) إبراهيم شبوح سجل قديم من مكتبة القيروان العتيقة، مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة مايو ١٩٥٦.

(٣) بكر بن إبراهيم الإشبيلي «كتاب التيسير في صناعة التسفير» تحقيق وتقديم عبد الله كنون، لقد تفضل الأستاذ إبراهيم شبوح مشكورا بالإشارة به علي وتقديمي نسخة منه. يراجع كذلك «عمدة الكتاب وعدة ذوي الألباب» صنف لتميم بن المعز بن باديس تحقيق د. عبد الستار الحلوجي وعلي عبد المحسن زكي، مجلة معهد المخطوطات ١/١٧. القاهرة ١٩٧١، «صناعة تسفير الكتب وحل الذهب» تأليف أبي العباس أحمد بن محمد السفياني نشر: P. Ricard باريس ١٩٢٥ وأعيد نشره مترجما إلى الإنجليزية في: *Transactions of the American philosophical society*, New series, vol. 52, Philadelphia, 1962.

(٤) حول شهرة جلود القيروان انظر «دائرة المعارف الإسلامية» ١/٦٨٧.

(٥) حسن حسني عبد الوهاب «بساط العقيق» ص ١٩ - ٢٠، مجلة الأندلس ١٢ - ١٩٤٧ ص ٢٩٣.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) S. D. Goitein, *A Mediterranean Society*, 1/113. ويذكر أحد كبار القضاة اليهود بالمهدية في إحدى رسائله الموجهة إلى الفسطاط في حدود سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م أنه كلف أحد أصدقائه بسوسة باشتراء الرق لنسخ أحد كتب الربي نسيم، ولما تم له ذلك حاول إرسال المخطوط مع بعض التجار الشاميين، إلا أنهم رفضوا ذلك لعدم توفّر المكان الكافي نظرا لكبر حجم المصنف الذي كان في ستة عشر مجلدا. انظر:
S. D. Goitein:"Letters of Medieval Jewish Traders" pp. 164-165.

(٨) وذلك اعتمادا على وثائق الجنيزة ففي رسالة من المهدية مؤرخة سنة ١٠٤٠م يشير صاحبها إلى بعض المواد المستجلبة من التجارة الهندية كالبخور وخشب البقم، انظر: المرجع السابق، ص ١٢٨، وكذلك مواد الكتابة والصباغة كالأنزروت واللك... المصدر نفسه ص ٩٥-١٠١. وقد أورد الإشبيلي في «كتاب التيسير» ص ٢٨-٢٩، طريقة طبخ البقم، ويذكر صاحب «عمدة الكتاب» ص ٢٠، التراكيب والنسب من البقم وغيره من المواد المتخذة للصبغ باللون الأحمر. ويذكر صفة الصبغ به «أن تجعله في غضارة أو إناء قد أنف البقم وتشربه وخذ مسواك شعر فانزل رأسه في البقم ومر به في سائر الجلد تفعل به ذلك مرتين أو ثلاث مرات ثم تعصره ثم تبسطه... ثم تأخذ صوفة فتنزلها في الشب، ويجب أن يبل قبل أن يصبغ بساعة..».

(٩) وحول الصبغ بالأصفر ينظر «عمدة الكتاب» ص ٢١ «إن أردت أن تصبغه أصفر وهو لونان فمنه النارنجي ومنه أصفر، فأما النارنجي فإنك تخلط العكر مع الزعفران وتصبغ به الجلد... فإن أردت أن تصبغ بعكر وحده فهو يجيء مخالفا لهذا اللون، فإن أردته كان بزعفران وحده فهو أصفر وتسقى هذه الألوان كلها بماء الإهليلج الأصفر... وتمر بمسواك الشعر عليه».

(١٠) المقدسي، «أحسن التقاسيم» ص ٢٣٩-٢٤٠. ويبدو أن إفريقية قد عوضت النوشادر الصقلي في العهد الفاطمي بما أصبحت تستجلبه من هذه المادة من المشرق:
S. D. Goitein: *A Mediterranean Society*, I/226-229.

(١١) «التيسير» ص ١٢، حاشية ٣.

(١٢) المقدسي، «أحسن التقاسيم» ص ١٧، كما أن الحرير كان يستجلب من قابس.

(١٣) وذلك اعتمادا على إشارة وردت في كتاب «عمدة الكتاب وعدة ذوي الألباب».

(١٤) *Objets Kairouanais* I, p. 61 fig. 16.

(١٥) انظر: ابن خلدون، «المقدمة»، دار العلم، بيروت ١٩٨٧، ص ٤٢٠-٤٢١، حيث يشير إلى الخط القيرواني وشيوع كتابته بإفريقية إلى مجيء الأندلسيين.

(١٦) مكتبة القيروان العتيقة، سجل قديم رتبي ٢٨٩، قد وضع سنة ٦٩٣هـ لوصف المصاحف والكتب التي بقيت بمكتبة جامع القيروان بعد هجرة بني سليم وهلال إليها واعتمد واضعوه فهارس أقدم منه ترجع إلى أوائل القرن الخامس للهجرة.

(١٧) ويستفاد من السجل القيرواني المذكور ورقة ١ قفا أن بعضها كان يحفظ في بيت عود لطيف مبطن بالحرير المدمج المغشى بالجلد الأكحل، ويذكر صاحب «كتاب التيسير» في باب العمل في أقربة المصاحف، ص ٣٥، أن المصحف «إن تناهى في التجزئة إلى أربعة أقسام فلا يكون غشاؤه إلا مبنيا أو تابوتا من الخشب» وقد حافظ متحف الفنون الإسلامية على بقايا الصندوق الخشبي الذي كان يحفظ فيه مصحف الحاضنة وهو في جرم جافي.

(١٨) حول تبيّن ذلك انظر: «كتاب التيسير»، ص ٢٠، ويسمى هذا النوع «الشطرنجي».

(١٩) يشير السجل القيرواني إلى وجود مصحف في أجزاء مغشاة بالجلد الأحمر المنقوش بالضرس قفلها ذهب، ورقة ١ قفا.

(٢٠) «كتاب التيسير»، ص ٢٢-٢٣.

(٢١) ويدعم ذلك إشارة إلى الحدائد المحاة بالشمع وردت في «كتاب التيسير»، ص ٣٠.

(٢٢) انظر: *Objets Kairouanais*, Fig 13, 22.

(٢٣) المصدر نفسه ص ٤٤ - ٤٩.

(٢٤) المصدر نفسه ص ٤٩ - ٥٢.

(٢٥) المصدر نفسه ص ٥٢ - ٥٦.

(٢٦) المصدر نفسه ص ٥٦ - ٥٨.

(٢٧) المصدر نفسه ص ٥٨.

(٢٨) إن التسفير الدمشقي المعتمد في تاريخ المجموعة الأولى وإن وافق بعض نماذج منها فإنه يؤرخ من سنة ٢٧٠هـ/٢٨٤م أي أواخر القرن التاسع وهو ما يدعو إلى مراجعة نسبة المجموعة إلى كامل القرن المذكور ولا يستبعد إذن أن تستعمل أمثلة مشابهة في القرن ٤هـ/١٠م لتقارب المدة، وهو ما سنؤكده فيما سيأتي ذكره. كما أن اعتماد استعمال الوريقات ذات الثلاثة فصوص في زخرفة الجلود كمؤشر لتاريخ المجموعتين الثانية والثالثة من القرنين ٤ و٥هـ/١٠ و١١م لا يمكن الاطمئنان إليه نظرا إلى أن هذا العنصر متواجد في الرصيد الزخرفي الإفريقي منذ أوائل القرن ٣هـ/٩م إلى الزحفة الهلالية على الأقل، وأن تأخر استعماله في شواهد القبور الإفريقية لا يعني عدم اعتماده في المواد الأخرى حيث أننا نجد أمثلة منه في منبر القيروان منذ أواسط

القرن ٣هـ/٩م وفي الزخارف الجصية التي كشفت عنها حفريات رقادة وهي مؤرخة من النصف الثاني من القرن ٣هـ/٩م. وقد قدم صاحبا كتاب *Objets Kairouanais* من أسباب تاريخ المجموعة الثالثة من القرن ١١م حجتين إضافيتين: ١: أن المثال عدد ٧٦ قد أمكن التعرف على المصحف المنسوب إليه وهو يحمل العدد الرتبي ١٧٦ ويؤرخ خطه من بداية القرن ١١م، وقد توليت مراجعة العدد المذكور وهو محفوظ حاليا بمركز دراسة الحضارة والفنون الإسلامية برقادة ويشتمل على مصاحف متعددة الأقلام تؤرخ جميعها من أواسط القرن ٣هـ/٩م إلى أواسط القرن ٤هـ/١٠م على أقصى تقدير. ٢: وجود تبطين ضمن التسفير عدد ١٠٦د يحمل وثيقة مؤرخة من سنة ٣٢٧هـ/٩٣٨-٩٣٩م وقد اعتمدا هذه الحجة للتأكيد على أن هذا التجليد ومن ثمة المجموعة التي ينسب إليها مؤرخة من القرن ١١م، وأن أثبتت هذه الوثيقة أن هذا التسفير يعود إلى ما بعد سنة ٣٢٧هـ، فليس هنالك ما يؤكد أنه أنجز بعد ذلك بأكثر من ستين سنة وينفي القيام به بعيد سنة ٣٢٧هـ وهو الأقرب إلى المعقول. بل أن التسفير عدد ١٠٥د (اللوحة ٧) *Objets Kairouanais I*، ٢٠٨-٢١٢، الذي لا نشك في أنه معاصر للتسفير عدد ١٠٦ لاشتمالها على نفس الأشكال والزخارف ولاعتمادهما نفس الجلد من حيث اللون والجودة قد حافظ على تحبيسه الذي جاء فيه: «هذه الربعة حبس على مسجد التوفيق باب سلم حبسها عبد الله بن يوسف الرقي (أو الدقي) طلبا ثواب الله الكريم وابتغاء مرضاته». ومن حسن الصدف أن وقع التعرف على المصحف الذي ينسب إليه (اللوحة ٩) وتؤرخ كتابته الكوفية من القرن العاشر وليس هنالك ما يؤكد تجاوزها لهذا التاريخ.

(٢٩) من ذلك فإن الرقمين ٣٨ب و٦٣ الواردين في كتاب *Objets Kairouanais* متشابهان في حين يوجدان في مجموعتين مختلفتين وكذلك الرقم ١٣، فإنه ليس هنالك ما يبرر وجوده في المجموعة الأولى، في حين أن عدد ٦٩ الذي يشبهه تمام الشبه يوجد في المجموعة الثانية وكذلك الأمر بالنسبة للأعداد ٨٠ و٨١ و٨٢ و٨٣ و٨٨ من المجموعة الثالثة فإنها تكون أكثر استجابة للمقاييس المتخذة لو وضعت في المجموعة الأولى، بل إننا نملك بالنسبة للرقم ٨٨ دليلا واضحا عن ذلك، فهذا التسفير (انظر *Objets Kairouanais* ١٧٩/١) يحمل تجديدا لتحبيسه على يدي القاضي أبي عيسى أحمد بن الشيخ القاضي الإمام أبي البركات محمد بن هاشم وقد أمكن التعرف على المصحف الموافق له في مكتبة القيروان العتيقة وهو يحمل أعداد رتبية مختلفة وقد حافظ بدوره على تجديد التحبيس نفسه وهو مؤرخ من سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م وإذا اعتبرنا أن الحاجة لتجديد التحابيس تأخذ مدة زمنية هامة كما نتبين ذلك من خلال مجموعة مصاحف القيروان، وبالاعتماد على خط المصحف الذي يؤرخ فيما بين أواسط القرن الثالث الهجري وأواسط القرن الرابع الهجري فإنه تجدر مراجعة تصنيف تسفيره في المجموعة التي نسب إليها.

(٣٠) هي خديجة بنت الأغلب بن عبد الله أخو إبراهيم مؤسس الدولة الأغلبية ووالدها الأغلب ويعرف بغلبون كان وزير زيادة الله الأول (٢٠١-٢٢٣هـ/٨١٧-٨٣٨م) وقد انهزم أمام منصور الطنبذي سنة ٢٠٩هـ/٨٢٤م وانسحب من الحياة السياسية على أثر ذلك، كما أن أخاها محمد بن الأغلب لقي حتفه وهو شاب في معركة سبيبة سنة ٢١٠هـ/٨٢٥م، واعتمادا على مختلف المعطيات يمكن التخمين بأن خديجة قد عاشت إلى أواسط

القرن الثالث الهجري، وهنالك رباط يعرف ببرج خديجة بجهة الشابة (الساحل التونسي) مؤرخ من تلك الفترة لعله من مآثرها. ولا يستبعد أن يكون لنكبتها في أبيها وأخيها أبلغ الأثر على نمو شخصيتها (انظر: محمد الطالبي «الإمارة الأغلبية» ترجمة المنجي الصيادي، ص ١٨٢، ٢٠١، ٢٠٩).

(٣١) ونلاحظ أن عددا من المصاحف القيروانية قد استقدمت من مساجد أخرى وحفظت بالجامع الأعظم بالقيروان، وذلك لنفس الأسباب المذكورة، وقد ترد الإشارة إلى المساجد التي كانت محبسة عليها مكتوبة على رقوق الأجزاء المتبقية منها من ذلك تحبيس على مسجد الساحلي بباب سلم مكتبة القيروان العتيقة (رتبي ٩٣) والمسجد المعلق الكبير بباب سلم ومسجد ابن غانم، ومسجد التوفيق بباب سلم.

(٣٢) *Objets Kairouanais* اللوحات: ٢ و٣ و٥ و٦ و٧ و٩ و١٠ و١٦ ونلاحظ أن التجليد عدد ١٦ ص ٨٤ (اللوحة عدد ١) هو من مصحف فضل إلا أنه لم يكن بإمكان المؤلفين التعرف عليه.

(٣٣) المصدر نفسه ٦٩/١ لوحة ٢٢.

(٣٤) "30 ans au Service du patrimoine" I.N.A.A. Tunis, 1987, p. 224

(٣٥) انظر ما تقدم ذكره حول المصحف المشابه ص ٢٦.

(٣٦) *Objets Kairouanais* I/58. P. Ricard, "Reliures marocaines du XIIIes.", *Hesperis*, pp. 105-127.

الجزء الثاني: الاعتبارات البشرية في دراسة المخطوط

طريقة التأليف عند القدماء من خلال مسودة المقريزي لكتاب الخطط

أيمن فؤاد سيد

عرف فن كتابة الخطط (الطبوغرافيا) – وهو طراز من الجغرافيا التاريخية الإقليمية – في كثير من أقطار العالم الاسلامي حيث اشتملت مقدمات الكتب التي أرّخت للمدن الإسلامية مثل «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي و«تاريخ دمشق» للحافظ ابن عساكر و«الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة» لابن شدّاد على أوصاف طبوغرافية لهذه المدن. ومع ذلك فنستطيع القول إن هذا الفن هو واحد من الفنون التي اختصت بها مصر الإسلامية ونما وتطور بها على مدى تاريخها الطويل، وكان له فيها تاريخ مجيد، مهد فيه كل من الكندي وابن زولاق والقضاعي والشريف الجواني وابن عبد الظاهر وابن المتوج الطريق إلى الاكتمال الذي بلغه هذا الفن مع مؤلف المقريزي «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» الذي يعد أكبر ممثل لنمط التأليف في الخطط.[1] فحقيقة الأمر أنه لا يوجد أي كتاب – باعتبار أهميته – يمكن أن يوضع إلى جانب كتاب خطط المقريزي الذي يحتل مكان الصدارة بين بقية مؤلفاته.

وهذا الكتاب بإجماع الباحثين أهم كتاب في تاريخ مصر وجغرافية مدنها وطبوغرافية عاصمتها في العصر الإسلامي، فهو الكتاب الوحيد الذي وصل إلينا ويقدم لنا عرضا شاملاً - اعتماداً على المصادر الأصلية لتاريخ مصر الإسلامية ولتأسيس عواصم مصر ونموها منذ الفتح الإسلامي وحتى أواسط القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي. ويعد اليوم مصدراً لا غنى عنه للمشتغلين بدراسة آثار مصر الإسلامية، حيث يوفر لنا قائمة تفصيلية وأوصافا دقيقة للقصور والجوامع والمدارس والخانقاوات والحارات والأخطاط والدور والحمامات والقياسر والخانات والفنادق والأسواق والوكالات التي وجدت في عاصمة مصر خلال تسعة قرون. وترتكز هذه القائمة في الأساس على الملاحظات الشخصية للمقريزي وعلى مصادر لم تصل إلينا، فحفظ لنا المقريزي بذلك نقولاً ذات شأن للمؤلفين القدماء، الذين فقدت مؤلفاتهم اليوم.

ومؤلف هذا الكتاب هو العلامة الأشهر تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن القادر بن محمد المقريزي الشافعي المولود سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٤م، والمتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤٢م شيخ مؤرخي مصر الإسلامية وصاحب التآليف الضخمة في تاريخها وحضارتها مثل «اتعاظ الحنفا في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفا» و«السلوك لمعرفة دول الملوك» و«المقفى الكبير»، و«درر العقود الفريدة» وغيرها.(٢)

ويحتل كتاب «المواعظ والاعتبار» مكان الصدارة بين مؤلفاته المختلفة ويعد بلا جدال أكبر ممثل لنمط الخطط. فبعد عرض يعرف فيه المقريزي بمصر ومدنها وأقاليمها المختلفة يشغل نحو ربع الكتاب، يركز المقريزي جهده للحديث عن العمران المدني للقاهرة التي أضحت بعد سقوط بغداد وتراجع السيطرة الإسلامية في الأندلس المركز الثقافي والسياسي للعالم الإسلامي في هذا الوقت.

وفي هذا القسم يعرف المقريزي تعريفا مفصلا بكل ما يتصل بمسقط رأسه القاهرة فلم يترك أثراً أو مؤسسة إلا وصفه بدقة متناهية، وحكى بإسهاب تاريخ بنائه وما طرأ عليه من تغييرات، كما روى سير حياة الأمراء والكبراء الذين باشروا بناءه أو أقاموا فيه، ودون كذلك الأحداث المهمة التي اقترنت بهذه المنشآت والتقاليد والعادات والمراسم المتعلقة بها «حتى إنه لا توجد - كما يقول

كاترمير Quatremère مدينة شرقية يمكن أن تفخر بمؤلف يبلغ مرتبة «الخطط» من حيث الاكتمال والطرافة كما هو الحال مع القاهرة».(٣)

وتستمد المادة التي يقدمها لنا المقريزي وهو يسرد تاريخ القاهرة وتطورها العمراني أهميتها من قيمة المصادر التي اعتمد عليها وتنوعها وتعددها، حتى أن جانبا كبيرا من المادة التي حفظها لنا كان في حكم المفقود لولا نقله له فأنقذ بذلك من الضياع جزءاً كبيراً من تاريخ مصر كان سيظل بدونه مجهولاً لنا.

وتعتبر الأجزاء التي وصف فيها المقريزي نظام الخراج وجبى الضرائب ونظام الإقطاع، وجميع الجزء الخاص بالفاطميين وتأسيس القاهرة أكثر أجزاء كتابة «المواعظ والاعتبار» قيمة وأصالة. وإلى جانب ذلك يعد المقريزي أهم مؤرخ مصري أرخ للفاطميين فقد كان يرى أن كتابة تاريخ مصر دون وضع الفاطميين في موقعهم الصحيح في هذا التاريخ غير ممكن فهم مؤسسو القاهرة وهم الذين أعطوا لمصر مكانتها الاستراتيجية الهامة في المنطقة، لذلك فقد شغل حديثه عن الفاطميين وتاريخ القاهرة في زمنهم نحو نصف كتابه. ومن الغريب أن وصف المقريزي لقلعة الجبل العاصمة التي أقام بها الأيوبيون ثم خلفاؤهم سلاطين المماليك سادة مصر في وقته لا يرقى في قيمته ومصادره إلى الوصف الذي يقدمه للقاهرة في زمن الفاطميين.

ويدل على الأهمية الكبرى التي منحها المؤلفون والكتّاب العرب لهذا الكتاب احتفاظ مكتبات العالم بعدد كبير من مخطوطاته تعدت المائة وسبعين مخطوطة بينها خمس وثلاثين مخطوطة في مكتبات إستامبول وثمان وعشرين مخطوطة في المكتبة الأهلية بباريس وعشر مخطوطات في المتحف البريطاني بلندن، وهو رقم يفوق بكثير مخطوطات أي كتاب عربي. وذلك برغم أن مصحح طبعة بولاق من الكتاب التي ظهرت سنة ١٨٥٢ - وهي الطبعة التي عليها اعتماد الباحثين إلى الآن - يذكر أن نسخ الكتاب عزيزة في الديار المصرية وهي مع قلتها مليئة «بالتحريف الفاحش والسقط المتفاحش والغلط المخل والخطأ المضجر».(٤)

ولم تغب أهمية هذا الكتاب عن الباحثين في القرن التاسع عشر وكان احتفاظ المكتبة الوطنية في باريس وكذلك مكتبات ليدن والمتحف البريطاني بعدد

كبير من مخطوطاته سببا في لفت انتباه المستشرقين له فرجعوا إليه واقتبسوا منه نقولا مطولة فيما كتبوه عن تاريخ مصر الإسلامية ونشروا وترجموا فصولا منه وعلى الأخص لويس لانجليه L. Langlès وسلفستر دي ساسي S. de Sacy وإيتيان كاترمير E. Quatremère وفرديناند وستنفلد F. Wüstenfeld.(٥)

كما كان هذا الكتاب من أوائل الكتب التي أخرجتها مطبعة بولاق التي أصدرت له طبعة كاملة في سنة ١٢٧٠/١٨٥٢ وهي نشرة لا تستحق دائما ثقة كاملة فقد جاءت مليئة بالأخطاء والتصحيف والسقط الذي وجد في أصولها المعتمد عليها. ومع ذلك فما تزال هي الأساس الذي تعتمد عليه كل الدراسات التي تتناول عواصم مصر الإسلامية وخططها ومعالمها الأثرية في غياب أية نشرة محققة للكتاب. فعلى أساس هذه النشرة قدم كل من رافيس Ravaisse وسالمون Salmon وكازانوفا Casanova دراساتهم عن عواصم مصر الإسلامية،(٦) وقدم كذلك ماكس فان برشم Van Berchem وجاستون فييت G. Wiet وصفهما للآثار في دراستهما عن الكتابات التاريخية العربية في مصر،(٧) وأيضا قدم كريزويل Creswell وصفه للمعالم الأثرية في كتابه عن العمارة الإسلامية في مصر.(٨)

وأمام أهمية الكتاب وغنى وتنوع موضوعاته ومصادره، وأمام كذلك حجم الأخطاء والتصحيفات التي تسربت إلى الطبعة الوحيدة الكاملة له فكر المستشرق جاستون فييت G. Wiet وهو واحد من أعلم العارفين بتاريخ مصر الإسلامية، في إخراج نشرة كاملة محققة للكتاب وبدأ هذا المشروع في سنة ١٩١١ وتوقف عن إتمامه سنة ١٩٢٧ بعد أن أخرج خمسة أجزاء تعادل الصفحات من ٢ إلى أثناء ٣٢٢ من الجزء الأول من طبعة بولاق(٩) ولعلة انزعج أمام العدد الضخم من المخطوطات التي جمعها والتي جاءت مليئة بالتصحيفات والأخطاء والسقط.

مسودة المقريزي للخطط

ومن حسن الحظ فإن مكتبة خزينة الملحقة بمتحف طوبقبوسراي بإستامبول تحتفظ بالمسودة الأولى لكتاب «المواعظ والاعتبار» للمقريزي تحت رقم ١٤٧٢. وتمثل هذه المسودة الشكل الأول لتصور المقريزي لتأليفه للخطط وهي تختلف في ترتيبها ومصادرها وحجم المعلومات الذي تقدمه لنا اختلافا

كبيرا عن التأليف النهائي للخطط كما تمثله طبعة بولاق كما أنها لا تحوي سوى قسم غير كبير من الكتاب في صورته النهائية التي تعبر عنها طبعة بولاق.

وهذه المسودة نص من النصوص القليلة التي وصلت إلينا وتفيدنا في التعرف على أسلوب القدماء في التأليف فنحن نملك عددا من المؤلفات بخطوط مؤلفيها ولكن نادراً ما وصلت إلينا مسودات المؤلفين. فالمسودة يدونها المؤلف عادة أثناء جمعه مادة الكتاب وهي أشبه بهيكل الكتاب الذي يضيف إليه ويحذف منه أو يعدل فيه بالتقديم والتأخير وهي بذلك لم تبلغ مرحلة الكمال الذي وصل إليه المؤلف في الصورة النهائية لكتابه.

والمعروف أن أقدار النسخ الخطية لكتاب ما متفاوتة جدا فمنها ما لا قيمة له أصلاً في تصحيح نص الكتاب، ومنها ما يعول عليه ويوثق به. ومهمة المحقق هي تقدير قيمة كل نسخة من النسخ والمفاضلة بينها وفق قواعد متعارف عليها في أصول التحقيق العلمي والنشر النقدي للكتب القديمة منها: أن النسخة التي بخط المؤلف تعد أرفع النسخ مكانة. تليها النسخة التي قرأت على المؤلف أو التي عليها خطه. ثم النسخ التي قوبلت بغيرها وتداولها علماء وعليها إجازات وسماعات. ودائما النسخ القديمة تفضل النسخ الحديثة.

غير أن لهذه القاعدة بعض الشواذ. فعندما نشر نيكلسون كتاب «اللمع في التصوف» لأبي نصر عبد الله بن علي بن محمد بن يحيى السرّاج الطوسي المتوفى سنة ٣٧٨هـ في ليدن سنة ١٩١٤، اعتمد على مخطوطتين واحدة كتبت سنة ٥٤٨ والأخرى سنة ٦٨٣، ومع ذلك فقد اتخذ النسخة الأحدث أصلاً لأنها كاملة بينما النسخة القديمة بها نقص في مواضع كثيرة تبلغ ثلث الكتاب والباقي مرتب على ترتيب غير مفهوم، واكتفى بمقابلة النسخة القديمة في تصحيح النص.(١٠)

كذلك فإن لبعض الكتب تأليفين الأول ونستطيع أن نسميه المسودة يدونه المؤلف أثناء جمعه مادة كتابه والثاني وهو المبيضة التي ينقح فيها المؤلف ما جاء في المسودة وفق ما وجده فيها من أغلاط ويعيد ترتيب أبوابها ويدخل الزيادات التي أضافها إليها في صلب المتن.

ومسودة كتاب «الخطط» للمقريزي المحفوظة في مكتبة خزينة نموذج فريد لمسودات المؤلفين وتفيدنا في التعرف على أسلوب القدماء في التأليف، ففي المخطوطة حذف وكشط وشطب كثير وإضافات عديدة ومطولة على هوامش أوراقها وفي طيارات مضافة بين أوراق الكتاب وتعديل لبعض النصوص وإشارة بنقلها عند التبييض إلى موقع آخر أليق بها، وتنبيه إلى استكمال نقل بعض النصوص التي نقلت مبتورة أو ضرورة الرجوع إلى مصادر جديدة تعرف عليها المقريزي بعد كتابته للمسودة.

هل سطا المقريزي على مسودة الأوحدي؟

وتفيدنا هذه المسودة كذلك في وضع حل لقضية طالما أثارت العلماء الذين اهتموا بخطط المقريزي، وهي الاتهام الذي ساقه السخاوي وأدان فيه المقريزي بأنه سطا على مسودة جاره الأوحدي في الخطط فبيضها وزاد عليها ونسبها لنفسه.[١١] وتفيدنا مسودة خطط المقريزي وما كتبه المقريزي بنفسه عن الأوحدي في الوصول إلى حكم صحيح حول صحة أو عدم صحة الاتهام الذي ساقه الأوحدي. ورغم أن المقريزي قد تجاهل في مقدمته التي ذكر فيها الذين سبقوه في كتابة خطط مصر والقاهرة ذكر معاصريه ابن دقماق والأوحدي، فقد أثنى على صاحبه الأوحدي عندما ترجم له في كتابه «درر العقود الفريدة» وأشار إلى وقوفه على مسودته للخطط واستفادته منها. يقول بعد أن أشار إلى معرفة الأوحدي بتاريخ مصر وخطط القاهرة: «علقت عنه جملة أخبار واستفدت منه كثيرا في التاريخ وأعانني الله بمسودات من خطه في خطط القاهرة ضمنتها كتابي الكبير المسمى بكتاب «المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار»، «وناولني ديوان شعره وهو في مجلدة لطيفة».[١٢]

وهذا الاعتراف يثبت ما ذهب إليه السخاوي وكرره في مؤلفاته من أن الأوحدي كتب مسودة كبيرة لخطط القاهرة تعب فيها وأجاد، ولكنه في الوقت نفسه يفتح الباب أمام تبرئة المقريزي من تهمة السطو على كتاب الأوحدي وينفي الاتهام الذي ساقه السخاوي وتشكك فيه الكثير من الباحثين. ومع ذلك فإن علينا أن نتساءل إذا كان المقريزي قد استفاد باعترافه بمسودات الأوحدي وضمنها في كتابه «المواعظ والاعتبار» لماذا لم يذكره بين مصادره في مقدمة «الخطط»، ولماذا لم يشر إلى المواضع التي استفاد منه فيها في أثناء الكتاب؟

تفسير ذلك أن الأوحدي كتب مسودة خطط القاهرة وربما بيض بعضها في الوقت الذي كان جاره المقريزي مهتما بالموضوع نفسه، ويبدو أن الأوحدي كان حريصا على حجب مصادر معلوماته عن جاره المقريزي، فلما مات الأوحدي شاباً في سنة ٨١١هـ قبل أن يتم كتابه ويبيضه ظفر به المقريزي مسودة وأخذ في مراجعة مصادره والمكتبات التي اعتمد عليها الأوحدي فعرف المصادر التي استخدمها ورجع إليها مباشرة وضمن هذه النقول مسودته التي نتكلم عنها اليوم متمثلة في الطيارات الكثيرة الموجودة بين أوراق الكتاب والهوامش المطولة التي أضافها على صفحاته، وكلها نصوص نسبها إلى مصادرها الأصلية أعانت المقريزي على إعادة تبويب كتابه وزودته بمواد بالغة القيمة. وترجع أغلب النصوص التي ضمنها من كتاب الأوحدي إلى: ابن زولاق والمسبِّحي وابن المأمون وابن الصيرفي وكتاب الذخائر والتحف وتعليق القاضي الفاضل في المتجددات وكلها متصلة بالجزء المتعلق بوصف القاهرة في زمن الفاطميين.

ويبدو أن مسودة الأوحدي لم تكن سوى أمشاج من النقول ألصقت جنبا إلى جنب دون ما أي تمحيص، ولم يفعل المقريزي سوى أن نقل هذه النقول التي فاتته إلى كتابه من مصادرها الأصلية ولم يجد ضرورة لذكر الأوحدي الذي لم يكن قد بيض كتابه وأعاد النظر فيه. ولكن الأمانة العلمية كانت تتطلب من المقريزي أن يضيف اعترافه بأن الله أعانه بمسودات من خط الأوحدي ضمنها كتاب «المواعظ والاعتبار» في مقدمة هذا الكتاب بالاضافة إلى الترجمة التي أفردها للأوحدي في «درر العقود الفريدة».

وصف المسودة

تقع مسودة خطط المقريزي المحفوظة في مكتبة خزينة الملحقة بمتحف طوبقبوسراي في ١٨٠ ورقة من قطع الربع ومسطرتها ٢٠ سطرا وقياسها ١٨،٣x١٤،٥سم كتبها المقريزي ترجيحا في الفترة بين سنتي ٨١٨ و٨٢٧ هـ.

والمسودة كتبت على ورق سبق استخدامه في كتابات أخرى من قبل وبه بياضات كثيرة تدل على أن المقريزي كان سيعيد النظر فيها ويستكملها من مصادر أخرى. وهذا الورق هو نفس نوع الورق الذي كتب عليه المقريزي

مسودة كتاب «المقفّى الكبير» المحفوظة في باريس والتي تحوي أيضا زيادات على الهوامش وتصحيحات للمقريزي تدل على أنه لم ينته بعد من تأليف كتابه.

وكثير من الطيارات الموجودة بين صفحات الكتاب جلدت بعكس اتجاهها بحيث أصبح ظهر الورقة مكان وجهها، كما أن الورقة الأخيرة في المخطوط وهي الورقة رقم ١٨٠ ليست في موضعها، ومكانها الطبيعي يجب أن يكون في أول المجلد لأنها تتعلق بتعيين حدود المنطقة الواقعة بين الفسطاط والقاهرة.

ويتضح لنا من مراجعة هذه المسودة أن المقريزي أعاد تبويب كتابه بعد أن أتم بناءه في العقد الأخير من حياته وقسم بعض النقول المطولة التي نقلها في المسودة على ما يناسبها من أبواب الكتاب في تقسيمه الأخير.

ومما يدلنا على التاريخ الذي دوّن فيه المقريزي هذه المسودة ما ذكره وهو يصف قصبة القاهرة أو الشارع الأعظم حيث يشير في تحديد الشارع إلى خزانة شمائل التي كانت في هذا الوقت سجن متولي القاهرة. وهذه الخزانة هدمت سنة ٨١٨ لذلك فقد أضاف المقريزي في مرحلة لاحقة على هامش الصفحة، صار سوق الخلعيين وخزانة شمائل جامعاً بناه الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي.

وهكذا فإن هذه المسودة تعد نصاً نادراً للتعرف على طريقة التأليف عند القدماء ونظرا لأهميتها فقد قمت بتحقيقها ونشرها [١٣] باعتبارها نسخة فريدة دون مقابلتها على بقية النسخ الكاملة للكتاب لاختلاف التبويب والمنهج بينهما، خاصة وأن بها تفاصيل لا توجد في النسخ النهائية التي جاءت مليئة بتصحيفات النساخ وأخطائهم، بينما أفادتني مسودة المقريزي في إثبات القراءة الصحيحة لكثير من المصطلحات وأسماء الأعلام والمواضع التي جاءت مصحفة في بقية نسخ الكتاب.

الحواشي

(١) راجع حول موضوع الكتابة في الخطط والخطط بوجه عام، محمد عبد الله عنان: مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، القاهرة، ١٩٣١، ١٩٦٩.

J. C. Garcin, "Toponymie et topographie urbaines mediévales à Fustat et au Caire", *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, XXVII

(1984), 113–55; C. Cahen, s.v. "Khiṭṭa", *Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed (Leiden and London, 1960-), V, 23.

(٢) راجع في ترجمته، أبا المحاسن: المنهل الصافي ١: ٤١٥ - ٤٢٠، السخاوي، الضوء اللامع، ٢: ٢١- ٢٥، التبر المسبوك في ذيل السلوك ٢١- ٢٤.

J. C. Garcin,"Al-Maqrīzī, un historien encyclopédique du monde afro-oriental", *Les Africains*, IX (1978), 197–223.

(٣) كراتشكوفسكي: تاريخ الادب الجغرافي العربي ٤٨٢.

E. Quatremère, "Livre des avis et de la réflexion, concernant les quartiers et les monuments [= al-Maqrīzī, *Kitāb al-Mawā'iẓ wa-l-i'tibār bi-dhikr al-khiṭaṭ wa-l-āthār/*]", *Journal des Savants* (1856), 326.

(٤) المقريزي: كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، بولاق، ١٢٧٠/١٨٥٢، ٢: ٥٢٠. وهذا يدل على أن الكتاب تسرب من مصر وعرفت نسخه المختلفة طريقها إلى مكتبات تركيا وأوربا قبل الشروع في طبعة بولاق.

(٥) انظر: L. Langlès, "Histoire du Canal de Messr (vulgairement nommé *Canal de Suez*) tirée de la description géographique et historique de l'AEgypte par Al-Maqryzy", *Magasin Encyclopédique*, V/5 (Paris, 1799), 289-310; idem, "Le livre des avis et sujets de réflexions [= al-Maqrīzī, *K. al-Mawā'iẓ wa-l-i'tibār*], premier extrait", *Notices et Extraits des Manuscrits de la Bibliothèque Nationale*, VI (Paris, 1801), 320-86; A. I. Silvestre de Sacy, "Route de la capitale de l'AEgypte à Damas (extrait de la description de l'AEgypte par Makrizi)", *Magasin Encyclopédique*, VII/2 (Paris, 1801), 328-32; idem, *Chrestomathie arabe* (Paris, 1806), I, 74-176 (Arabic text), II, 67-223 (French translation); E. Quatremère, "Livre des avis et de la réflexion" [see n. 3 above], 321-37; F. Wüstenfeld, *Geschichte der Copten*, (Göttingen, 1845).

(٦) انظر: P. Ravaisse, "Essai sur l'histoire et sur la topographie du Caire d'après Makrizi (Palais des Khalifes Fatimites)", *Mémoires ... de la Mission archéologique française au Caire*, I/3 (Paris, 1887), 409-80, and II/4 (Paris, 1890), 33-115; G. Salmon, *Etudes sur la topographie du Caire, la Kal'at al-Kabch et la Birkat al-Fîl*, Mémoires ... de l'Institut français d'archéologie

orientale du Caire, VII (Cairo, 1902); P. Casanova, "Histoire et description de la Citadelle du Caire", *Mémoires ... de la Mission archéologique française au Caire*, VI/4-5 (Paris, 1894 and 1897), 509-781; idem, *Essai de reconstitution topographique de la ville d'al-Fousṭāṭ ou Miṣr*, Mémoires ... de l'Institut français d'archéologie orientale du Caire, XXXV (Cairo, 1913-19).

(٧) M. van Berchem, *Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum, Première partie, Egypte, Le Caire*, I, Mémoires ... de l'Institut français d'archéologie orientale du Caire, XIX/1-5 (Paris, 1894-1903); G. Wiet, *Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum, Première partie, Egypte*, II, Mémoires ... de l'Institut français d'archéologie orientale du Caire, LII (Cairo, 1929-30).

(٨) K. A. Creswell, *The Muslim Architecture of Egypt* (Oxford, 1952-9; reprint, New York, 1978).

(٩) المقريزي: كتاب المواعظ، تحقيق ج. فييت، القاهرة، ١٩١١-١٩٢٧.

(١٠) أبو نصر السرّاج، كتاب اللمع في التصوف، تحقيق نيكلسون، لندن، ١٩١٤. برجشتراس: أصول نقد النصوص ونشر الكتب، إعداد وتقديم محمد حمدي البكري، القاهرة ١٩٦٩، ١٤- ١٥.

(١١) السخاوي: الضوء اللامع ١: ٣٥٨، ٢: ٢٢، والتبر المسبوك ٢٢، والإعلان بالتوبيخ، بيروت، ١٢٩٩/١٩٧٩، ١٣١.

(١٢) المقريزي: رر العقود الفريدة، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، بيروت، ١٩٩٢، ١: ٢٢٣.

(١٣) «مسودة كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار لتقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي» حققها وكتب مقدمتها ووضع فهارسها أيمن فؤاد سيد، لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤١٦/ ١٩٩٥.

العنصر البشري بين النص والقارئ: الإجازة في المخطوطات العربية

جان جاست ويتكام

الإجازة هي شهادة القراءة أو السماع التي ترد أحياناً إما في نهاية المخطوطة أو في صفحة العنوان وتخول من حاز عليها حق نقل النصوص أو التدريس أو إصدار الفتاوى. كما أنها بمثابة شهادة حضور لجلسات القراءة ولا يجوز الخلط بين إجازة التدريس وإجازة السماع التي ينبني عليها تخويل نقل النص المقروء. وسوف ينصب اهتمامنا في هذا البحث على إجازة السماع، أي بروتوكولات جلسات القراءة التي كانت تضاف إلى النصوص، فتلك خاصة تمدنا بمعلومات وافرة عن دور العنصر البشري في نقل النصوص.

تمثل الإجازة عنصراً بارزاً في المخطوطات الإسلامية، إلى جانب أنها تصوّر لنا الدور الذي يلعبه المخطوط في بيئته العلمية والتعليمية والثقافيه. إن دراسة الإجازات تزيد من معرفتنا بالعنصر البشري في استخدام النصوص والمخطوطات. ومن الهام من أجل التوصل إلى فهم أفضل للإجازة أن نكون على دراية بالعنصرين الفردي والشخصي في نقل العلوم الإسلامية. ومن هنا تعرضنا لهذا الموضوع على نحو موجز فيما يلي يأتي بعده اقتراح بمشروع *لجمع إجازات السماع في المخطوطات العربية وتحليلها*.[١]

النهج الشخصي والاستمرارية في العلوم الإسلامية

غالباً ما يقال إنه لا يوجد تراتب وظيفي في الإسلام على غرار ما هو قائم في الكنيسة المسيحية. وبصورة عامة يمكننا اعتبار هذه المقولة صحيحة، إذ أنه لا يوجد في الإسلام بابا معصوم عن الخطأ ولا رجال دين يخضعون لهيكل وظيفي دقيق ومميز، أو يزعمون أنهم الوسيط بين الله والمؤمن أو يتظاهرون باحتكار العقيدة الدينية. غير أن ذلك كله لا يعني أن التنظيم معدوم كلياً في الإسلام إذ أن ديناميكية الاستمرارية في الإسلام قد تطورت في اتجاه مختلف. فالإسلام لا يعتبر وجود وسيط بين الله والانسان أمراً ضرورياً كما أن علاقة المسلم مع الله هي علاقة مباشرة وشخصية لذا يتبع المسلم طريقاً مباشراً للحصول على تعاليم دينه.

وقد ولدت العلاقة الشخصية القائمة بين المعلم والتلميذ – عبر أجيال من العلماء – قوة دافعة تكفل استمرارية هذه العلاقة. وقد ظهرت مع مرور الزمن العديد من أنماط الآداب الإسلامية التي تعكس أهمية هذه العلاقة. وبدأ ذلك على نحو مبكر بظهور الحديث. فالإسناد الذي يسبق كل حديث يوازي من حيث الأهمية محتوى الحديث. وتجدر الإشارة إلى أن الأحاديث الأولى قد رتبت ليس وفقاً للموضوع الذي تعالجه بل حسب المسند. ويمثل علم الرجال أي الرواة، نصف علم الحديث. ولا يكون الحديث صحيحاً إلا إذا ثبتته مجموعة من الرواة الموثوقين، وبدون ذلك يبقى الحديث ناقصاً. هكذا كان موقف العلماء المسلمين الأوائل إزاء الحديث. وقد تم تدوين نصوص الحديث وأسماء الرواة لأسباب عملية رغم أن النموذج القديم كان يقضي بنشر المعرفة الدينية عن الطريق الشفاهي. ويمكن أن يفسر الإسناد بأنه بروتوكول لسلسلة من الأحداث واللقاءات التي تم من خلالها نقل العلم. ومما يجدر ذكره أن الحديث المدون هو فقط أحد أبعاد الحديث وأن دور العامل البشري في نقل المعرفة واستمراريتها لا يقل أهمية عن الرسالة المسجلة نفسها. والقول المأثور «إن العلم في الصدور لا في السطور» يلخص بوضوح هذه الفكرة.[٢]

وقد حال الانتشار السريع للدين الإسلامي والتشعب الهائل للعلوم دون بقاء النقل الشفهي الوسيلة الوحيدة لنقل المعرفة. وكان من الضروري تدوين الوحي الإلهي إذ كان حفظة الوحي الأوائل يتساقطون في معارك الفتوحات.

كما تم في وقت لاحق تدوين نصوص الحديث والنصوص التاريخية. وكان الرواة في بادىء الأمر يدونون هذه النصوص في سجلاتهم الشخصية المختلفة[٣] وفي وقت لاحق دونت هذه النصوص في تصنيفات منظمة تستهدف جمهوراً أوسع. ورغم أن الكتب قد اعتبرت في نهاية المطاف الوسيلة الطبيعية لنقل المعرفة إلا أن الأسلوب الشخصي والفردي في تحصيل العلم بقي كما هو دون أن يطرأ عليه تغيير. وكما نلاحظ في عصرنا هذا فإن مجرد قراءة كتاب ما لا تعتبر كافية لاستيعاب محتوياته لهذا كان يقرأ الكتاب في العصور القديمة بمساعدة من معلم يحسن أن يكون هو مؤلف الكتاب نفسه، فإنه لم يكن، فعلى يد جهبذ يحظى بالاحترام ويعتبر مرجعاً موثوقاً. وعلاوة على ما تقدم، لم تكن القراءة أو الدراسة عملاً فردياً بل نشاطاً اجتماعياً كما سنرى فيما بعد. أدّى النهج الفردي والشخصي إلى ظهور أدب السيرة في الإسلام. ولم يكن هذا النمط الأدبي جديداً إذ نجد في العصور الكلاسيكية القديمة أن كتاب «حيوات متوازية» لبلوتارك قد انطوى على أغراض تاريخية وتعليمية وأخلاقية وإيديولوجية.

وكان لبعض أدب السيرة الإسلامي هدف مشابه إلا أنه اشتمل أيضاً على بعد إضافي إذ نما وتطور علم الرجال ليصبح أسلوباً نقدياً لتقييم المكانة العلمية للرواة. كما عُنيت الكثير من كتب السيرة بوصف حلقات العلماء وتسجيل سلاسل الرواة ومثال ذلك كتاب «تهذيب التهذيب»[٤] لابن حجر العسقلاني المتوفى عام ٨٥٢هـ/١٤٤٩م. وهذا الكتاب عبارة عن معجم لسير رواة الحديث الموثوقين. وتتألف كل سيرة من ثلاثة أجزاء. يتناول الجزء الأول الاسم الكامل لصاحب السيرة وبعض التفاصيل الشخصية الأخرى. ثم يتلو ذلك سجل بأسماء المحدثين الذين استند إليهم في نقل الحديث، ثم أسماء أولئك الذين جاءوا بعده واستندوا إليه في نقل الحديث. ويتضح مما تقدم أن معجم ابن حجر قد كرس كلياً للرواة. وقد اتبعت السير الأخرى بما فيه تلك التي لم تُعنى حصراً بالمحدثين نهجاً مشابهاً في تقديم أصحاب السير.

الأنواع الأدبية ذات الطبيعة الفردية والشخصية

ظهرت أنواع أخرى من الأدب الفردي والشخصي. وعلم الفهرسة[٥] الذي نما وتطور في الأندلس وبلدان المغرب هو مثال على ذلك، وهو عبارة عن

سيرة ذاتية علمية يعدد فيها العالم الشيوخ الذين تتلمذ عليهم والأعمال التي قرأها عليهم، ثم كان هناك الثبت وهو قائمة يعدّها المحدث ويسرد فيها أسماء الشيوخ الذين عرفهم ومدى نقله بالاستناد إليهم. أما في الرحلة فنلاحظ أن اهتمام المؤلف ينتقل من الجغرافيا والاثنوغرافيا، في المرحلة القديمة، إلى العلاقات الشخصية بين العلماء. وقد اتسع نطاق الرحلة فيما بعد حيث أخذ المؤلف يعدد أسماء العلماء الذين قابلهم وما تعلمه منهم والإجازات التي حصل عليها أثناء سفره. ولم يكن الهدف من السفر السياحة بل طلب العلم والحج إلى مكة.[٦] وثمة نوع آخر من النصوص يمكن تسميته بسلاسل النسب الروحية أو الدراسية للعلماء[٧] أما البرنامج[٨] والمشيخة فلهما وظيفة تشبه إلى حد بعيد وظيفة الفهرسة وهما يشتملان في بعض الأحيان على تفاصيل خاصة بالسفر وطلب العلم على غرار الرحلة. ولعل أحد أبرز أنواع مصنفات السيرة الذاتية هو ذلك القائم على وصف طبقات العلماء، والذي يقوم بإحصاء الأجيال المتتالية للعلماء العاملين في حقل بعينه. وقد نتج عن هذا التناول جيلاً بجيل لطبقات العلماء المحافظة على أسباب التواصل في تاريخ العلوم سواء داخل جيل بعينه أو عبر سلسلة من الأجيال. وفي العصور المتأخرة خاصة كانت تلك الإحصاءات تقوم بمثابة سيرة ذاتية علمية. أحياناً كان الاهتمام ينصب على ما قرىء من نصوص على الشيوخ كما في البرنامج، وأحياناً أخرى كان الشيوخ أنفسهم يصبحون محور الاهتمام كما في المشيخة.

وغالباً ما كان يقوم صاحب السيرة نفسه بتصنيف النصوص وكتابتها بضمير المتكلم، وإن كان ضمير الغائب يستخدم أيضاً. وعندما كان أشخاص آخرون يقومون بإعداد قوائم بالمواضيع التي دُرست أو الثقات الذين التقى بهم شيخهم، كانت القائمة تبدأ بعبارة«التعريف بـ» يتبعها اسم العالم المعني. ونفس الشيء ينطبق في الترجمة حيث يبدأ النص بعبارة «التعريف بـ» يتبعها اسم المترجم له. وثمة أيضاً عناوين من قبيل: "السند المتصل إلى" يتبعها اسم أحد أوائل الرواة، أما التصنيفات التي تحوي كلمة "أسانيد" في العنوان فلها هدف مشابه لما سلف ذكره، وهو أنها تبين أسانيد عالم ما وصلته بكبار الائمة الذين عاشوا في عصر سابق. وقد بدأت تظهر في مرحلة جد متأخرة، لعلها في القرن ١٢هـ/١٨م، كتيبات منفصلة تشتمل عناوينها على كلمة "إجازة". ويبدو للوهلة الأولى أن هذه الكتيبات تندرج في قائمة الإجازات الدراسية وليس في عداد شهادات القراءة. على أنه ثمة علاقة بين هذين النوعين لأن الشهادات المتأخرة

كثيراً ما كانت تشتمل على أسماء سلسلة من العلماء السابقين غالباً ما تنتهي باسم النبي محمد في بدايتها واسم طالب العلم صاحب الكتيب/الإجازة في ختامها. وكانت تلك الإجازات تزخرف بإتقان وتكتب بخط منمّق وأسلوب متأنق وبإمكاننا أن نعتبرها ممثلة لآخر مرحلة في تطور الإجازات وهي المرحلة التي بلغت فيها الذروة في إخراجها الفني. وقد تحولت الإجازة إلى نوع أدبي مستقل بفضل هذه الكتيبات.[٩]

وثمة نوع أدبي آخر نشأ عن هذه الممارسات وهو ما يعرف بالجزء، وهو نص قصير لا يجاوز الرزمة الواحدة عادة، ويبلغ من صغر حجمه أن يسهل حمله. ولعله كان يحدث أن جزءاً صغيراً من أعمال أحد الشيوخ تجري قراءته وشرحه في جلسة تمنح في نهايتها الإجازة. وفي تلك الحالة يكون لدى المانح خياران، فقد يمنح تلميذه أو طالب العلم الزائر حق نقل كتاب كامل له أو حق نقل مَرْوِيّاته، أو ما تلقاه هو نفسه شفاهة «المسموعات» أو تلك الأعمال التي حاز هو نفسه إجازات فيها، وهو ما يعرف بالمستجازات، أو أيّاً من أعماله الأخرى حتى وإن كان قد قُرِئ قسم منها فقط أو لم تُقرأ على الإطلاق. وكانت تلك الإجازات العامة واسعة الانتشار.

أما الخيار الآخر فكان يتمثل في تخويل التلميذ أن ينسخ نسخاً مستقلاً ذلك النص القصير أو نخبة المرويات التي تلقاها عن أستاذه. وكانت تلك النخبة من حصيلة علم شيخ من الشيوخ تعرف غالبا بالجزء.[١٠] وفي بعض الأحيان كانت الأجزاء تحظى بوصف أكثر تفصيلاً وتحمل عنواناً أفصح مغزى.[١١]

وحين كان أحد التلاميذ يحظى بثقة شيخه، فربما قام هذا الأخير بمنحه حق نقل كل أعماله حتى وإن لم يكن قد تلقى شرحها على يديه. وفي مثل تلك الحالات فإن الإجازة قد تحوي ذكر كل أعمال الشيخ أو غالبيتها وتصبح بذلك بمثابة سيرة ذاتية. والجدير بالملاحظة أن قوائم عناوين الكتب المشتملة في الإجازات أو في المخطوطات عامة لم تحظ بالدراسة بعد.[١٢] وثمة المزيد من الأعمال ذات العناوين الأكثر أناقة تؤدي نفس الوظيفة، أي تقييم أعمال شيخ من الشيوخ وإثباتها، والظاهر أن ثمة عدداً لا حصر له من هذا النوع من الكتب، والقاسم المشترك الأعظم بينها هو حرصها على إحصاء الشيوخ الذين زيروا والكتب التي دُرست والإجازات التي نيلت. وفي هذا السياق يمكن تعريف الإجازة بأنها ختام لقاء بين عالمين تشتمل في الوقت ذاته على ثبت بالعلماء

السابقين عليهما. وبموجب هذه الإجازة يُخوّل الحاصل عليها حق النقل أو التدريس لبعض أعمال الشيخ المانح لها أو لمجمل تلك الأعمال. وليست هذه العملية بمختلفة عن الشهادات النهائية التي يحصل عليها طلاب الجامعات في عصرنا الحالي، إنما يكمن الفارق في كون الإجازات القديمة تعبيراً عن علاقة بين شخصين وليس بين طالب وبين مؤسسة تعليمية.

ولعله يجدر بنا أن نلاحظ في الختام أن الترتيب الألفبائي للمادة المتعلقة بالترجمات في كتاب ابن حجر «تهذيب التهذيب» قد اشتمل على كل ما سبقه من تطورات. ولا شك أن مثل هذا الترتيب كان يمثل الإجراء التنظيمي الأوحد الكفيل بمعالجة المادة المتنامية، وذلك على الرغم من أننا نعثر أحياناً على أوجة قصور من الناحية الجغرافية أو من ناحية التسلسل التاريخي في معاجم التراجم المرتبة ألفبائياً.

علم المخطوطات والإجازة في المخطوطات العربية

ما علاقة كل ما تقدم إذن بالمخطوطات، ولا سيما بعلم المخطوطات؟ يُعرف علم المخطوطات في بعض الأحيان بأنه الدراسة المختصة بتناول جميع جوانب المخطوطة باستثناء محتواها. كما يُوصف بأنه ذلك العلم الذي يركز كلياً على الخصائص المادية للكتاب المخطوط باليد. وهذه تعاريف مفيدة إلا أنها مسرفة في التبسيط إذ غالباً ما نتعلم من مجلد المخطوطة ما يفوق ما نتعلمه من الجوانب اللغوية للنص إلا أنه لا يجوز لنا أن نقيم مثل هذا التمييز الشكلي بين نص بغير وجود فيزيائي وبين مخطوطة ذات وجود مادي صرف، أي أن نقارن بين روح النص وجسده إذا جاز التعبير. فهناك تفاعل دائم بين الجانبين الروحي والمادي لكل مخطوطة. ويتجلى ذلك بوضوح في الآثار المتنوعة والكثيرة التي نعثر عليها في المخطوطات والتي تشير بوضوح إلى الاستعمال الشخصي. وتجدر الإشارة أن كل مخطوطة هي قطعة فنية صنعها فرد ما وأنها تنطوي على معلومات صريحة وفي بعض الأحيان ضمنية عن صانع المخطوطة أو مستعملها أو كليهما، وتعطينا خصائص المخطوطات المختلفة مثل بيانات الصفحة الأخيرة وشعار الناسخ وعلامة المالك وشهادات القراء فكرة عن وظيفة نص ما بصورة عامة وكيفية استخدام المخطوطة بصورة خاصة. لذا فإن دراسة هذه الخصائص التي تنتمي إلى علم المخطوطات تعطي النص بعداً

إضـافياً وتضـعـه في إطاره الحضاري. ونـحن نعتقد أنه فقط باعتماد مثل هذا النـهج الشـامل والمتكامل – عند تناول المخطوطـات – نكون قـادرين على إعطاء خصائص المخطوطات حقها من حيث علاقتها بعضها بالبعض الآخر. هذا هو فقه اللغة في أوسع معانيه بما يشمل جميع الجوانب السالفة الذكر علاوة على دراسته للتفاعل بين نص ما والبيئة التي انبثق عنها.

ونعثر أحياناً على الإجازة أو على نسخ منها في المخطوطات،[١٣] حيث تكون ملحقة بنهاية النص أو مسجلة على صفحة العنوان التي تسبق النص الذي تتعلق الإجازة به. وفي بعض الأحيان لا يتجاوز نص الإجازة بضعة أسطر بينما يكون مسهباً في أحيان أخرى. وقد يجمع النص بين الإجازة وبين شهادات القراءة على أن إضافة الإجازة إلى النص هو تقليد قديم في المخطوطات العربية بقي قيد الاستعمال لعدة قرون. وعندما نلقي نظرة على المخطوطات التي سجلت فيها الإجازات فأنها تعطينا فكرة عن كيفية تطبيق نظام إجازات التعليم. وعلاوة على ما تقدم فإن الإجازة تكشف الكثير عن طريقة استخدام النص أو المخطوطة. ومما يدعو إلى الاستغراب أنه ليس ثمة بعد أية محاولات منهجية لجمع البيانات الموجودة في إجازات المخطوطات العربية.[١٤] إن جمع هذه النصوص وتحليل محتوياتها وأساليب صياغتها لهو أمر مرغوب وقد تأكدت الفائدة من جمع هذه النصوص باكتشاف الباحثين عبيد (Ebied) ويونغ (Young) أصل كلمة "بكالوريا". فمن خلال التدقيق في صياغة الإجازات في عدد من المخطوطات اكتشف الباحثان أن الكلمة الأكاديمية الأوروبية الشهيرة "بكالوريا" مستمدة من التعبير العربي "بحق الرواية".[١٥]

أمثلة لبعض الإجازات الهامة

انبثقت الإجازة عن نظام التعليم الإسلامي الذي كانت تدرس من خلاله العلوم الدينية الإسلامية، إلا أنها لم تبق مقصورة على علوم الدين إذ نجد أن من أصل ٧٢ مخطوطة صنفها الباحث فاجدا (Vajda)، هناك ٥٩ مخطوطة ذات محتوى إسلامي تقليدي، أي فروع المعرفة الخاصة بمنهاج المدرسة بينما ثمة ١٣ مخطوطة ليس لموضوعها علاقة مباشرة بالدين إذ تتناول موضوعات في الطب والأدب والعلوم. وتعتبر هذه نسبة عالية نظراً لوجود عدد كبير من المخطوطات من الفئة الأولى. ويبين الجدول الجغرافي الذي وضعه فاجدا أن

دمشق والقاهرة هما مصدر معظم المخطوطات التي تحتوي على إجازات، وتأتي بعدهما، من حيث الغزارة في إصدار الإجازات، كل من بغداد ومكة وحلب، وغالبية الأماكن الأخرى التي كانت تُصْدرُ الإجازات تقع في المشرق ويرجع ثمانون في المئة من الأعمال المذكورة إلى الفترة ما بين القرنين ٦-٩هـ/١٢-١٥م بتوزيع متكافيء على امتدادها.(١٦)

وتجدر الإشارة أن أبرز الإجازات ليست متضمنة في نص إسلامي علمي، بل في أشهر نصوص الأدب العربي وأكثرها احتراماً، وهو مقامات الحريري. ويتضح ذلك من مجموعة الإجازات التي عثر عليها في مخطوطة نسخة المقامات والتي استنسخت من نسخة الحريري الخاصة. ففي الأجازة الرئيسية والمعاصرة للمخطوطة نجد أسماء ٣٨ عالماً نعلم أن بعضهم كانوا من وجهاء بغداد البارزين، ويذكر النص أنهم كانوا حاضرين أثناء قرأة المقامات برمتها التي استغرقت أكثر من شهر من الجلسات المتقطعة.(١٧) إن تحليل ماكيه (MacKay) الدقيق لهذا العدد الكبير من الإجازات قد ساهم في تكوين صورة عن حقبة من الحياة الثقافية في بغداد وحلب ودمشق امتدت زهاء القرنين. لقد بدأ الأمر في بغداد في سنة ٥٠٤هـ/١١١١م وذلك عندما أنجزت القراءة الأولى لنسخة المؤلف وقد تبع ذلك قراءات لاحقة في بغداد أيضاً. وبعد مضي ستين سنة أو نحوها على القراءة الأولى أصبحت المخطوطة مثقلة بشهادات السماع. ثم انقطعت أخبارها لمدة أربعين سنة وبعد ذلك انتقلت ملكيتها إلى المؤرخ الحلبي كمال الدين ابن العديم الذي توفي في سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م. بقيت المخطوطة في حلب أكثر من ثلاثين سنة وهي تحمل أسماء العديد من أفراد أسر حلبية بارزة حضروا جلسات السماع. وأخيراً نلاحظ أن المخطوطة تحمل شهادات جلسات السماع التي عقدت في دمشق خلال عام ٦٨٣هـ/١٢٨٤م. تختفي بعد ذلك هذه المخطوطة عن الأنظار وبعد ستة قرون وبالتحديد في عام ١٨٧٥م تحصل عليها دار الكتب المصرية حيث لا تزال موجودة.

وعندما نلقي نظرة على أسماء ما يزيد على مئتي شخص شاركوا في قراءتها والاستماع إليها نلاحظ أن الكثيرين من هؤلاء الأشخاص ينتمون إلى أسر تربط بينها القرابة. وخلاصة لما تقدم يمكننا القول إن تاريخ نقل هذه المخطوطة قد واكب تاريخ أجيال من العلماء ورجال الأدب الذين انشغلوا بها.

إن أقدم الإجازات المعروفة هي تلك التي نجدها في مخطوطة فريدة من نوعها تحمل العنوان «الناسخ والمنسوخ في القرآن» لأبي عبيد القاسم بن سلاّم الذي توفي عام ٢٢٣هـ/٨٣٧م.[١٨] في هذه المخطوطة نجد عملاً هو في صميم العلوم الإسلامية إذ أنه يتناول الآيات الناسخة والمنسوخة في القرآن الكريم. ويرجع تاريخ أول شهادة سماع في هذه المخطوطة إلى عام ٣٩٢هـ/٢-١-١٠٠١م أما آخر شهادة فتاريخها هو ٥٨٧هـ/١١٩١م. ونلاحظ في أحدى شهادات السماع لهذه المخطوطة ذكر الجامع العتيق بمصر[١٩] كما تذكر أسماء أفراد من أسرة واحدة تشمل الأب وأبنائه وعدداً من إخوانه. وعلى غرار ما لمسناه في مخطوطة مقامات الحريري نجد في هذه المخطوطة أن نقل نص ما كان ينطوي على مناسبة اجتماعية أو عائلية، وفي كلتا الحالتين كان ثمة حضور للعامل الشخصي. وإذا ما قارنّا بين الإجازات الواردة في آخر مخطوطة أبي عبيد «الناسخ والمنسوخ» الموجودة في إستانبول وبين قائمة الروايات المتضمنة في صفحة العنوان الخاصة بمخطوطة إستانبولية أخرى هي «كتاب المجالسة» لأبي بكر الدينوري،[٢٠] فإننا نكتشف ورود اسم شخص بعينه في المخطوطتين وهو أبو عبد الله بن حمد بن حامد بن مفرّج بن غياث الأرتاجي، والذي لم يسمع به أحد في غير هذا السياق. فأما في مخطوطة أبي عبيد العتيقة «الناسخ والمنسوخ» فنجده ناشطاً في دور المُسْمِع عام ٥٨٧هـ/١١٩١م، على حين نجد في نسخة «كتاب المجالسة» للدينوري الموضوعة عام ٦٧١هـ/١٢٧٢م أنه أحد رواة النص في الفترة السابقة على وضع المخطوطة. وهو ما يدل على فائدة جمع المعلومات الواردة في الإجازات والسماعات والروايات وما شابه ذلك حيث يكشف المثال الذي بين يدينا عن بداية تكوين شبكة علماء.

يمكن العثور على الإجازات التي منحها ابن الجواليقي (المتوفى عام ٥٣٩هـ/١١٤٤م)، وكان من أبرز فقهاء اللغة ببغداد،[٢١] في عدد من المخطوطات مثل مخطوطة دبلن التي تتضمن صفحة العنوان فيها شهادة قراءة موقعة من ابن الجواليقي عام ٥١٤هـ/١١٢٠م[٢٢] ومخطوطة ليدن التي تحتوي على كتاب «لزوم ما لا يلزم» لأبي العلاء المعري من نسخ ابن الجواليقي قبل عام ٤٩٦هـ/٣-٢-١١٠٢م.[٢٣] ويمكن التعرف على خطه بسهولة كما يمكن تحديد تاريخ المخطوطة من شهادة بخط أستاذه وسلفه في المدرسة النظامية ببغداد الخطيب التبريزي (المتوفى عام ٥٠٢هـ/١١٠٨م).[٢٤] وتشتمل المخطوطة أيضاً على شهادة قراءة لأحد تلامذته، هو ابن الخشّاب مؤرخة في ٥١٩هـ/١١٢٥م.

ثم تنتقل المخطوطة من بغداد إلى القاهرة ويتضح ذلك من ملاحظات المالك الجديد عالم النحو ابن النحّاس (المتوفى عام ٦٩٨هـ/١٢٩٩م).[٢٥] وثمة مخطوطة أخرى في ليدن تشتمل على كتاب «الألفاظ» لعبد الرحمن بن عيسى الهمذاني (المتوفى عام ٣٢٠هـ/٩٣٢م) ونُسخت في عام ٥٥٢هـ/١١٢٨م[٢٦] وهي تحتوي في صفحة العنوان على شهادة قراءة بخط ابن الجواليقي. كما تضم المخطوطة شهادات "بلوغ" و"مقابلة" على نحو منتظم. ويمكن تحديد طول جلسات القراءة التي كانت تمتد كل منها ما بين ساعة وساعتين من هذه الشهادات. وثمة نسخة متأخرة (القرن ١١هـ/١٧م) لشهادة قراءة لابن الجواليقي يرجع تاريخها إلى صفر ١١٠٧/٥٠١ موجودة في مخطوطة بليدن MS Leiden Or. 403, F.430b تشتمل على ديوان أبي تمام مع شرح للخطيب التبريزي.[٢٧] والانطباع الذي يخرج به من شهادات لابن الجواليقي هو أن عملية النقل بالنسبة له لم تكن مناسبة اجتماعية، كما في الحالات السابقة. إذ يبدو أنه كان يميل إلى مجالسة حلقة صغيرة من المريدين يدرس لهم النصوص الهامة في عصره – ونسخته من كتاب المعري «اللزوميات» هي خير دليل على صحة ذلك بما تقتصر عليه من ورود اسم أستاذه الخطيب التبريزي وحده بين اسمه واسم المؤلف.

خلاصة واستشراف

تناولت فيما سبق موضوع الإجازة من ناحيتين، أولاهما ناحية التاريخ الثقافي، والثانية من جهة الاعتبارات الخاصة بعلم المخطوطات. وإني أعتقد أن كلتا النظرتين ضرورية وأن كلا منهما تكمل الأخرى من خلال تفاعلهما المشترك. ويبين تاريخ الإجازه نفسه أنه لا يمكن عزل هذين الجانبين الواحد عن الآخر. فالإجازة مصدر هام لتاريخ شبكات الثقافة والدراسة، وهي تكفل لنا المعلومات المطلوبة لتكوين صورة متكاملة عن محيطها الثقافي الشامل.

وتستحق الإجازة باعتبار كونها فيما مضى آلية لنشر العلم أن تُدْرسَ على نطاق أوسع بكثير مما تم حتى الآن. ويتعين على أمناء المكتبات أن يجمعوا إجازات المخطوطات الموجودة لديهم وينشروها. وينبغي أن لا يكون النشر مقصوراً على تحليل بيانات الشهادات كما فعل فاجدا وماكيه بل تتعدى ذلك لتشمل أيضاً نشر النسخة الكاملة للنصوص العربية. وعندئذ فقط يمكن أن يبدأ

تنفيذ أهم مشروع ألا وهو إعداد فهرس تراكمي للمادة البيوببليوغرافية الواردة في تلك الشهادات وسيكون هذا الفهرس بمثابة إضافة قيمة إلى المراجع البيوبليوغرافية المتوفرة حالياً. إن نشر عدد كبير من الإجازات لقمين أن ييسر لنا العلم بالمصطلحات الفنية المستخدمة، وهذا بدوره حريٌ أن يعمق من معرفتنا بوظيفة الإجازة في المخطوطات العربية.

إن الحد الأدنى من متطلبات عملية النشر تلك يستلزم أولاً توفير النصوص الكاملة مع صور فوتوغرافية جيدة، لعدد كبير من الإجازات، وهو ما يشكل أساس المشروع. وفي المقام الثاني يلزم أن تشتمل عملية النشر على عدد من مستلزمات البحث مثل وصف موجز للمخطوطات المعنية، وفهرس بأسماء الأشخاص الضالعين في إصدار الإجازات ووظائفهم، وفهرس بالأماكن التي تنقلت بينها المخطوطات الحاوية للإجازات على مر الزمن، إلى جانب معجم بالمصطلحات الفنية المستخدمة.

غير أنني أعتقد أن مهمة دراسة الإجازات لن تكون مثمرة ما لم يكن الباحث على دراية بشروط الإجازات[٢٨] وبالبيئة الثقافية التي أفرزتها ولديه في نفس الوقت خبرة واسعة مكتسبة من العمل في ميدان المخطوطات. كما أعتقد أن محققي النصوص التي تشتمل على إجازات ليسوا هم دائماً أنسب الأشخاص للقيام بهذه المهمة رغم اختصاصاتهم اللغوية إذ أن هناك الكثير من النصوص المطبوعة التي إما تجاهلوا إجازاتها أو أساءوا فهم مضمونها. أما بالنسبة للمتخصصين في علم المخطوطات فإن الأمر مختلف إذ أن تدريبهم المهني قد عودهم على النظر فيما وراء نص المخطوطة. وفي إطار الجهود المبذولة لرفع المستوى المهني لعلم المخطوطات فإني اعتقد أنه من الضروري أن تجمع الأعمال المرجعية من قِبل إخصائيين محترفين في علم المخطوطات.

الحواشي

(١) لا يوجد كتاب مخصص لتناول «الإجازة» ولا نصوص بإجازات منشورة إلا أن هناك بعض المراجع المفيدة بهذا الشأن مثل: عبد الله فيّاض، «الإجازات العلمية عند المسلمين» بغداد ١٩٦٧. (يجري التركيز في هذا المرجع على الشيعة).

P. A. MacKay, *Certificates of Transmission on a Manuscript of the* Maqāmāt *of Ḥarīrī, MS.* Cairo, Adab 105, Transactions of the American Philosophical Society, New Series, LXI/4 (Philadelphia, 1971);

صلاح الدين المنجد، «إجازات السماع في المخطوطات القديمة» مجلة معهد المخطوطات العربية، ١٩٥٥/١٣٧٥، ٢٣٢-٢٥١.

J. Pedersen, *The Arabic Book* (Princeton, 1984), esp. 31-4;

قاسم أحمد السامرائي، «الإجازات والتطورات التاريخية» عالم الكتب، ٢ (١٩٨١)، ٢٧٨-٢٨٥. ثمة أمثلة كثيرة على الإجازة يمكن العثور عليها في كتاب

A. J. Arberry, *A Handlist of the Arabic Manuscripts of the Chester Beatty Library* (8 vols., Dublin, 1955-66).

تناول جورج مقدسي استخدام الإجازة في نظام التعليم الإسلامي في كتابه:

George Makdisi, *The Rise of Colleges. Institutions of Learning in Islam and the West* (Edinburgh, 1981),

بينما يقدم جورج فاجدا تحليلاً لمحتوى عدد كبير من الإجازات التي وردت في ٧٢ مخطوطة:

Georges Vajda, *Les certificats de lecture et de transmission dans les manuscrits arabes de la Bibliothèque Nationale de Paris (Paris, 1956).*

أود أن أنتهز هذه الفرصة كي أتوجه بالشكر إلى الدكتور ليون بسكنز (Léon Buskens) الأستاذ المحاضر في القانون الإسلامي في جامعة ليدن وذلك لوضعه تحت تصرفي عدداً من الإجازات المنشورة أو النصوص ذات الصلة بالإجازات والتي جاءت من مكتبته الخاصة.

(٢) انظر: ابن الأكفاني، «إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد» تحقيق ج. ج. ويتكام، (ليدن، ١٩٨٩)، ٤٤٦، رقم ١٩١.

(٣) انظر استخدام تلك السجلات وما حاط بها من شكوك في: البلخي (المتوفى حوالي ٣١٩هـ/٩١٣م)، «كتاب قبول الأخبار ومعرفة الرجال» مخطوطة القاهرة، دار الكتب المصرية، مصطلح ١٤م، في مواضع مختلفة. سأتم تحقيق النص للنشر قريبا.

(٤) نشر في حيدر أباد سنة ١٣٢٥-١٣٢٧هـ (١٩٠٧-١٩٠٩م) في ١٢ مجلداً.

(٥) انظر: Ch. Pellat, s.v. "Fahrasa", *Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed (EI^2), (Leiden and London, 1960-), II, 743-4.

(٦) يلاحظ أن هذا النوع من أدب الرحلات قد تطور بشكل خاص في الجزء الغربي من العالم الإسلامي. إذ أن المسافة الطويلة التي تفصل تلك البلدان عن شبه الجزيرة العربية قد جعلت الحج مسألة جدية تتطلب التفكير وأعمال الذهن.

(٧) هناك العديد من السلاسل المعروفة، وللصوفيين سلاسل خاصة بهم. وقد قمت بتحليل ونشر سلسلة حسن كافي الأقهصاري (المتوفى ١٠٢٥هـ/١٦١٦م) وهو عالم حنفي بوسني وذلك في

Manuscripts of the Middle East (MME), IV (1989), 85-114

(٨) انظر: عبد العزيز الأهواني، «كتب برامج العلماء في الأندلس»، مجلة معهد المخطوطات العربية، ١٩٥٥، ٩١-١٢٠، ٢٥٢-٢٧١.

(٩) مخطوطة مونتريال، مكتبة جامعة ماك غيل رقم AC156 وهي عبارة عن دبلوم منفصل حلله ونشر محتوياته آدم جاتشك

Adam Gacek, "The Diploma of the Egyptian Calligrapher Ḥasan al-Rushdī", *MME*, IV (1989), 44–55.

هناك مخطوطة أخرى هي مخطوطة ليدن الموجودة في مكتبة الجامعة: MS Leiden, University Library, Or. 11.121. وهي عبارة عن مجلد صغير ربما كان مصدره إستانبول. وهو يحتوي على إجازة في قراءات القرآن حصل عليها أبو بكر لطفي أفندي بن السيد عمر الصنوبي من أستاذه إسماعيل حقي بن علي في محرم سنة ١٢٦٠هـ/١٨٤٤م.

(١٠) من الممكن أن يكون الجزء كشكل مستقل، قد تطور عن ذلك التقليد القديم، حيث كانت تكتب الإجازة أو السماع على كل جزء (بمعنى الملزمة) من المخطوط. ويشار إلى هذه المخطوطات باسم «المجزءات» أي المقسمة إلى أجزاء، وكان هذا النوع من المخطوطات منتشرا، ونراه في مخطوطة ليدن Or.122 (مكارم الأخلاق) وOr.12.644 (تاريخ مدينة دمشق). وتحتوي كل ملزمة في هذين المخطوطين على عدد متشابه من الإجازات. ولكل ملزمة صفحة عنوان خاصة بها، تنقسم بها المخطوطة إلى عدد من الأجزاء المتساوية – ولا علاقة لهذا التقسيم بتقسيم النص إلى فصول أو أبواب وما إلى ذلك. وجدير بالذكر أن القرآن الكريم يقسم إلى أجزاء، كما يقسم إلى سور وآيات.

(١١) ذكر الأستاذ صلاح الدين المنجد التعبيرين: إجازات وسماعات في بحثه «إجازات السماع في المخطوطات القديمة» تحت رقم ١٠ و١١.

(١٢) انظر مقالتي:

"Lists of Books in Arabic Manuscripts", *MME*, V (1990-1), 121–36,

ولا سيما القسم الخاص بالاجازة والسيرة الذاتية: '*Ijāzāt and autobibliography*' pp. 126–30

حيث ناقشت وثيقة من القرن ٨ هـ/١٤م تتعلق بهذا الموضوع. هناك سيرة ذاتية أخرى بشكل إجازة نسخت في دمشق سنة ١١٦٩هـ/١٧٥٦م، انظر:

MS Dublin, Chester Beatty Library, no. 3488 (cf. Arberry, *Handlist*, II, plate 63).

(١٣) في كثير من الأحيان يتعذّر التمييز بين النسخة (أو ما يعرف بالمثال أو الصورة) وبين الإجازات الأصلية.

(١٤) يقدم ماكيه MacKay تحليلاً شاملاً لإجازة مخطوطة القاهرة الموجودة في دار الكتب المصرية، أدب ١٠٥ (انظر ١ أعلاه) والتي تحتوي على نسخة معاصرة من «المقامات» للحريري (المتوفى ٥١٢هـ/١١٢٢م). ويعتبر هذا التحليل مثالياً من حيث مراجعه وأسلوبه المنهجي. وتوفر مجموعة شهادات فاجدا (انظر ١ أعلاه) ثروة من المعلومات.

(١٥) R. Y. Ebied & M. J. L. Young, "New Light on the Origin of the Term 'Baccalaureate'", *The Islamic Quarterly*, XVIII (1974), 3-7.

(١٦) انظر: Vajda, *Certificats de lecture*, 65–6.

(١٧) انظر: MacKay, *Certificates of Transmission*, 9.

(١٨) مخطوطة إستانبول متحف طوبكابي سراي Topkapı Sarayı Library, Ahmet III A 143.
وتبدو هذه الإجازة كما لو كانت نسخة (مثالا). وقد نشر فؤاد سزكين صورة طبق الأصل عن المخطوطة:

Fuat Sezgin, Publications of the Institute for the History of Arabic-Islamic Science, Series C, XII (Frankfurt am Main, 1985).

(صورة الإجازة ص ٤١٨-٤١٩). وحقق النص جون برتون:

John Burton, *Abū 'Ubaid al-Qāsim b. Sallām's* K. al-nāsikh wa-l-mansūkh *(MS. Istanbul, Topkapı, Ahmet III A 143)*, E. J. W. Gibb Memorial Series, New Series, XXX (Cambridge, 1987).

قدم برتون شهادات القراءة الخاصة بمخطوطة طوبكابي في الصفحات ١٠١-١٠٣ من كتابه كما حلل مضمون هذه الشهادات وحدد هوية معظم الأشخاص الذين ذكرت أسماؤهم في الصفحات ٥٢-٥٣ من مقدمته.

(١٩) هذه هي المخطوطة التي أشار إليها صلاح الدين المنجد، «إجازات السماع» (انظر ١ أعلاه) والتاريخ ٣٧٢هـ الذي ذكره غير صحيح لأن المخطوطة تبين بوضوح أن التاريخ هو ٣٩٢هـ.

(٢٠) MS Istanbul, Topkapı Sarayı Library, Ahmet III, No. 618.

وقد نشر فؤاد سزكين صورة طبق الأصل عن المخطوطة:

Fuat Sezgin, Publications of the Institute of the History of Arabic-Islamic Science, Series C, XXXVIII (Frankfurt am Main, 1986).

(٢١) انظر: C. Brockelmann, *Geschichte der arabischen Litteratur*, I (Weimar, 1898), 280.

(٢٢) Chester Beatty Library, No. 3009 (Arberry, *Handlist*, I, plate 1).

انظر أيضاً: S. A. Bonebakker, "Notes on Some Old Manuscripts of the *Adab al-kātib* of Ibn Qutayba, the *Kitāb aṣ-ṣinā'atayn* of Abū Hilāl al-'Askarī and the *Mathal as-sā'ir* of Ḍiyā' ad-Dīn ibn al-Athīr", *Oriens*, XIII-XIV (1960–1), 159-94.

وتجدر الإشارة أن الملاحظات في مخطوطة دبلن قد حققها Bonebakker في الصفحة ١٦٥.

(٢٣) University Library, Or. 100.

انظر أيضاً: S. M. Stern, "Some Noteworthy Manuscripts of the Poems of Abu'l-'Alā' al-Ma'arrī", *Oriens*, VII (1954), 322-47.

(٢٤) نشر الكاتب شهادة القراءة في:

Seven Specimens of Arabic Manuscripts (Leiden, 1978), 11.

(٢٥) انظر: Stern, "Some Noteworthy Manuscripts", 343–4.

(٢٦) MS Leiden Or. 1070 (P. Voorhoeve, *Handlist of Arabic Manuscripts in the Library of the University of Leiden and Other Collections in the Netherlands* [Leiden, 1957], 10).

(٢٧) Voorhoeve, *Handlist*, 62.

(٢٨) كما بين ذلك صلاح الدين المنجد، «إجازات السماع»، ص ٢٣٤-٢٤١.

أهمية صفحة العنوان (الظهرية) في توصيف المخطوطات

رمضان ششن

تأتي دراسة مقدمة الكتاب وصفحة العنوان والصفحة الأخيرة من المخطوطات في الدرجة الأولى من الأهمية عند توصيفها وتثبيت هويتها لأن المقدمة كثيرا ما تحتوي اسم الكتاب واسم مؤلفه، كما تدلنا على موضوع الكتاب وأبوابه وأقسامه. أما الصفحة الأخيرة فكثيرا ما تحمل اسم الناسخ للكتاب وتاريخ الفراغ وموضوع كتابته وقيودا أخرى مثل قيود الرواية والسماع والقراءة وغيرها.

أما صفحة العنوان أي الظهرية فنرى فيها اسم الكتاب ومؤلفه في الدرجة الأولى، كما نرى قيود الرواية والسماع والقراءة والمناولة والإجازة والتملك والمطالعة والانتقاء والاستفادة والنظر والوقف واسم المستنسخ وقيودا أخرى مثل ضروب الأمثال والأبيات النادرة والولادة والوفاة وترجمة المؤلف مختصرا وحادثة تاريخه وغيرها في الدرجة الثانية. ونستعين بكل ذلك على تثبيت هوية المخطوطة وتاريخها. بناء على ذلك سنتحدث عن كل هذه العناصر تبعا لدرجات أهميتها.

١ - اسم الكتاب ومؤلفه:

يذكر الناسخون اسم الكتاب واسم مؤلفه في صفحة العنوان ولا يهملونهما إلا في أحوال نادرة. كما يكتبون اسم صاحب المخطوطة أو الخزانة التي كتبوا النسخة لهما. وإذا حدث وأهمل المستنسخ اسم الكتاب واسم مؤلفه في صفحة العنوان فإننا نرى أحيانا أن يقوم أحد العلماء بكتابتهما إذا قرأ النسخة أو طالعها. وهذه هي بعض النماذج:

خزانة كوبريلي، رقم ١٥٠٧:

«الجزء الأول من كتاب المقتضب في النحو، صنعة أبي العباس محمد بن يزيد المبرد. كتبه المهلهل بن أحمد لأبي الحسين بن الحسين العلوي».

خزنة كوبريلي، رقم ١٢٠٩:

«كتاب إصلاح المنطق، تأليف أبي يوسف يعقوب بن إسحاق السكيت. وفيه أيضا كتاب النوادر لأبي مِسحل بن حريش. كان صدر النسخة: قرأت على أبي سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي في سنى نيّف وخمسين وثلاث مائة، قابلت بأصله. قال: قرأته على بندار بن لزه قال قرأت على أبي يوسف يعقوب بن إسحاق السكيت. قال: هذا باب فَعْل وفِعل...».

خزانة قليج علي، رقم ٦٨٤:

«كتاب نهاية الانتفاع لابن الكتاني، مما عمل برسم الجناب العالي القضائي الرئيسي برهان الدين إبراهيم الشهير بالبتنوني أعزه الله تعالى».

خزانة مراد ملا، رقم ٦:

«هذا الكتاب وهو الحجة في شرح القراءات السبعة لأبي علي الفارسي رحمه

الله أربعة أجزاء بخط طاهر بن غلبون المصري النحوي. وكان هذا الرجل ماهرا بالقراءات وبالعربية يدري ما يكتبه. وكان على كل جزء منها اسمه في آخره... هذا خط علي بن جعفر بن الحسين بن النوري النحوي رحمه الله».

ويستفاد من النموذج الأخير أن العنوان وما بعده لم يكتب على يد الكاتب بل كتبه علي بن جعفر بن الحسين.

خزانة كوبريلي، رقم ١١٦٣:

«الجزء الرابع من كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي. برسم الأشرف الجمالي محمود أستاذ دار العالية الملكي الظاهري».

ونرى أحيانا في عنوان الكتاب ومؤلفه خطأ كما وقع في كتاب نسخة تقويم الصحة تحت رقم ٢/٩٦٠، من ٥١ آ إلى ٩٢ ب من مكتبة كوبريلي المكتوبة لخزانة السلطان محمد الفاتح، إذ يذكر الكاتب في العنوان أنه من تأليف يعقوب بن إسحاق الكندي وهو خطأ. والصحيح أن المؤلف هو ابن بطلان. ونرى أيضا مجموعة من مؤلفات علي بن جعفر بن علي بن القطاع تحت رقم ١٦٨٥ من خزانة فيض الله أفندي. ذكر الكاتب في صفحة العنوان أن اسم المؤلف هو «أبو عبد الله محمد عبد الله بن أبي عبد الله» خطأ رغم أنه ذكره في آخر الكتاب بشكل صحيح. ثم طالع المجموعة آخر وزاد تحت العنوان قيدا ذكر فيه «ليس هذا اسم ابن القطاع بل اسمه ابو القاسم علي بن جعفر بن علي السعدي». هكذا صحح الخطأ. وفي مكتبة ولي الدين أفندي، رقم ٣٦٢١، مجموعة فيها كتب نادرة بينها كتاب الآمل والمأمول للجاحظ والصحيح أن الكتاب ليس للجاحظ بل للمرزباني أو لرجل جاء بعده. ثم نرى نسخة كتاب «عين الحياة» في تفسير القرآن لنجم الدين الكبرى تحت رقم ٤٩ من مكتبة كوبريلي لم يذكر الكاتب اسم مؤلفه في صفحة العنوان ثم جاء رجل وزاد قيدا ذكر فيه أن الكتاب لنجم الداية الرازي خطأ. لهذا يجب أن لا نعتمد عنوان الكتاب كليا بل نقارنه بالشكل المذكور في مقدمة الكتاب أو في المراجع الأخرى.

واستعمل المؤلفون أيضا في مقام كلمة التأليف في المخطوطات كلمات أخرى نحو تصنيف، إنشاء، نظم، إملاء، تخريج، جمع، عمل، عنى بجمعه، مما عني بجمعه، مما اعتنى بجمعه، تحرير، صنعة، إنشاء، شرح، تفسير، تحشية، تعليق، اختصار، تلخيص، انتقاء، استثمار، تجريد، تهذيب، اقتضاب، تميزة انتخاب، اختيار، نقل، ترجمة تعريب. ولا شك أنه لكل هذه الكلمات معان خاصة تميزها عن الأخرى، فهي تشير إلى كيفية التأليف أو الترجمة، كما تدلنا على كيفية تحرير الكتاب.

٢ – قيود الرواية والسماع والقراءة والإجازة:

تأتي في صفحة العنوان بعد اسمي الكتاب والمؤلف قيود الرواية والسماع والقراءة والإجازة. وهي قيود يستفاد منها أن الكتاب قد وصل إلى الكاتب بدون تحريف كما صححت النسخة وقوبلت. ونرى هذه القيود بوجه خاص في كتب الحديث وكثير من مؤلفات التاريخ والفقه والعقائد التي صنفت إلى أواخر القرن السابع. ويجب علينا أن نذكر أسماء ابن عساكر وأبي طاهر السلفي والمديني بين رواة كتب الحديث واسمي تاج الدين أبي اليمن الكندي وابن العديم بين رواة كتب التاريخ والقراءات واللغة. وهذه نماذج مختلفة عن قيود الرواية والسماع والقراءة:

خزانة كوبريلي، رقم ٣٦٦:

«كتاب صحيح الأمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري القشيري. رواية أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن سفيان الفقيه عنه. رواية أبي أحمد محمد بن عيسى بن عمروية الجلودي عنه. رواية أبي الحسين عبد الغافر بن محمد الفارسي عنه. رواية أبي عبد الله محمد بن الفضل الصاعدي الفراوي عنه. رواية أبي الحسن المؤيد بن محمد بن علي الطوسي عنه. رواية الشيخ الإمام العالم الحافظ شرف الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد ابن أبي الفضل السلمي الأندلسي ثم المرسي عنه. سماع الأمير الأجل الأوحد الأخضر الكبير الإسفهلار المجاهد المرابط المناضل المؤيد المنصور

جمال الدين عمدة الملوك اختيار السلاطين صفوة أمير المؤمنين آيوغدي العزيزي.

سمع جميع هذا الكتاب على الشيخ الفقيه الإمام العامل الورع الزاهد فقيه السلف الصالح شرف الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي الفضل السلمي الأندلسي المرسي نفع الله ببركته بقراءة الشيخ الإمام الكامل محي الدين محمد بن محمد بن إبراهيم بن الحسين بن سراقة الأنصاري الشاطبي. وسمع كل واحد منهما ما قرأه الآخر بحق سماعه له من أبي الحسن المؤيد الطوسي كما بُيِّن أعلاه. فسمعه السادة الأجلاء صاحبه... وصح ذلك وثبت في مجالس متعددة آخرها ليلة الثلاثاء المسفرة عن العشرين من شهر رمضان المعظم الذي من سنة اثنتين وخمسين وستمائة بالقاهرة المعزية بدار الحديث الكاملية والمدرسة الصالحية قدس الله روحهما. وأجاز الشيخ وفقه الله للجماعة المذكورين جميع ما يجوز روايته بشروطه وتلفظ بذلك حال السؤال... صحيح ذلك وكتب محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر الفضل».

خزانة شهيد علي، رقم ٢٧٦٣:

مجموعة من الرسائل الاعتقادية للحنابلة، وكلها من النوادر غير أن أحدا لم يدرسها حتى الآن كما ينبغي والأولى منها:

«كتاب الاعتقاد المروي عن الإمام أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني رحمه الله في أصول الدين إملاء الشيخ أبي الفضل عبد العزيز التميمي رضي الله عنه. تخريج علي بن أحمد بن علي الأسدي رضي الله عنه. نقل من أصله الذي عوض به الأصل الذي نقل عنه وهو بسماع الشيخ أبي القاسم علي بن أحمد بن علي الأسدي من الشيخ الجليل أبي محمد رزين بن عبد الوهاب بن عبد العزيز التميمي يوم السبت من النصف من ذي الحجة من سنة تسع وخمسين وأربع مائة. وعليه وكتب أحمد بن الحسن بن خيرون بخطه في التاريخ».

خزانة مراد ملا، رقم ٥٦٩:

«الجزء الأول من كتاب غريب الحديث تأليف الشيخ الإمام أبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البخاري. رواية الشيخ أبي عمر محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن أحمد بن موسى الزرجاهي الفارسي عنه. سماع لصاحبه أبي القاسم الفضل بن عبد الله بن سعد بن عيسى الصائفي الطبري».

خزانة فيض الله أفندي، رقم ٥٠٤:

«الجزء الأول من كتاب المجالسة تصنيف أبي بكر أحمد بن مروان ابن مالك الدينوري. رواية الشيخ أبي محمد الحسن بن إسماعيل بن محمد الغراب عنه. رواية الشيخ النسيب أبي الحسين القاسم علي بن إبراهيم عن رشاء. ورواية أبي الحسن علي بن الحسين بن عمر الموصلي الفراء عن أبي القاسم عبد العزيز بن الحسن عن أبيه. رواية الحافظ أبي القاسم بن عساكر عن النسيب ورواية البوصيري والارتاخي عن الفراء. رواية الشيخ أبي بكر عتيق بن أبي الفضل بن سلامة عن الحافظ أبي القاسم. ورواية الشيخ أبي القاسم عبد المغني بن ابن سليمان بن بنين عن البوصيري والارتاخي. سماع لمحمد بن محمد بن أبي بكر الفاريابي الأبيوري ثم الكوفي عنهما وعن غيرهما كما سيأتي».

خزانة فيض الله أفندي، رقم ٥٠٦: مجموعة تتضمن أجزاء الحديث. الأول منها:

«الجزء الأول من حديث ابي بسطام شعبة بن الحجاج العتكي. تخريج أبي الحسين محمد بن المظفر بن موسى الحافظ عن شيوخه. رواية أبي محمد

الحسن بن علي بن محمد الجوهري الشيرازي عنه. رواية أبي غالب أحمد بن أبي علي الحسن بن أحمد بن البناء عنه. رواية أبي العباس أحمد بن أبي الفائز بن عبد المحسن بن أكبري عنه. سماع منه لصاحبه الشيخ الإمام العالم موفق الدين أبي بكر أحمد بن محمد بن عمر البغدادي نفعه الله به. سمع جميع هذا الجزء من أوله إلى آخره ويشتمل على ثلاثة كراريس من هذه النسخة على الشيخ الصالح الفقيه أبي محمد عبد الرحمن بن مسعود بن سرور بسماعه من أبي غالب أحمد بن البناء بقراءة كاتبه محمد بن عبد السيد الزيتوني وأبي الخير مبارك بن مسعود بن مبارك الرصافي وعبد الرحمن بن عمر بن أبي بكر المعروف بشاب الشباب ومحمود بن بركة بن سعادة وذلك في ذي القعدة سنة ثمان وثمانين وخمسمائة وصح وتمت. سماع عبد الصمد بن عبد اللطيف بن محمد بن العبدي الحموي. سماع عبد العزيز بن عد القادر بن أبي الكرم بن أبي ذر الربعي البغدادي».

خزانة كوبريلي، رقم ١٥٠٧-١٥٠٨: كتاب المقتضب في النحو للمبرد مرتب على جزئين على كل واحد منهما:

«قرأت هذا الجزء من أوله إلى آخره وأصلحت ما فيه وصححته. فما كان فيه من إصلاح وتخريج بغير خط الكتاب وهو بخطي. وكتب الحسن بن عبد الله السيرافي. خط أبو سعيد أيده الله».

خزانة فيض الله أفندي، رقم ٥٠٦: مجموعة تحتوي أجزاء في الحديث الأول منها حديث أبي بسطام العتكي.

«قرأه أجمع علي القاضي المسند المعمر ملحق الأحفاد بالأحداث عز الدين عبد الرحيم بن محمد بن عبد الرحيم بن الفرات الحنفي بإجازته من أم محمد ست العرب بنت محمد بن علي البخاري وتفرد بذلك... شمس الدين

محمد بن محمد بن محمد ابن محمد السنباطي وآخرون وأجاز لنا جميع ما يرويه وصح ذلك في يوم الثلاثاء ٢٦ ذي الحجة سنة خمسين وثمان مائة بمجلس المسمع... أجاز في باب الفتوح. وكتبه محمد بن عبد الرحيم بن محمد بن أبي بكر بن عمر السخاوي الشافعي».

خزانة فيض الله أفندي، رقم ١٦٨٥: مجموعة من مؤلفات ابن القطاع. نرى في صفحة العنوان في المؤلف الأول القيد الآتي:

«قرأه العبد الفقير إلى الله تعالى المستعين بربه الأعلى الفاتح أبو بكر بن علي الصالحي قراءة بحث من أوله إلى منتهاه في شعبان المكرم سنة لبوبك من الهجرة النبوية».

خزانة أحمد الثالث، رقم ١٦٨٥: مجموعة في كتب الحديث. نرى في صفحة العنوان القيد التالي:

«قرأت جميع سؤالات ابن الجندي ليحيى بن معين... بسماعه على ابن محمد بن وراج (رواح) بسنده... أيضا وأجاز المسمع لكتابه ما قرأه وما يجوز له وعنه روايته رابع عشر شعبان سنة اثنتي عشرة وتسع مائة. وكتب محمد بن أحمد بن محمد المظفري. صح ذلك وكتبه إبراهيم بن أبي شريف الشافعي حامدا. قرأت السؤالات أجمع كاتبه محمد المظفري من أصل آخر».

وبينما نجد قيود الإجازة في أواخر قيود السماع والقراءة كما وردت في النماذج السابقة، نرى أحيانا إجازات مستقلة في الكتب المخطوطة يعطيها العلماء إلى علماء يعيشون في أماكن بعيدة بدون سماع وقراءة اعتمادا بهم كإجازة الزمخشري لأبي طاهر السلفي وإجازة ابن العربي للملك المظفر شهاب الدين الغازي الأيوبي وغيرهما (فهرس مخطوطات مكتبة كوبريلي، ١:٣٧٢-٣٧٣، ٢:٣٠٧).

٣ – قيد المناولة:

قيد المناولة هو من القيود المهمة التي نراها في صفحة العنوان. وهو أيضا من القيود التي تقوي صحة الكتاب ونسخته كما يلي:

خزانة كوبريلي، رقم ١١: كتاب الوقف والابتداء...، تأليف أبي بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار الأنباري. «ناول هذا الكتاب الشيخ الفقيه الإمام العالم الكبير المحدث الورع جمال الدين أبو محمد عبد المجيب بن أبي القاسم بن زهير الحربي رسول الخلافة العباسية البغدادي رفعه الله للفقيه سراج الدين أبي الطاهر إسماعيل بن علي بن يوسف المهدوي الحميري ولمجد الدين أبي محمد عبد الله بن محمد بن صدقة الخزرجي ولمحمد بن مرتفع بن جبريل ولعبد الرحمن بن أبي بكر... والكاتب السماع العبد الفقير إلى رحمة الله تعالى مرتفع بن جبريل بن قراتكين وذلك في سلخ شوال سنة ثلاث وستمائة. صحيح ذلك وكتب عبد المجيب بن أبي القاسم. إسناد الشيخ الفقيه... عن الشيخ أبي الفضائل بن هبة الله... بن بركات بن هلال النحوي عن أبي الحسن علي بن صالح الروذباري عن أبي مسلم محمد بن أحمد بن علي الكاتب عن ابي بكر مصنفه».

يعني بالإسناد الرواية.

٤ – قيود التصحيح والمقابلة والمعارضة:

ونرى أيضا في صفحة العنوان قيود التصحيح والمقابلة والمعارضة كلها تؤيد صحة النسخة. وأحيانا يقارن الكاتب نسخته بنسخ عديدة ويكتب التصحيحات والاختلافات على هوامش صفحاتها. وهذه نماذج لها:

خزانة مراد ملا، رقم ١٤١٠: كتاب النجاة لابن سينا بخط رضوان بن محمد بن علي الخراساني المعروف بابن الساعاتي. «قوبلت المنطقيات من هذه

النسخة بخط المستنسخ رحمه الله وقوبلت الطبيعيات والإلهيات بنسخة مقروءة على المؤلف وعليه خطه بالإجازة على هذه الصورة: قرأ عليّ هذا المجموع قراءة فهم... الصاحب أبو عبيد نفعه الله. وكتبه أبو علي الحسين بن سينا. وقوبلت النسخة بنسخ عدة وصححت مقابلة وعملا».

خزانة مراد ملا، رقم ٥٦٩: الجزء الأول من غريب الحديث للخطابي. «توليت عرضه بأصل الشيخ الفقيه أبي عمرو الزرجاهي رضي الله عنه المسموع لي فيه بنفسي وتصحيحه على قدر جهدي ووسعي إلى آخره».

خزانة كوبريلي، رقم ٣/١٢١٠: شرح المقامات للزمخشري. «ابتدأت على معارضة الشرح ظهر يوم الأربعاء من وسط ذي القعدة سنة إحدى وثمان مائة بكرمان».

خزانة كوبريلي، رقم ١٥٠٧: الجزء الأول من المقتضب في النحو للمبرد. «قابلت هذا الجزء من أوله إلى آخره وصححته في سنة سبع وأربعين وثلاث مائة. وكتب الحسن بن عبد الله السيرافي. عارض به نسخته داعيا محمد بن أبي بكر عبد الله بن محمد الناصري سنة ٨٠٤. عارض هذا الجزء والذي يليه وصححها في سنة سبع وأربعين وثلاث مائة. كتب الحسن بن عبد الله السيرافي».

خزانة كوبريلي، رقم ١٥٣٥: جزء من تهذيب اللغة للأزهري. «عورض بدستور المصنف المنقول منه وبنسخة أبي زكريا (الخطيب التبريزي) وألحق ما كان فيها وبنسخة أخرى على سقمه في الجميع وزيادات ونقصان».

٥ - قيود المطالعة والنظر والانتقاء:

ومن القيود التي نجدها في صفحة العنوان قيود مطالعة ونظر وانتقاء. ونرى أيضا كثيرا من المطالعين ينتقون من النسخة معلومات للكتب التي يريدون تأليفها كما في النماذج التالية:

خزانة مراد ملا، رقم ١٤١٠: كتاب النجاة لابن سينا. «طالعه وكتب منه ما يحتاج إليه حسن بن محمد النابلسي الخصكي».

خزانة قليج علي، رقم ٦٨٤: كتاب نهاية الانتفاع في معرفة فضل الدائرة من الفلك من قبل الارتفاع. «طالع في هذا الكتاب المبارك العبد الفقير إلى ربه الغني أبو الطاهر محمد بن محمد بن بهادر المؤمني الشافعي... بتاريخ يوم الجمعة قبل الصلاة ورابع عشر شهر شعبان المكرم سنة أربع وثمان مائة».

خزانة كوبريلي، رقم ٢٩: كتاب المحتسب لابن جني. «طالعه أحمد بن حسن بن يوسف القدسي النقاش بجامع الحريرة بالعقيبة... وعلي بن عماد الدين الدمشقي».

خزانة كوبريلي، رقم ٩٨٣: جامع مفردات الأدوية لابن البيطار. «تشرف بمطالعته بطريق التملك الفقير... عوض بن يوسف الشامي المدرس بقسطنطنية».

خزانة كوبريلي، رقم ١١١٥: ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب. «ملكه وطالعه وأسفر من فوائده إبراهيم بن مفلح الحنبلي. استوعبه وانتقى ما فيه من المفسرين محمد بن علي بن أحمد الداودي. طالعه وانتقى من فوائده عبد الوهاب».

خزانة كوبريلي، رقم ١١٦١ - ١١٦٥: معجم البلدان لياقوت الحموي. «فرغ منه وما قبله مطالعة ومنتقيا خليل بن أيبك الصفدي.

خزانة كوبريلي، رقم ١٢٠٠: كتاب آداب السياسة للمبارك بن خليل الخازنداري الموصلي. «نظر في هذا المجلد... إبراهيم الجاوش الماردي الملكي... وكتبه في أربع عشر من شهر رمضان... سنة تسع مائة».

خزانة كوبريلي، رقم ١٢٠١: كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة. «نظر في هذا الجزء... محمد بن عالي... المحرم من يوم ثاني عشر جمادى الأولى سنة ثلاث وثمان مائة.

نظر في هذا الكتاب... محمد بن عبد العزيز».

خزانة كوبريلي، رقم ١٢٧٣: رسالة الغفران لأبي العلاء المعري. «قد نظر في هذا الكتاب محمد بن عبد الرحيم الغفيراوي وكان ذلك في يوم الجمعة الثالث عشر من شهر صفر سنة ٩٧٩».

٦ - قيود التملك:

ومما نرى كثيرا في صفحة العنوان قيود التملك، وهي تكتب بأشكال مختلفة نفهم منها كيف انتقلت النسخة من مالك إلى آخر. أو كيف دخلت النسخة تحت ملك صاحبها. ولهذا فقد أعطينا أهمية خاصة لتثبيتها أثناء دراسة مخطوطات مكتبة كوبريلي التي سيجد المطالعون في فهرسها نماذج كثيرة يستفاد منها في معرفة أسماء كثير من أصحاب خزائن الكتب ومحبيها في تاريخ الإسلام مثل ياقوت الحموي وتاج الدين أبي اليمن الكندي وصلاح الدين الصفدي وأبي بكر بن رستم بن أحمد الشرواني وحسين چلبي ونوعي

زاده عطاء الله والويسي. وقد اشتمل الناسخون الكلمات التالية كلها بمعنى التملك:

تملكه، انتقل، ملكه الفقير من عواري الزمان، مما ساقه التقدير، ملك الفقير، انتظم في ملك الفقير، لأحمد بن مباركشاه الحنفي، ثم استصحبه نوعي زاده عطاء الله، تملكه بالاستكتاب، من ملك، صاحبه، ثم انتقل، ثم بعد ذلك دخل في ملك، دخل في ملك، تشرف بملكه أو بتملكه، في نوبة، من ودائع الدهر، مالكه، اشتراه، ثم استودعه الله، انتقل هذا الكتاب بالشراء الشرعي، ثم آل في نوبة الفقير، صار في نوبة، انسلك في سلك، في سلك ملك، ثم استسلك في سلك، مما سلطه التقدير، ثم شرف الله عبده بتملك هذا السفر، من كتب خليل بن آبيك الصفدي، لياقوت الحموي، هذا المجموع المبارك أهداه إليّ المولى الفاضل... عبد الحي بن عبد الكريم بن علي بن المؤيد بآمد، انتقل بالبيع، من متحصلات الفقير، استصحبه عماد الدين رشيد الطبيب. هذه نماذج لبعض قيود التملك:

خزانة كوبريلي، رقم ٩٢٦: الدر المنظم في السر الأعظم لمحمد بن طلحة. «تشرف باستصحاب هذا الكتاب العبد الفقير... عطاء الله بن نوعي القاضي بأسكوب خلال سنة ١٠٠٣».

خزانة كوبريلي، رقم ٩٦٦: شرح الأسباب والعلامات لنفيس بن عوض. «استعاره من الزمان العبد شمس الدين محمد بن المولى يحيى بن محمد البستاني في غرة صفر الخير لسنة تسع عشرة وألف بمدينة أدرنه».

كوبريلي، رقم ١٠٩٤: تهذيب سيرة رسول الله لابن هشام. «من كتب محمد بن محمد بن العمري اللقطماوي بحلب المحروسة اشتراه من فخر الدين عثمان بن الصلف المقري المؤذن بالجامع الأموي بدمشق بتاريخ خمس وعشرين من المحرم عام عشرين وثمان مائة».

خزانة كوبريلي، رقم ١٠٩٦: بساتين الفضلاء ورياحين العقلاء للنجاتي النيسابوري. «اشتريت هذا الشرح من مؤلفه الإمام حميد الملة والدين النجاتي... بالربع المبارك الرشيدي من مدينة تبريز في الخامس عشر من جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلاثين وسبع مائة. وهذا خط مالكه العبد... محمد الظهيري المدعو بعلاء الأبيوردي».

ثم نرى في المخطوطات قيود وقف لواقفي الخزانات بخطوطهم أو بخواتمهم. وقد ألف كوناي قوط Gunay Kut ونعمت بيراقدار Nimet Bayraktar كتابا في خواتم مخطوطات إستانبول نرى فيه نماذج كثيرة من الخواتم. وتشير أيضا قيود الوقف إلى أصحاب النسخة وخزائن المخطوطات أو بأي طريق وصلت النسخة إلينا كما في قيود التملك. هذه نماذج لبعض قيود الوقف:

«وقفت وقفا صحيحا وأنا الفقير أحمد سعيد أفندي محمد اغا زاده».

«وقف هذا الكتاب الحاج مصطفى عاطف بشروط أن لا يخرج من خزانته».

«وقف شيخ الإسلام فيض الله أفندي غفر الله له ولوالديه بشروط أن لا يخرج من المدرسة التي أنشأها بقسطنطينة».

«وقف مدرسة محمود باشا في بلدة قسطنطنية».

ونرى في صفحة العنوان من كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري تحت رقم ١٣٣٤– ١٣٣٢ في مكتبة كوبريلي القيد التالي:

«وقف وحبس سيد المقر الأشرف العالي الجمالي محمود الأستادار العالية الملكي الظاهري... إذ صار جميع هذا المجلد والذي قبله كلاهما كتاب الصناعتين العسكري وقفا شرعيا... العلم الشريف... بالخزانة... بمدرسة... أنشأها بخط الموازين بالشارع الأعظم بالقاهرة... بتاريخ خامس عشر شعبان سنة... تسعين وسبع مائة».

٧ – نحن نرى أيضا على صفحة العنوان قيودا تشير إلى كاتب النسخة كما ورد في المخطوطات الآتية:

خزانة كوبريلي، رقم ١٥٠٧–١٥٠٨: كتاب المقتضب للمبرد. «كتبه مهلهل بن أحمد».

خزانة كوبريلي، رقم ١٢٣٨: كتاب الحماسة لأبي تمام. «بخط العبد الفقير منصور بن أبي علي الكاتب المعروف بابن المنجنيقي».

خزانة كوبريلي، رقم ٥٤: تقريب التفسير لقطب الدين الفالي. «النسخة بخط المولى الفاضل الكامل يحيى بن القاسم العلوي المشهور في الآفاق بالفاضل اليمني».

خزانة كوبريلي، رقم ٦٠٨: مختصر غنية المتملي لإبراهيم الحلبي. «هذا بخط علي القارىء».

خزانة كوبريلي، رقم ٤٨٧: شرح الشرح العضدي على مختصر المنتهى للعلامة التفتازاني. «بخط الفاضل ملا خسرو وهو تلميذ الفاضل حيدر الهروي تلميذ الشارح العلامة».

خزانة كوبريلي، رقم ٨٣٩: شرح المواقف للسيد الشريف. «هذه النسخة بخط خواجه زاده البروسوي صاحب التهافت وما في هوامشه بخط المزبور أيضا».

خـزانة كـوبريلي، رقم ٨٨٠: كـتـاب التنقـيـحـات في شـرح التلويحـات الشهرزوري.
«والكتاب كله بخط المصنف رحمه الله».

خزانة كوبريلي، رقم ٨٨٩: المنصص في شرح الملخص للكاتبي. «والنسخة بخط المصنف الكاتبي القزويني».

خزانة كوبريلي، رقم ١٣٣٥: كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري. «هذه النسخة مؤلفها العلامة أبي هلال كتبها قبل وفاته بسنة واحدة».

خزانة كوبريلي، رقم ٨٣١: كاشف الأسرار عن معاني طوالع الأنوار لبدر التستري. «هذا شرح الطوالع لليمني المحقق مولانا بدر التستري وبخطه والحواشي بخط المحقق المرتضى العلامة الشهير بالسيد الشريف».

٨ - ونرى أيضا في صفحة العنوان قيوداً تشير إلى كيفية تأليف الكتاب وصيرورة النسخة مأخذا للكتب الأخرى كما ورد في النماذج الآتية:

خزانة كوبريلي، رقم ٤٩٩: شرح مختصر المنتهى لقطب الدين الشيرازي. «وهذا الشرح الجليل مأخذ شرح الفاضل المحقق عضد الملة والدين الإيجي وجملة شروح المختصر يزيد على العشرة أدقها شرح العضد وأبسطها هذا الشرح اللطيف».

خزانة كوبريلي، رقم ٥٢٠: النصف الأول من الكافي شرح أصول البزدوي حسام الدين السغْناقي. «كتاب الكافي شرح البزدوي لإمام الفاضل

السغنافي... بخط مؤلفه لكن العبد الفقير أبا عبد الله لما طالعه فوجده منخرطا في سلك اللآلي لكن خفي على الطالبين... لكونه مشوبا بشرحه أملى عليه يراعة القاضي ليتميز أصله عن فرعه. ثم شاهدت أنه كبير الحجم جعلته جلدين وهذا الجلد الأول. صاحب هذا الكتاب حمزة بن مولانا حسن بن مولانا حاجي إلياس. بلغ تصحيحا ومقابلة».

خزانة كوبريلي، رقم ٥٥٦: تعليقات على صدر الشريعة لقنالي زاده. «هذه تعليقات، قنالي زاده علي أفندي كتبها بعد مطالعة الكتاب استعرناها من أحد الإخوان وجردنا تعليقاته من الأصل».

خزانة كوبريلي، رقم ٥٥٨: حواش على شرح الهداية لأكمل الدين البابرتي. «بخط محمد أفندي الشهير بطرابزوني. ألفها المؤلف بعد الحاشية علي البيضاوي ورتبها أحد تلاميذه ثم بيضها».

خزانة كوبريلي، رقم ١٤٢٨: شرح التلخيص للزوزني. «شرح التلخيص للمولى محمد بن عثمان الزوزني وهو مقدم على مطول مولانا سعد الدين وعلى مختصره. أول شارحي التلخيص المولى الخلخالي ثم الزوزني ثم المولى سعد الدين».

٩ – ونجد أيضا قيودا تدلنا على أهمية الكتاب أو ندرته. نحو:

خزانة كوبريلي، رقم ١٤٣: تفسير القرآن لمقاتل بن سليمان. «هذا كتاب لا يوجد ثانيه».

خزانة كوبريلي، رقم ١٢٠٠: كتاب آداب السياسة للمبارك بن خليل الخازندار الموصلي. «هذا الكتاب الميمون الاتفاق الذي ينبغي أن يكتب في سويداء القلب وسواد الآماق... كتبه علاء الدين عطاملك».

١٠ – ونرى أيضا قيودا تشير إلى النسخة المنقولة نحو:

خزانة كوبريلي، رقم ١٢٠٨: «كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت نقلت من نسخة برواية علي بن الحارث البياري عن أبي سعيد السيرافي عن أبي بكر بن الأزهر عن بندار المنصف».

خزانة كوبريلي، رقم ٢/١٢٠٩: نوادر أبي مسحل. «نسخت هذه النسخة من نسخة بخط أبي عبد الله بن بلبل وكان على ظهرها: قرأت هذا الكتاب على أبي عبد الله بن خالويه».

١١ – وقد نرى أيضا على صفحة العنوان في بعض المخطوطات أبياتا نادرة وضروب أمثال وكلام كبار وترجمة المؤلف مختصرة وقيود ولادة ووفاة وقيودا لحوادث مهمة، كما نرى قيودا لما يتضمنه المجلد من مؤلفات إذا كانت المخطوطة مجموعة. وكل القيود المذكورة ذات أهمية من الناحية الأدبية والتاريخ. وكان يقول الأستاذ الدكتور سهيل أونور رحمه الله:

لو كتب أحد كتابا عن الأبيات النادرة وضروب الأمثال وكلام الكبار المكتوبة على صفحات العنوان في المخطوطات فإنه سيكون مؤلفا ذا قيمة كبيرة.

كتب النماذج والوثائق القانونية:
تطور مخطوطات العدول في المغرب

ليون بسكنز

يتمحور هذا البحث التمهيدي[1] الموجز على موضوع العلاقة بين علم المخطوطات من ناحية وبين دراسة المجتمع والثقافة من ناحية أخرى، ذلك أن المظهر العيني للكتب والوثائق يمثل مصدراً هاماً من مصادر المعرفة للمجتمع ولثقافته، بينما تمثل دراسة المجتمع والثقافة سبيلاً هاماً إلى فهم آليات إنتاج الكتاب في مجتمع ما.

ولسوف أستهدف في بحثي هذا – وقد وضعت نصب عيني هذا المنطلق العام– تحليل التغيرات التي طرأت على آليات إنتاج الكتاب لدى العدول أي الشهود المحترفين، أو كتّاب العدل، في المغرب منذ العصور الوسطى (بالمعنى العريض للكلمة) وحتى يومنا هذا، ولسوف أركز على ثلاثة أنواع من الكتب، هي كتب النماذج أوالصيغ formularies، والسجلات، والوثائق القانونية.

ملاحظات عامة حول الشهادات المكتوبة وكتّاب العدل في الشريعة الإسلامية

على الرغم من أن المذاهب التشريعية الرسمية لم تعتمد استخدام الشهادات المكتوبة دليلاً على الحقوق والالتزامات القانونية، إلا أن هذه الوثائق لعبت دوراً هاماً في الممارسات القانونية الإسلامية منذ تاريخ مبكر. وقد أدى استخدام الوثائق إلى ظهور فئة من الشهود أو العدول المحترفين المؤهلين، كما أدى أيضاً إلى نشوء ما يعرف بعلم الشروط أو علم الوثائق.[٢]

ازدهرت دراسة فن صياغة الوثائق القانونية بصفة خاصة في الأندلس وبلاد المغرب العربي. وعلى حين أن هذه الدراسة وما يتعلق بها من ممارسات كتّاب العدل قد اندثرت مع مرور الزمن من عامة البلدان الإسلامية، إلا أنها ما زالت في حال ازدهار في المغرب حتى يومنا هذا ولا شك أن شيوع استخدام الوثائق القانونية يجعل منها مصدراً تاريخياً قيماً، وهو ما كشفت عنه الدراسات التي قام بها محمد المنوني[٣] وغيره.

العدول والوثائق في المغرب في العصور الوسطى وحتى ١٩١٢

الوضع القانوني

كانت كتب الفقه التي وضعها فقهاء المالكية تعدّ من الناحية النظرية مصدر القانون، وكان استخدام الشهادات المكتوبة أمراً مقبولاً لدى فقهاء القانون المغاربة، وهو ما يدلل عليه مناقشاتهم حول استخدام الوثائق، وقد شارك عدد من الفقهاء البارزين والمشهورين بتقواهم في استخدام الشهادات المكتوبة عن طريق تحبير الرسائل العلمية في تبريرها إلى جانب قيامهم بأداء وظيفة كاتب العدل أنفسهم. ويمكننا أن نستدل من جهة أخرى على الصلة بين القضاة وبين العدول من كون مكاتب هؤلاء قريبة الموقع من قاعات المحاكم.

ومما يبين أهمية الوثائق القانونية في الحياة اليومية قيام أوجه للشبه بين الوثائق الخاصة بكتّاب العدل اليهود المعروفين بالسُفْرِيم وبين الوثائق الإسلامية، وذلك من حيث المظهر الخارجي.

كتب النماذج

تتميز الفترة القروسطية السابقة على عهد الاستعمار بالتنوع الشديد في الكتب الإرشادية التي كان يستخدمها العدول لاستقاء النماذج للوثائق التي يكتبونها. وكان هذا التنوع تنوعاً زمانياً ومكانياً معاً، بمعنى أن كتب النماذج أو الصيغ تلك كانت تختلف من فترة لفترة ومن منطقة لمنطقة حسب الاحتياجات والظروف المحليـة. وقـد توفـر على كـتـابة هذه الكتب الأنموذجـيـة بعض من الأساتذة ذائعي الصيت والمحترمين من أمثال الونشريسي.

يمكن التدليل على التنوع الزمـاني إذا مـا نظرنا إلى كـتـاب النمـاذج المعنون «الوثائق الفاسية»، والذي كان يستخدم كدليل لصياغة الوثائق من قبل العدول في مدينة فـاس، فهذا العنوان يشـير إلى مـا لا يقل عن ثلاثة من كـتب النماذج كتبت في فترات متعاقبة.[٤] أما التنوع المكاني فيظهر من خلال وجود كتب للنماذج تحمل اسم بلدة من البلدان أو منطقة من المناطق، مثل ترودانت أو سُوس. ومن الأمثلة الغريبة على هذا التنوع الإقليمي وجود قاموس مـفردات بالعربية والبربرية معّد خصيصاً لاستخدام العدول في منطقة سوس، جنوبي مراكش، الناطقة بالبربرية.[٥]

وقد أمكن عن طريق استخدام الوثائق المعدة بما يوائم الظروف المحلية دمج الممارسات الإقليمية في الفقه المالكي على نحو ما تطور على أيدي الفقهاء المغاربة. ونعتقد أن المزيد من البحث في هذا المجال قد يطرح ثماراً طيبـة، وخاصة فيما يتعلق بإقامة الصلة بين دراسة الكتب الجامعة للفتاوى والكتب الإرشادية حول موضوع العمل من ناحية، وبين كتب النماذج أو الصيغ المنتمية لنفس الفترة ونفس المنطقة. ولعل النموذج المعروف بشـهادة اللفيف أو الشهادة الجماعية يصلح مثالاً على إدماج الممارسات المحلية في الفقه المالكي المغربي عن طريق الوثائق القانونية.[٦]

كانت كتب النماذج تتداول في شكل نسخ مكتوبة بخط اليد قبل دخول الطباعة الحجرية في المغرب في الستينات من القرن التاسع عشر، والتي بدأ في أعقابها تداول بعض النسخ الهامة مطبوعة طباعة حجرية. والجدير بالإشارة أن دراسة تطور علم الوثائق في المغرب قد حظت في السنوات الأخيرة بدفعة

قوية يرجع الفضل فيها إلى نشاط الأستاذ مصطفى ناجي في مركز إحياء التراث المغربي الذي قام بتحقيق ونشر عدد من كتب النماذج المنتمية إلي العصور الوسطى.(٧)

السجلات

كانت الوثائق عادة تدّون من نسخة واحدة أصلية، ولم يكن يُحتفظ بنسخ منها ولا كانت تُدّون في سجل، أو أن ذلك لم يكن إجبارياً على الأقل، غير أن بعض العدول كانوا يحتفظون بملاحظاتهم لاستعمالهم الخاص، وهو ما نلمسه من تلك الكراسات الخاصة التي انحدرت إلينا.

الوثائق

اتسمت المواد المستخدمة في تدوين الوثائق بالتنوع، فكانت تتروا ح بين الرق والورق والخشب، ويبدو أن التصميم الشكلي للوثائق قد استقر على نحو معين منذ فترة مبكرة، فكان ثمة هامش عريض على الجانب الأيمن للوثيقة ولا هامش على الجانب الأيسر لتجنب الإقحامات على النص فيما بعد كتابته. ولا يبدو أن هذه الوثائق في تلك المرحلة كانت تتمتع بأي درجة من توحيد المواصفات، إن باستخدام صنف معين من الورق أو بالإحالة على السجلات. ومن أهم ملحقات الوثيقة ما يعرف بالخطاب وهو نص الاعتماد أو الإجازة الذي يبين أن القاضي قد أقرّ الوثيقة باعتبارها دليلاً أو شهادة قانونية.

فترة الحماية الفرنسية والإسبانية ١٩١٢ - ١٩٥٦

الوضع القانوني

كان أحد أهم التطورات المبكرة في المجال القانوني في أعقاب قيام المحمية الفرنسية في المغرب سنة ١٩١٢ هو إعادة تنظيم أجزاء كبيرة من القانون المغربي وفقاً للنموذج الفرنسي. وكانت نتيجة ذلك قيام نظام ثنائي يتعايش فيه جنباً إلى جنب القانون الفرنسي والشريعة الإسلامية في صورتها المغربية. وكان معنى هذا في الوقت ذاته بداية دمج نظام الشهود المحترفين أو

العدول في نظام قانوني جديد من وضع الدولة على الطراز الفرنسي. وهو ما يبدو بوضوح في دمج قانون العقود لعام ١٩١٣ في قانون الالتزامات والعقود *Dahir formant code des Obligations et Contrats*، إذ أن المادة ٤١٨ من ذلك القانون تنص على قبول الوثائق التي يحررها العدول طبقاً للإجراء القديم القائم على إجازة القاضي للوثيقة كسند قانوني. وفي سنة ١٩٢٥ أدخل نظام الموثق العام notaire public الفرنسي ليأخذ محله إلى جانب نظام كاتب العدل الإسلامي.

أدى الدمج التدريجي لنظام العدول في التنظيم القانوني الجديد للدولة إلى تغيرات هامة في الوضع القانوني للعدول في ظروف أدائهم لمهامهم. ومن ذلك تزايد الإشراف والتنظيم القانوني من قبل الدولة، وهو ما نتج خاصة عن أن ممارسات العدول في المجال العقاري كانت تستخدم في فرض الضرائب. ومع مرور الزمن أصبح تعيين العدول من صلاحيات وزارة العدل وليس القضاة المحليين كما كان آنفاً.

كتب النماذج

لم يتدخل الفرنسيون بشكل مباشر في ما يتعلق بتنوع الصيغ أو النماذج المستخدمة في تحرير الوثائق في ذلك الوقت، على أن وزارة العدل قامت بتعميم التنظيمات الجديدة فيما يتعلق باستخدام الورق المدموغ وغيره من التغييرات عن طريق منشورات مطبوعة. كذلك تعرف العدول إلى عالم الطباعة وأثرها في تصميم الوثائق من خلال بواكير ما طبع من كتب النماذج في المغرب باستخدام حروف الطباعة المتحركة. كما تلقت الطباعة دفعة أخرى إلى الأمام عن طريق دخول عالم المجلات القانونية المتخصصة، والتي قامت بنشر النصوص القانونية باللغة العربية وفي ترجمات فرنسية مستخدمة تصميمات جديدة تماماً.[٨]

السجلات

استحدث الفرنسيون سلسلة من القوانين جعلت استخدام السجلات فيما يحرره العدول من وثائق أمراً إجبارياً، وتم توحيد مواصفات هذه السجلات بحيث تتكون من دفاتر تقسم صفحاتها إلى أعمدة مطبوعة ويتحتم ملء جميع

الخانات بالبيانات المطلوبة. وكان من نتائج هذه الإجراءات الموحدة والسجلات القياسية أن يسرت للحكومة المركزية إحكام قبضتها على الحياة اليومية لرعاياها وعلى الممارسات القانونية المحلية.

الوثائق

يظهر أثر التنظيمات الجديدة، التي استهدفت تحقيق السيطرة المركزية، واضحاً في السمة الشكلية للوثائق التي حررها العدول في ذلك الوقت، إذ أصبح الورق المدموغ إلزامياً، كما تظهر في هوامش الوثائق الإشارات الرقمية الدالة على تقييدها في السجلات. وفي بعض الحالات ثمة أختام تشير إلى تسجيل إضافي يفيد نقل ملكية عقارية، كما أن القضاة يستخدمون أختاماً بتوقيعاتهم على نطاق أوسع.

فترة ما بعد الاستقلال (من ١٩٥٦ فصاعدا)

الوضع القانوني

حوفظ على الإصلاحات القانونية الفرنسية في فترة ما بعد الاستقلال بصفة عامة، وتم على نحو تدريجي توحيد النظام المزدوج القائم على القانون الفرنسي والشريعة الإسلامية في نظام واحد تأثر تأثراً قوياً بالتشريع الفرنسي. وثمة مجالان اثنان فقط تحولت فيهما الشريعة الإسلامية إلى مبادئ قانونية هما قانون الأسرة والقواعد المنظمة للإدلاء بالشهادة.

وفي التنظيم القانوني لعام ١٩٥٨ الذي تناول قانون الأسرة طبقاً للمذهب المالكي، والتنظيم الذي عرف بالمدوّنة، جُعل للعدول دور حيوي في مسائل الزواج والطلاق والبُنوّة والميراث، وقد عُزز هذا الدور في التعديلات التي أدخلت على المدونة مؤخراً في عام ١٩٩٣.

أما في مجال الإدلاء بالشهادة فقد تم تطوير التنظيمات العامة التي أدخلت في فترة الحماية بحيث يتعايش الآن جنباً إلى جنب نظام كاتب العدل الفرنسي والإسلامي. على أن صلاحية العدول في نقل ملكية العقارات قد زيدت. كذلك عززت إجراءات توحيد الممارسات والتنظيمات وتعميم نفوذ السلطة

المركزية للدولة. وتجدر الإشارة أن القواعد السارية حالياً والتي سُنت في قانون صدر عام ١٩٨٢ وفي مرسوم صادر عن رئيس الوزراء عام ١٩٨٣ تضمن قدراً كبيراً من السيطرة على العدول عن طريق تقرير ضوابط محددة تحكم اختيارهم وتعليمهم وتعيينهم، إلى جانب الإشراف المتصل على نشاطهم وعلى استخدامهم للسجلات.[٩]

كتب النماذج

قام العراقي عام ١٩٦١ بصياغة كتاب نموذجي رسمي للوثائق المتصلة بقانون الأحوال الشخصية، وذلك كإجراء تكميلي لعملية التنظيم القانوني للأسرة حسب الشريعة الإسلامية. وكان الهدف السافر لهذا الكتاب هو أن يقدم للعدول نموذجاً قياسياً واضحاً لصياغة الوثائق القانونية وأن يفرض صيغة موحدة على الممارسات المحلية تتفق مع التنظيمات القانونية التي أدخلت حديثاً على المستوى القومي. وعلى حسب علمي فإن الكتاب، والذي حاز على الموافقة الرسمية لوزير العدل، ما زال متداولاً منذ سنة ١٩٦١، ولم يعتوره أي تغيير منذ ذلك الوقت إلا في غلافه الذي أعيد تصميمه بما يوائم الذوق العصري.[١٠]

السجلات

تم التوسع في القاعدة الملزمة باستخدام السجلات عن طريق المزيد من التشريع في عامي ١٩٨٢ و١٩٨٣، فنجد اليوم أن العدول يستخدمون سجلاً شخصياً إلى جانب دفتر يحفظ في المحكمة. أما آخر التعديلات في الأحكام المنظمة لأحوال العدول فتضيف تفصيلات مطولة فيما يتعلق بحفظ السجلات. ويعتقد بعض العدول أن هذا قد أدى إلى تعقيد الإجراءات في غير ضرورة علاوة على حرمانه بعض الكتبة الذين كانوا يعاونون العدول بنسخ نصوص الوثائق يدوياً من وظائفهم. وبلغ من شدة مقاومة العدول لهذه التعديلات في مدينة مكنس المحافظة أنهم أضربوا عن العمل لمدة يوم في شهر نوفمبر من سنة ١٩٩٣.

الوثائق

يظهر أثر القوانين الجديدة في الوثائق التي يحررها العدول، وكذلك أثر انتشار فنون الطباعة الغربية الطابع. فقد انتشر استخدام الصيغ المطبوعة بالتدريج، وهي صيغ تتصدرها عبارات من قبيل «المملكة المغربية» إلى جانب اسم ومحل المحكمة التي يعمل فيها العدل، كما نجد مطبوعاً في الهامش الأيمن خانات مخصصة لملء بيانات السجلات. وتجدر ملاحظة أن بعض العدول قد عزفوا تدريجياً عن استخدام خط اليد واتجهوا إلى استعمال الآلة الكاتبة، وكذلك فإن الكثير من القضاة اليوم قد انصرفوا عن عادة كتابة الإجازة بخط اليد وأصبحوا أميل إلى استعمال الأختام.

الخلاصة

تظهر الدراسة الشكلية للكتب الأنموذجية، والسجلات، والثائق القانونية التي يستخدمها ويقوم على تحريرها العدول ميلاً متزايداً إلى التماثل والتوحيد القياسي للمارسات والإجراءات. أما في الكتب الأنموذجية فيتجلى هذا الميل في التحول من المخطوط إلى الطباعة الحجرية إلى الطباعة الحديثة. ويظهر الميل إلى التوحيد القياسي في إدخال الاستخدام الإجباري للسجلات والتي أصبحت أميل إلى التماثل في تصميماتها مع مرور الزمن. كما تغير المظهر الشكلي للوثائق القانونية تغيراً جذرياً خلال القرن الحالي. وفوق هذا وذاك، فإن استخدام الأختام والورق المدموغ والإشارات المشفرة للسجلات، بل واستخدام الاستمارات المطبوعة مؤخراً يشير كله إلى ذلك النزوع نحو المماثلة والتوحيد القياسي على نحو ما أسلفنا.

وليس من سبيل إلى فهم هذه التغيرات في البيئة الوظيفية للعدول إلا بدراسة وثائقهم الكتابية في سياق تطورات سياسية واسعة النطاق، هي تكوين دولة حديثة في المغرب. ذلك أن عملية المماثلة والتوحيد القياسي لممارساتهم إنما هي وثيقة الصلة بسعي الحكومة المركزية إلى السيطرة على الأداة القانونية في البلاد. إن عملية تكوين الدولة تنطوي في جزء منها على احتياج الحكومة المركزية إلى توجيه الحياة اليومية لرعاياها. وليس النظام القانوني، خاصة من جهة قيامه بإثبات الأدلة في الحقوق والواجبات، إلا وسيلة هامة من الوسائل المتاحة للدولة لتوجيه الحياة الخصوصية لرعاياها. وهكذا فقد تم خلال القرن

العشرين دمج النظام الإسلامي القائم على الشهود المحترفين والمؤهلين في قانون الدولة الجديد، والذي تأثر أيما تأثر بالقانون الفرنسي. علاوة على ذلك فإن إدخال الطباعة الأحرف المتحركة، والتصميمات غربية الطراز في مجال كتابة النصوص القانونية إنما هو وثيق الارتباط بنهضة الدولة المركزية الحديثة.

لقد حاولت عبر تناولي لتاريخ العدول في المغرب أن أدلل على فكرتي التي طرحتها ابتداء من أن دراسة الجوانب المادية للكتب والوثائق تمثل مصدراً هاماً لدراسة التاريخ الاجتماعي، وأن علم المخطوطات قمين أن ينتفع من الالتفات إلى السياق الذي تم فيه انتاج المخطوطة موضع الدراسة واستخدامها. إن دراسة الكتب والمخطوطات تقودنا حتماً إلى دراسة الرجال والنساء الذين كتبوا تلك الكتب والمخطوطات أو قرأوها أو استخدموها على نحو من الأنحاء.

الحواشي

(١) عاقني ضيق الوقت عن الاسترسال في هذا البحث فيما وراء الخطوط العريضة التي تناولتها هنا، وفي نيتي معالجة الموضوع بمزيد من التفصيل في وقت لاحق.

(٢) لمزيد من المعلومات، راجع: Emile Tyan, *Le notariat et le régime de la preuve par écrit dans dans la pratique du droit musulman* (Beirut, 1945); Emile Tyan, "'adl", in *Encyclopaedia of Islam*, second ed. I (1960), 209–210; J. Lapanne-Joinville, "Les actes adoulaires marocains sont-ils authentiques", *Revue marocaine de droit*, 9 (1957), 337–384; Wilhelm Hoenerbach, *Spanisch-islamische Urkunden aus der Zeit der Naṣriden und Moriscos* (Bonn, 1965); Jeanette A. Wakin, *The Function of Documents in Islamic Law. The Chapters on Sales from Ṭaḥāwī*'s *Kitāb al-shurūṭ al-kabīr* (Albany, 1972); Wael B. Hallaq, "Model *Shurūṭ* Works and the Dialectic of Doctrine and Practice", *Islamic Law and Society*, 2 (1995), 109–134.

(٣) محمد المنوني، «وثائق ونصوص عن أبي حسن علي بن منون وذريته»، الرباط، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

(٤) انظر محمد بن أحمد بنّاني، «الوثائق الفاسية»، تحقيق عبد الكريم مسرور، الرباط ١٩٨٨.

(٥) انظر: Jacques Berque, "Un glossaire notarial arabo-chleuh du Deren (XVIIIe s.), *Revue africaine*, 94 (1950), 357–398.

(٦) انظر: أبوحامد محمد العربي بن أبي المحاسن يوسف الفاسي الفهري، «شهادة اللفيف»، الرباط ١٩٨٨.

(٧) انظر على سبيل المثال: القاضي أبواسحاق الغرناطي، «الوثائق المختصرة»، تحقيق مصطفى ناجي، الرباط ١٩٨٨، وأبو عبد الله محمد المصمودي، «والثائق السجلماسية»، تحقيق مصطفي ناجي، الرباط ١٩٨٨، وأيضاً الأعمال المذكورة في ٣ و٤ أعلاه.

(٨) انظر: Léon Buskens, "Islamic Commentaries and French Codes. The Confrontation and Accommodation of Two Forms of Textualization of Family Law in Morocco", in Henk Driessen (ed.) *The Politics of Ethnographic Reading and Writing. Confrontations of Western and Indigneous Views* (Saarbrücken & Fort Lauderdale, 1993), 65–100.

(٩) "De 'udūl en hun rol in het Marokkaanse huwelijks- en echtscheidingsrecht", in S.W.E. Rutten (ed.), *Recht van de Islam 9. Teksten van het op 7 juni 1991 te Leiden gehouden 9e RIMO-symposium* (Maastricht, 1992), 9–37.

(١٠) انظر: حمّاد العراقي، «الوثائق العدلية وفق مدونة الأحوال الشخصية»، الرباط ١٩٦١.

ظاهرة المخطوطات مجهولة المؤلف:
المخطوطات التاريخية والجغرافية مثالا

محمد بن شريفة

من المعروف أن المخطوطات الإسلامية ابتليت خلال تاريخها الطويل بمحن عديدة في مشرق العالم الإسلامي ومغربه، وضاع منها بسبب ذلك الشيء الكثير، ولعل المحن التي ابتليت بها المخطوطات الإسلامية الأندلسية من أشهر الأمثلة التي تذكر في هذا الصدد. فقد ألف أهل العلم بالأندلس عددا ضخما من التآليف يصعب حصرها، ولكن معظمها قد ضاع.

ولكون الظاهرة التي سأتحدث عنها - وهي ظاهرة التآليف مجهولة المؤلف - تلحظ أكثرما تلحظ عندنا في كتب التاريخ والجغرافيا - فإني سأقتصر في التمثيل لما ضاع من التراث الأندلسي على ما يتصل بهذين العلمين: لقد حاول مستعرب إسباني - وهو بونس بويجس Pons Boigues - منذ قرن تقريبا إحصاء المؤرخين والجغرافيين الأندلسيين فتوصل إلى أكثر من ثلاثمائة من المؤلفين في التاريخ والجغرافيا أما تآليفهم فتكاد تصل إلى ضعف هذا العدد،[1] فما الذي وصل إلينا من كل ذلك؟ إنه قليل، فقد ضاع على سبيل المثال «كتاب المتين» لابن حيان، وكان يقع في ستين مجلدة، وضاع كتاب «المآثر

العامرية»، وكتاب «البطشة الكبرى» له أيضا[٢] وضاع «التاريخ الكبير» لابن شهيد وكان أزيد من مائة سفر،[٣] وضاعت المدونات التاريخية التي ألفها آل الرازي والحكيم وابن النظام وابن سعدان وخالد بن سعيد وعريب وإسحاق بن سلمة القيني والأقشتين وابن عبد الرؤوف والشبانسي والقبشي وعبادة ابن ماء السماء وابن مزين وابن أبي الفياض وغيرهم[٤] وقد سحب النسيان أذياله على بعض هؤلاء، فلم يذكروا أصلا بين المؤرخين مثل الحكيم الذي انفرد ابن عبد الملك بالنقل عن تاريخه، ولا يوجد لهذا التاريخ ذكر في مكان آخر، ولم تسجله البيليوغرافيات التاريخية، ولهذا قمت بالتعريف به وبتاريخه.[٥] إن من القليل الذي وصل إلينا من المدونات التاريخية تآليف كانت تقع في أسفار متعددة لم يصل إلينا منها أحيانا إلا سفر واحد، ونضرب مثلا لهذا جغرافية العذري المسماة بـ«نظام المرجان» فإنه لا يوجد منها إلا بقايا من السفر السابع،[٦] وتاريخ ابن القطان الموسوم بـ«نظم الجمان» الذي عثر على السفر الثالث عشر منه فقط،[٧] ومن التآليف التاريخية التي وصل إلينا بعض أسفارها وما زلنا نفتقد أسفارها الأخرى «كتاب المقتبس» لابن حيان، و«كتاب الذيل والتكملة» لابن عبد الملك على سبيل المثال، فليس لدينا من الكتاب الأول إلا أربعة[٨] من أسفاره العشرة، وكل ما وجدناه من الكتاب الثاني هو خمسة أو أقل[٩] من تجزئة كانت تقع في تسعة أسفار، كما أن هناك عددا من التآليف التاريخية والجغرافية وصلت خالية من أسماء مؤلفيها، وهي التي ستكون موضوع هذا الحديث المتواضع، وسوف نعرضها حسب التسلسل الزمني بشيء من الاختصار ثم نحاول بعد ذلك تعليل الظاهرة وتحليل أسبابها.

«أخبار مجموعة»

ونذكر في أولها مدونة تاريخية توجد ضمن مخطوط وحيد محفوظ في المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم ١٨٦٧/٢ وعنوان هذه المدونة بعد البسملة والتصلية كما يلي: «أخبار مجموعة في افتتاح الأندلس وذكر من وليها من الأمراء إلى دخول عبد الرحمن بن معاوية وتغلبه عليها وملكه فيها هو وولده والحروب الكائنة في ذلك بينهم». وقد نشرت هذه المدونة مع ترجمة إسبانية عام ١٨٦٧ بعناية المستعرب Lafuente y Alcántara وأصبحت مصدرا لا يستغنى عنه في تاريخ الأندلس من الفتح إلى عهد عبد الرحمن الناصر، وقد اختلف

الدارسون في تاريخ تأليف هذه المدونة Crónica فناشرها ومترجمها لا فوينتي ألكانترا وكذلك دوزي يريان أنها ألفت في القرن الخامس الهجري، وذهب خوليان ريبيرا Ribera إلى أن تدوينها تم في آخر عهد عبد الرحمن الناصر،(١٠) والواقع أنه لا يوجد في هذه المدونة ولا في غيرها من المصادر المعروفة ما يهدي إلى معرفة مؤلفها.

« *Una Crónica Anónima*»

ونذكر بعد هذه مدونة ثانية تعاون على تحقيقها مع ترجمتها ليفي بروفنسال وغرسية غومث، وقد طبعت في سنة ١٩٥٠ تحت العنوان التالي: *Una Crónica Anónima de ʻAbd al-Raḥmān III al-Nāṣir,* وهي في الواقع قطعة صغيرة من مدونة تاريخية ألفت في القرن الرابع الهجري أو الخامس على الأقل حسب رأي المحققين، وقد اشتريت هذه القطعة التي تتألف من ٢٢ ورقة من مدينة فاس، وذهب المحققان المذكوران استنادا إلى خطها الأندلسي ونوع ورقها إلى أنها انتسخت في القرن الثامن الهجري بفاس المرينية أو بغرناطة النصرية، وأما مؤلف المدونة التي منها هذه القطعة فقد افترض فيه المحققان عدة افتراضات فذكرا أسماء عريب والرازي وابن حيان والشبانسي والقبشي ولكنهما وقفا عند حد الافتراضات(١١) إذ ليس في نصوص القطعة ما يساعد على الوصول إلى أي رأي في هذه النقطة.

وقد قارنا نحن بين السنوات والأحداث في هذه القطعة وبين ما يقابلها في الجزء الخامس من «المقتبس» الذي عثر عليه في المغرب ونشر منذ بضع سنين فتبين لنا أن القطعة هي من مدونة تاريخية كان مؤلفها يعتمد على كلام ابن حيان ويختصره ويحتفظ ببعض لفظه، ومن أمثلة ذلك الخبر الوارد في مدونة الناصر المجهولة كما يلي:

«وفي سنة تسع وثلاثمائة استنزل الناصر لدين الله من أهل الخلاف بالموسطة بني سعيد وبني ناصح المعروفين ببني مستنه من حصونهم ربرش وعاليه من كورة باغه واستنزل بني مهلب من حصونهم قرديرة واشبرغيره».(١٢)

وهذا نص الخبر كما جاء في «المقتبس»:

«وفيها استنزل الناصر لدين الله من أهل الخلاف بالموسطة بني سعيد بن ناصح المعروفين ببني مستنة من حصونهم بكورة باغة المعروفة بربرش وعاليه وبنياتها، واستنزل بني مهلب من حصونهم فيها أيضا المعروفة بقرديرة واشبرغيره وغيرهما».[١٣]

وتحسن الإشارة هنا إلى أن الاختصار والتذييل والتتميم من السمات الغالبة في المدونات الجغرافية والتاريخية التي شاعت بعد القرن الخامس في الأندلس والمغرب، ونرى ذلك على سبيل المثال في ما وقع لـ«اقتباس الأنوار» للرشاطي و«المسالك والممالك» للبكري فقد اختصر الأول غير واحد في القرن السابع الهجري وما بعده[١٤] وتصرف في الثاني ثلاثة من الأندلسيين: أولهم لا نعرفه إلا بنسبته البلدية وهو الإشبيلي، والثاني هو الأديب الطبيب أبو الحكم عبيد الله ابن غلنده، وقد وقف ابن الشباط على نسخة متممة من «المسالك والممالك» للبكري من عمله، ونقل عنها فقرات في وصف صقلية لا توجد في النسخ العادية من «المسالك والممالك»،[١٥] ويبدو أن صاحب «الروض المعطار» وقف على هذه النسخة أيضا، ويدل على ذلك نقوله التي هي أتم وأوسع من النسخ الموجودة من المسالك والممالك.[١٦] أما الأندلسي الثالث الذي اختصر «مسالك» البكري فمؤلف «الاستبصار»، ونرى أنه هو ابن عبد ربه الحفيد كاتب الموحدين، ونستند في هذا إلى عدد من القرائن، أبرزها نقول التمجروتي عنه وتسميته إياه في رحلته النفحة المسكية، وقد بسطنا القرائن في الكتاب الذي خصصناه لحفيد صاحب «العقد».[١٧]

ولم تسلم بعض المدونات الجغرافية الأندلسية والمغربية الأخرى من اللبس والغموض، فقد اختلف الدارسون المستشرقون حول اسم الزهري مؤلف كتاب الجغرافيا ولهذا دعاه بعضهم كدوزي بالمريني المجهول[١٨] L'Anonyme d' Almerie ولم تظهر معالم هذا المؤلف نسبيا إلا بعد المجهود الذي بذله الحاج صادق محقق الكتاب.

وقد اختلف الدارسون أيضا في تحديد هوية ابن عبد المنعم الحميري مؤلف الروض المعطار، وهل هو سبتي أم أندلسي أم تونسي، كما أنهم اختلفوا في تاريخ وفاته.[١٩]

«ذكر بلاد الأندلس»

ومن هذا الصنف المجهول المؤلف كتاب له عنوان طويل ولكنه يعرف ببدايته وهي: «ذكر بلاد الأندلس» مثلما يعرف التأليف الذي ذكرناه أولا ببداية عنوانه وهي «أخبار مجموعة» وإذا كانت «أخبار مجموعة» خلت تماما من النقول والروايات التاريخية فإن «ذكر بلاد الأندلس» يكاد يكون كشكولا من كلام المؤرخين والجغرافيين في صفة الأندلس، «ومن ملكها من ملوك المرابطين والموحدين وبني هود وبني مرين وبني نصر وبني اشقيلولة»، وهذا المجموع توجد منه نسختان فقط وقد ظهرتا بالمغرب في عهد الاستقلال: إحداهما كانت في ملك الباشا الجلاوي، وهي اليوم في الخزانة العامة تحت رقم ٨٥ج والثانية كانت مما عثر عليه في القصور الملكية، وتوجد الآن في الخزانة الحسنية تحت رقم ٥٥٨. وقد قام لويس مولينا - وهو مستعرب إسباني شاب - بتحقيق الكتاب وترجمته إلى الإسبانية اعتمادا على النسختين المذكورتين.

ومؤلف هذا المجموع يتحدث عن نفسه بعبارة: قال صاحب التاريخ.[٢٠] وقد نقل المقري في نفح الطيب مرارا من هذا «التاريخ»، ولكنه كان يجهل مؤلفه، لأن النسخة التي وقف عليها كانت هي أيضا خالية من اسم المؤلف، وهو يصدر نقله بعبارات مختلفة، ومنها قوله: «قال بعض المؤرخين من أهل المغرب» وقوله في موضع آخر: «والذي رأيته لبعض مؤرخي المغرب» وقوله أيضا: «وقال بعض المتأخرين»،[٢١] ونحن لا نفهم كيف عرف أن المؤلف من أهل المغرب وأنه من زمن متأخر.

أما محقق الكتاب ومترجمه فقد بذل مجهودا طيبا في البحث عن تاريخ تأليفه، وهو يقدر أن يكون مما ألف في العصر الغرناطي،[٢٢] ويستند في هذا إلى قول المؤلف عند الكلام على غرناطة: «وهي اليوم دار مملكة المسلمين بالأندلس ودار الإمارة» كما يستند إلى دعائه للمرية بقوله: «والمرية كلأها الله»، وهو دعاء يشعر بأنها كانت ما تزال وقتئذ بيد المسلمين، بدليل أن دعاءه لكثير من المدن الأندلسية هو: «أعادها الله للاسلام بمنّه»[٢٣] أما افتراض المحقق المذكور أن المؤلف من أهل فاس، وأنه قد يكون هو مؤلف «روض القرطاس»[٢٤] فلا يوجد في الكتاب ولا في غيره ما يؤيده، ثم إن مؤلف «روض القرطاس» نفسه مختلف فيه فثمة نسخ خطية من الكتاب منسوبة إلى صالح بن عبد الحليم

وهو مؤرخ هيلاني مراكشي، وثمة نقول في بعض التآليف تنسبه إلى هذا المؤرخ لا إلى ابن زرع الفاسي.

«مفاخر البربر»

ومن التآليف التاريخية الغفل التي دونت في هذا العصر المريني كتاب «مفاخر البربر»، وهو مجموع مبتور الأول، ويتألف من ثلاثة أقسام: الأول مبتور من أوله، وهو عبارة عن أبواب تشتمل على نقول في التاريخ والجغرافيا والأنساب، وكلها تتعلق ببلاد المغرب، وهذا القسم هو بلا شك من جمع المؤرخ أبي علي صالح بن عبد الحليم، ويؤكد ذلك عبارات ترد في أثناء الكتاب وفي أواخر أبوابه، ونقتصر منها على هذه العبارة:

«قال عبيد الله صالح بن عبد الحليم: فهذا مبلغ علمنا في سكان أنساب المغرب الأوسط، وسنذكر إن شاء الله تعالى ما وجدنا لذكره سبيلا في أنساب أهل المغرب الأقصى».(٢٥)

ويدل على ذلك أيضا نقول من هذا القسم توجد في «البيان» لابن عذاري منسوبة لابن عبد الحليم فقد جاء في الجزء الأول منه ما نصه:

«أخبرني الشيخ الصالح أبو علي صالح بن أبي صالح أنه لم يصح عنده أن عقبة رضي الله عنه حضر بنيان شيء من المساجد بالمغرب إلا مسجد القيروان ومسجد بدرعة بالسوس الأقصى، وأما غير ذلك من المساجد المسماة باسمه فإن الناس والله أعلم بنوها بموضع نزوله».(٢٦)

وأصل هذا الخبر موجود في القسم الأول من مجموع «مفاخر البربر» وهو كما يلي:

«قال أصحاب المسالك البكري والإشبيلي: بنى مسجده بنفيس المشهور باسمه إلى الآن، والله أعلم بحقيقة ذلك، والذي صح أنه حضر لبنيانه عقبة مسجد القيروان ومسجد بدرعة ومسجد بوادي سوس وأما غير ذلك فالله أعلم بحقيقته».(٢٧)

ويدل عليه كذلك فقرات من الكتاب موجودة في «دلائل القبلة» للمؤلف نفسه فقد ورد في هذه الرسالة ما يلي:

«حدثنا الشيخ أبو عبد الله محمد بن عمر بن مخلد قال حدثنا الفقيه المحقق المتقن أبو علي الحسن بن علي بن حسون الماكري المعروف بالكفيف أن منبر أغمات هيلانة صنع سنة ثمانين من الهجرة، قال: وأظنه كتب ذلك عليه».[٢٨]

وهذا الكلام موجود أيضا في القسم الأول من المفاخر وهذا نصه:

«قال عبيد الله حدثني أبو عبد الله محمد بن عمر بن مخلد بتاوريرت قال حدثني أبو علي الكفيف بأسفي أن منبر أغمات هيلانة استعمل في سنة خمس وثمانين من الهجرة»، قال وأظنه كتب عليه ».[٢٩]

ومن عادة ابن عبد الحليم أن يبدأ أخباره بهذه العبارة: «قال عبيد الله» وقد فهم المستعرب المشهور ل. بروفنسال وتبعه بعضهم أن عبيد الله اسم لولد المؤرخ المذكور،[٣٠] ويبدو لنا أنها مجرد نعت يستعمله هذا المؤرخ الذي كان معروفا بصلاحه وتواضعه، بدليل صيغة النص الأول في هذا الخبر.

والقسم الثاني من هذا المجموع يبدأ بالبسمله والتصلية والحمدلة، وبعدها ديباجة تتضمن اسم المجموع وهو «مفاخر البربر» وموضوعه والباعث على تأليفه، وقد جاء في آخر هذه الديباجة بعد الإشارة إلى مكاتبة الغزالي ويوسف بن تاشفين ما يلي: «وسأورد كتاب الشيخ أبي حامد إليه في موضعه من هذا المجموع مع رسائل تتضمن ما يتعلق بهذا الفن».[٣١] وهذا ما نجده في القسم الثالث من المجموع الذي يفتتح أيضا بالبسملة والتصلية قبل إثبات نبذ من رحلة أبي بكر ابن العربي ورسالة الغزالي المشار إليها مع فصول أخرى. وينبغي أن يعتبر هذان القسمان أيضا من جمع ابن عبد الحليم المذكور لشبههما بالقسم الأول، ولو أن فقرة وردت في القسم الثاني تعترض ذلك، فقد جاء في آخر مسرد الفقهاء الأعلام من البربر ما يلي:

«ومنهم الشيخ الفقيه الصالح العالم التاريخي أبو علي صالح بن الشيخ الصالح الولي الزاهد الورع أبي صالح عبد الحليم نزيل نفيس وهو يعيش إلى وقتنا هذا وهو سنة ٧١٢هـ وقد جمع الله له بين العلم والعبادة، وخصه بالفضل والديانة واشتهر بالعفاف، واقتصر من الدنيا على الكفاف، مع

الانقباض عن أهل الدنيا، والحلول من الورع في الدرجة العليا، إلى ما يتميز به من الكرم والسخاء والطهارة والتقى، وتلك أوصاف السلف الصالح رضي الله عنهم:

ولولا أن يظن بنا غلو لزدنا في المقال من استزادا

وقد سألته عن قبيلته فذكر لي أنه أيلاني النسب».[٣٢]

ونحن نظن أن هذه الفقرة مقحمة من ابن عبد الحليم أو من أحد تلاميذه رأى أن يضيفها ويختم به الفقهاء الذين ذكروا في المسرد فهو ليس دونهم، وقد يدل على هذا، البيت المستشهد به. ونظن كذلك أن المقارنة الدقيقة بين أقسام هذا المجموع من جهة وبينها وبين كتاب «دلائل القبلة» - وهو ثابت النسبة لابن عبد الحليم - قد تشهد لما ذكرناه، ونشير في الأخير إلى أن ليفي بروفنسال نشر القسم الثاني من هذا المجموع عام ١٩٣٤ وقال إنه «لمؤرخ مجهول الاسم ألفه سنة ٧١٢هـ» وهذه كما رأينا هي السنة المذكورة في الفقرة السابقة كما أنه نشر نبذة من القسم الأول في صحيفة المعهد المصري بمدريد وهو لا يستبعد أن يكون الكتاب كله من تآليف ابن عذاري،[٣٣] ولكن هذا يتناقض تماما مع القرائن والدلائل المتعددة التي ترجح نسبة الكتاب إلى المؤرخ ابن عبد الحليم وقد أشرنا إلى بعضها.

«الحلل الموشية»

ننتقل بعد هذا إلى مدونة تاريخية أخرى ألفت في أواسط العصر الغرناطي ونعني بها «الحلل الموشية في الأخبار المراكشية»، والمخطوطات الموجودة اليوم من هذه المدونة خالية من اسم المؤلف، وقد طبع الكتاب أول مرة في تونس سنة ١٩١٠ منسوبا إلى ابن الخطيب ولم ينتبه الناشر إلى تاريخ تأليفه المذكور في آخره[٣٤] وهو سنة ٧٨٣هـ ومن المعروف أن ابن الخطيب توفي سنة ٧٧٦هـ فالكتاب ألف بعد وفاته بنحو سبع سنوات. وقد أعيد نشر الكتاب في المغرب مرتين: إحداهما في الرباط سنة ١٩٣٦ بعناية المستعرب علوش Allouche والثانية في الدار البيضاء سنة ١٩٧٩ بتحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة وقال الأخيران إنه «لمؤلف أندلسي من أهل القرن الثامن الهجري»، ولست أدري لماذا لم يأخذ هذان المحققان بقول مؤلف «البدور الضاوية» ومن

جاء بعده، وهو أن «الحلل» من تأليف ابن سماك العاملي،[٣٥] ونظن أن مؤلف «البدور» لم يقل هذا جزافا فلعله وقف على نسخة منسوبة إلى مؤلفها المذكور، كما أن المحققين المذكورين لم يرجعا إلى دراسات حول نسبة الكتاب كتبها برونشفيغ Brunschvig ويوسك فيلا Bosh Vilá وماريا خيسوس روبييرا Rubiera ، وقد عالج هذا الموضوع أخيرا أيضا محمود مكي في تقديمه لكتاب «الزهرات المنثورة» ويميل هؤلاء جميعا إلى أن مؤلف «الحلل» هو ابن سماك اعتمادا على مؤلف «البدور الضاوية» واستنادا إلى شيء من التشابه بين «الحلل» و«الزهرات».

وقد وقفنا في المدة الأخيرة على كتاب جديد عنوانه: «رونق التحبير، في حكم السياسة والتدبير» لابي القاسم محمد بن ابي العلاء بن سماك، وهو تأليف رفعه إلى المستعين بالله محمد بن يوسف بن محمد الغني بالله، وذكر في مقدمته أنه ثمرة ٣٢ سنة في خدمة الدولة النصرية، وأنه سبق له أن رفع إلى والد هذا السلطان وجده موضوعات ومصنفات في فنون مختلفات،[٣٦] وقد وجدنا في هذا الكتاب دليلا قويا على أن «الحلل الموشية» هي من تأليف أبي القاسم المذكور، ويتمثل هذا الدليل في وجود عبارات واحدة في كلا الكتابين، فمنها أننا نجد في ديباجة «الحلل» بعد الحمدلة والتصلية والترضية هذه الصيغة: «والدعاء لهذا المقام العلي المحمدي النصري السلطاني المجاهدي..»[٣٧] وهي نفسها في «رونق التحبير» هكذا: «والدعاء لهذا المقام العلي المحمدي النصري السلطاني المستعيني»[٣٨] فالصيغة واحدة ولكن المدعو له في الكتاب الأول هو محمد الغني بالله والمدعو له في الكتاب الثاني هو محمد المستعين بالله، ونجد مثل هذا في صيغة أخرى في خاتمة الكتابين، وهي صيغة الدعاء التالي:

«اللهم احرس بعينك التي لا تنام دولته التي كرم منتهاها، واشكر سعيه عن حوزة الإسلام التي دافع عنها وحماها، اللهم أحط بحسن سيرته جميع الأرجاء، وبلغه بفضلك أقصى الأماني وغاية الرجاء، اللهم أبقه يحيى في هذه الجزيرة رسوم طارق بن زياد، وأدم لنا أيامه التي هي كالمواسم والأعياد، إنك القدير على التمام، المليء بالدوام، وهذا ما حضر والسلام».[٣٩]

ونظن أن وجود هذه الصيغة في خاتمة الكتابين معا مما يرفع الإشكال ويقطع النزاع حول نسبة الكتاب.

وثمة صيغة أخرى نجدها في الكتابين معا، جاء في «الحلل»: «قال كاتب هذا: إن تتبع هذا النوع يخرج بنا عن الغرض المقصود من الاختصار»[٤٠] وفي رونق التحبير مثل هذا: «قال كاتب هذا: إن تتبع هذا النوع يطول به الكلام».[٤١] ومن هذه الصيغ التي نستأنس بها كذلك قول ابن سماك آخر ديباجة «الزهرات المنثورة»: «وهذا حين الابتداء بالزهرات».[٤٢] وجاء في آخر ديباجة «الحلل»: «وهذا حين الابتداء، بما أشرت إليه من الأنباء».[٤٣]

ومما هو مشترك بين الكتابين أيضا قصيدة ابن الصيرفي «العينية» في نصح الأمير تاشفين، ويهمنا بالخصوص ما ورد في تقديم هذه القصيدة في الكتابين، فهو أيضا متقارب في بعض لفظه ومتفق في بعضه الآخر، وهذا نصه في «الحلل»:

«وقد كانت له هزيمة على النصارى من بعد مناجزة جرت بين الفريقين أسلمه فيها جل من كان معه... وعند احتدام {كذا في النص} القتال هنأه الفقيه الكاتب أبو زكرياء بالسلامة.. وحذره من خدع الحرب ونبهه على أحكامها وما ينبغي أن يفعل فيها».[٤٤]

وجاء في تقديم القصيدة في «الرونق» أن الشاعر خاطب بها الأمير:

«إثر هزيمة كانت له على النصارى بعد انحياز ومدافعة بين الفريقين أسلمه فيها كل من كان معه فهنأه بالسلامة وحذره فيها من خدع الحرب ونبهه على أحكامها وما ينبغي أن يفعل فيها».[٤٥]

فهذه الوحدة في الأسلوب تدل على أن «الحلل الموشية» هي لمؤلف «رونق التحبير». ومما هو مشترك بين الكتابين أيضا الحكاية المتعلقة بالترتيب العسكري الذي لجأ إليه عبد المؤمن في مواجهة تاشفين بأحواز تلمسان فلفظ الحكاية واحد في «الحلل الموشية» و«رونق التحبير»،[٤٦] مما يدل على أن مؤلفهما واحد.

«أخبار العصر»

وإذا كنا قد استطعنا الاستدلال على مؤلف «الحلل» بواسطة المقارنة النصية فإننا نقف عاجزين أمام آخر مدونة في تاريخ الأندلس وهي «أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر»، وذلك لأن جميع النسخ الخطية التي وقفنا عليها حتى الآن خالية من ذكر المؤلف، وهو يستعمل من حين إلى حين عبارة «قال المؤرخ عفا الله عنه» أو «قال المؤلف عفا الله عنه»،[٤٧] وهذا مثل ما نجد في كتاب «ذكر بلاد الأندلس» الذي تتكرر فيه عبارة «قال صاحب التاريخ» أو «قال صاحب التأليف» أو قال المؤلف عفا الله عنه»[٤٨] وهذه تكررت أيضا في «القرطاس» مرارا عديدة،[٤٩] ولو أن هؤلاء المؤرخين صنعوا ما كان يصنعه المؤرخون الأقدمون الذين كانوا يستعملون عبارة قال فلان ويذكرون أسماءهم لكفوا الناس مشقة البحث عنهم بدون جدوى، ومهما يكن الأمر فإن كل ما نعرفه عن مؤلف «أخبار العصر» هو أن حظه من العلم قليل فهو يقول في مقدمة كتابه. «وعَوّلتُ في ذلك على الاختصار، وتركت التطويل والإكثار، لأن باعي في التأليف قصير، وبضاعتي في الفصاحة مزجاة».[٥٠]

ونعرف عن المؤلف أيضا أنه كان شاهد عيان للأحداث التي أرخها، وأنه شارك في بعض الغزوات التي وصفها، جاء في كلامه على غزوة المكلين ما يلي:

«قال المؤلف عفا الله عنه: فلقد حدثني بعض الفرسان النجباء من أهل الشجاعة والإقدام في ذلك اليوم ونحن في الطريق راجعين إلى غرناطة».[٥١]

ونظن أن هذا المؤلف كان من الذين انتقلوا إلى العدوة المغربية إثر تسليم غرناطة، وأنه دون بالمغرب أخبار محنة المسلمين في آخر أيامهم بمملكة غرناطة لتكون عبرة لمن يعتبر، ولعل وجود نسخ خطية متعددة من «أخبار العصر» في المغرب فقط[٥٢] دليل على ما قلناه، وقد كتب عنوان نسخة تقع ضمن مجموع كما يلي: «أخبار العصر، في انقضاء دولة بني نصر. تأليف الشيخ الإمام العالم الهمام فريد مصره، ووحيد عصره، سيدي محمد الغمري الشافعي الفلكي». كما أن أحدهم كتب عند نهاية الكتاب طرة هذا نصها:

«هو للغمري الشافعي حسبما رقم بأول ورقة من هذا المجموع المبارك، وهو غلط لكون المنسوب له هو المذكور بعد هذا إلا أن يكونا له معاً فلا أدري»[٥٣]

والمذكور بعد هو «المقتطفات الفكرية على الدائرة التاريخية»، وهو تأليف للغمري المذكور، وقد طمعنا – رغم نسبة الشافعي المذكورة – أن يكون وراء هذا الكلام شيء، ولكن تبين لنا بعد البحث أن الأمر مجرد خلط من ناسخ المجموع، فالمذكور مشرقي عاش بعد سقوط غرناطة بمدة طويلة، وهكذا يبقى هذا الكتاب الذي طبع عدة طبعات مجهول المؤلف.[٥٤]

إن ما أصاب المخطوطات التاريخية والجغرافية من الضياع والبتر والجهل بمؤلفيها هو شيء عام في تراث الغرب الإسلامي وليس خاصا بالأندلس، بسبب ما مر بها من ظروف معروفة، ومما يدل على هذا أن المصادر الموجودة تشير إلى عدد كبير من التآليف المغربية في تاريخ الدول والحواضر والأعلام ولكنها تعتبر اليوم في عداد المفقودات، فأين هو الديوان الضخم الذي ألفه محمد بن يوسف القيرواني في مسالك إفريقية وممالكها؟ وأين هي الكتب الجمة التي ألفها في أخبار ملوك إفريقية وحروبهم والقائمين عليهم؟ وأين هي الكتب الحسان التي ألفها في أخبار تاهرت ووهران وسجلماسة والنكور والبصرة المغربية وغيرها؟[٥٥] وأين هي كتب النوفلي والزليجي وابن الودون وأبي القاسم بن جنون وعبد الملك الوراق وابن عبد الكريم في تاريخ مدينة فاس؟[٥٦] وأين هو تاريخ ابن الأصفر وتاريخ ابن هدية لمدينة تلمسان؟ وأين هو تاريخ سبتة للقاضي عياض وأين هي الكتب التي أُلّفت في تاريخ مدينة مراكش وغيرها؟[٥٧] وأين هو كتاب النبذ المحتاجة، في أخبار صنهاجة بإفريقية وباجة لابن حمادو؟[٥٨] وأين هو كتاب الافتخار في مناقب فقهاء القيروان لأبي بكر عتيق ابن خلف التجيبي؟[٥٩]

فهذه الكتب وغيرها كلها من التراث التاريخي المغاربي الذي ضاع. أما الذي وصل إلينا من هذا التراث فإن فيه الناقص والمبتور والمجهول والمختلف في مؤلفه، فمن النوع الأول تاريخ ابن القطان وتاريخ ابن صاحب الصلاة وتاريخ الرقيق القيرواني و«مناهل الصفا» للفشتالي إذ لم يصلنا إلا جزء واحد من كل كتاب من هذه الكتب ذوات الأجزاء العديدة.

ولدينا من النوع الثاني كراريس مختلفة مبتورة من كتب تاريخية، ويوجد عدد من مثل هذه الكراريس في خزانة القرويين وغيرها.

ومن النوع الثالث كتاب «الخبر عن الدولة السعدية» فجميع النسخ الخطية من هذه المدونة التاريخية المهمة لم يذكر فيها اسم صاحبها، ويبدو أن المؤلف ترك ذلك قصدا لخوفه من العواقب، فقد اشتملت المدونة على ذم الدولة السعدية والحط من قدرها، وهذا المؤلف الذي أدرك أوائل الدولة العلوية لم يكن معروفا لدى معاصره المؤرخ الإفراني ولم يعرفه المؤرخ الزياني كذلك، وكلاهما وقفا على الكتاب ونقلا منه.[٦٠] ولعل في هذا دليلا على تداول الكتاب إذ وصل إلينا منه أزيد من خمس نسخ خطية، وقد طبع بالرباط سنة ١٩٣٤ ونشر مترجما إلى الفرنسية قبل هذا التاريخ.[٦١]

ومن هذا النوع الثالث أيضا، كتاب «الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية» فهو مجهول المؤلف إذ لم يذكر فيه أوله في النسخ الخطية، ولم يرد للكتاب ذكر في المصادر المعروفة وغاية ما يستفاد من الكتاب أنه ألف برسم السلطان المريني أبي سعيد الأول، وقد قام بعض الدارسين بالمقارنة بينه وبين «القرطاس» وذهب آخرون إلى أن مؤلف الكتابين واحد، وهو ابن أبي زرع في اجتهاد بعضهم.[٦٢]

أما النوع الرابع والأخير فهو الذي وقع الخلاف في مؤلفه ومن هذا النوع كتاب «القرطاس»، ويرجع سبب الخلاف إلى أن الكتاب نسب في بعض النسخ الخطية إلى صالح بن عبد الحليم ونسب في بعضها الآخر إلى ابن أبي زرع، ومن هنا اختلف الناس قديما وحديثا في المؤلف بيد أن الأمر جرى على نسبة الكتاب إلى ابن أبي زرع، وبهذه النسبة طبع مرارا.[٦٣] ومن هذا النوع أيضا كتاب «بيوتات فاس الكبرى»، فقد نسبه بعض المؤرخين إلى الأديب إسماعيل ابن الأحمر ونسبه آخرون إلى بعض تلاميذ الفقيه القوري. أما نسبة الكتاب كله لابن الأحمر فيردها أنه يشتمل على تواريخ متأخرة عن وفاة المذكور بمائة سنة تقريبا، ويبدو أن أكثر من واحد اشترك في تأليف هذا الكتاب الذي طبع مرتين.[٦٤]

وبعد فإن هذه البلية التي ذكرت أمثلة منها ليست خاصة بمخطوطات التاريخ والجغرافيا، فهي توجد في مخطوطات العلوم الأخرى أيضا، ولكنها تبدو في مخطوطات العلمين المذكورين أكثر من غيرهما، فما أسباب ذلك؟ وهل ثمة حلول أو حظوظ في التوصل إلى معرفة هؤلاء المؤلفين المجهولين وأمثالهم؟ فأما الأسباب فإنها متعددة، ولعل أولها في ما يبدو أن تأليف التاريخ

والجغرافية لم تكن من التآليف التي تروي عن أصحابها وتدون في كتب البرامج والفهارس، وقد كان لهذه الكتب كما هو معروف دور كبير في توثيق المؤلفات، إذ كانت بمثابة البيليوغرافيات في وقتنا.

ومن الأسباب أيضا أن التاريخ والجغرافيا لم يكن لهما قبول في بعض البيئات العلمية، فقد قيل في التاريخ إنه علم لا ينفع، وجهالة لا تضر، وشاع هذا القول في عصور الانحطاط، وكان من أثر ذلك انصراف الناس عن انتساخ كتب التاريخ، ولهذا انبرى عدد من العلماء المتنورين كالسخاوي وغيرهم للدفاع عن هذا العلم والرد على الذين كانوا يهملونه أو يذمونه.

ومن الأسباب كذلك أن بعض تلك المؤلفات المجاهيل لم تكن إلا تلاخيص من مطولات منسوبة إلى أصحابها فكأن الملخصين رأوا أنه لا حق لهم في ادعاء تآليفها ونسبتها إلى أنفسهم، ومهما يكن الأمر فإن التلاخيص المذكورة التي وضعها مجهولون كانت من أسباب ضياع الأصول الملخصة إذ أنها حلت محلها. ومما يمكن ذكره من الأسباب أيضا زهد بعض المؤلفين من ذوي الورع، وعدم حرصهم على أن تنسب مثل الكتب المذكورة إليهم.

ونشير بعد هذا إلى سبب قوي في هذا المجال ألا وهو الخوف والتقية، وبهذا السبب نفسر جملة من الأدبيات الانتقادية التي وصلت إلينا غير منسوبة مثل الكتاب الذي ذكرناه في آخر أيام بني نصر والكتاب الآخر في تاريخ الدولة السعدية، فإن مؤلفي هذين الكتابين تعمدا عدم ذكر اسميهما خوفا وتقية، ومن المعروف أن عددا من المؤرخين امتحنوا بسبب كتاباتهم التاريخية، وثمة طائفة من الأشعار الأندلسية الانتقادية يجهل قائلها لهذا السبب.[٦٥]

ويضاف إلى ما ذكرناه سبب آخر ألا وهو البتر الذي يحدث في أول المخطوط - ولا سيما ورقة الغلاف - وكذلك في آخره أحيانا، فإذا حدث هذا في نسخة أم أو وحيدة فإن التهدي إلى معرفة المؤلف يصبح عسيراً، وللمشتغلين بالمخطوطات تجارب مختلفة في هذا الموضوع لن اتحدث عنها فهي معروفة لدى المتخصصين ولكني سأختم هذا العرض الموجز بالإشارة إلى محاولات كانت لي مع بعض الحالات من هذا النوع.

فالحالة الأولى كانت مع مخطوط في الإسكوريال تنقصه الورقة الأولى وجاء في آخره ما يلي: «تم كتاب التنبيه، على المغالطة والتصويه، وإقامة المال، عن طريق الاعتدال بالبرهان الكافي، والبيان الشافي» وهو كتاب يرد فيه من

كنيته أبو حاتم علي شروح للأشعار الجاهلية وضعها من كنيته أبو المطرف. وقد كانت نسبة هذا الكتاب إلى أبي المطرف أحمد بن عميرة المخزومي ضربا من الجهل الفظيع، ويمكن الرجوع إلى ما كتبته في توثيق هذا الكتاب وتحقيق نسبته إلى رسالتي الجامعية المطبوعة حول أبي المطرف ابن عميرة.(٦٦)

والحالة الثانية التي عنيت بها في هذا المجال هي حالة «كتاب الاستبصار» الجغرافي الذي أظن أني توصلت إلى مؤلفه وهو ابن عبد ربه الحفيد، وقد فصلت القول في هذا في كتابي الذي عرفت فيه بهذا الأديب.(٦٧)

والحالة الثالثة تتعلق بشرح أندلسي لشعر المتنبي لا يوجد منه الآن إلا نصفه الأخير، وليس فيه ذكر لاسم الشارح ولكن البحث أدّاني إلى التوصل إلى صاحبه وهو ابن عبد ربه الحفيد أيضا، وقصة هذا الكشف مسرودة بتفصيل في الكتاب المذكور آنفا.(٦٨)

والحالة الرابعة واجهتها في ديوان غرناطي كتب في طرة نسخته الوحيدة أنه لابن الخطيب فكشفت قراءته أنه القسم الثاني من ديوان لأبي الحسين ابن فركون. وهو شاعر غرناطي لم يكن معروفا قبل هذا.(٦٩)

وثمة حالة خامسة عالجتها في نص نشر في أول عدد من مجلة كلّية الآداب (يناير ١٩٧٧) ونعني به «طرفة الظريف في أهل الجزيرة وطريف» وقد وصلتنا نسخة وحيدة أثراني بها مشكورا العلامة الصديق السيد محمد المنوني جزاه الله خيرا، وهذه النسخة مبتورة الأول ولكن يرد فيها ذكر مؤلفها باسم عبد العزيز فقط، وقد توصلت إلى أن المقصود به هو الشاعر المؤرخ عبد العزيز الملزوزي.(٧٠)

ومن الحالات الأخيرة التي وفقت فيها بحمد الله في هذا الباب تحقيق نسبة النسخة الغفل الموجودة بالإسكوريال من كتاب «مختصر المستصفى» إلى صاحبها ابن رشد الحفيد، وقد كان تلميذي وصديقي المرحوم الدكتور جمال الدين العلوي أطلعني على الكتاب وأعطاني صورة منه، واستطلع رأيي في مؤلفه، وكان فحصه للكتاب قد أداه إلى أنه لابن رشد، ولكنه لم يقف على دليل نقلي، ثم توفي رحمه الله وترك الكتاب في المطبعة وبينما كنت أقرأ مخطوطة «روضة الأعلام» لابن الأزرق وقفت على ما يلي:

«لما اختصر ابن رشد الحكيم مستصفى الغزالي في أصول الفقه أسقط منه المقدمة المنطقية قائلا: ونحن فلنترك كل شيء إلى موضعه، فإن من رام أن يتعلم أشياء أكثر من واحد في وقت واحد لم يمكنه أن يتعلم ولا واحدا منها»

ولما وقفت على هذا الكلام رجعت إلى صورة المستصفى المذكورة فوجدت فيها الكلام نفسه، وهكذا وجد الدليل النقلي لنسبة الكتاب إلى صاحبه، وقد اتصلت بالقائمين على مراجعة التجارب وأخبرتهم بالأمر فأثبتوه في إحدى حواشي الكتاب.[٧١]

والواقع أن الذين يشتغلون بالمخطوطات يجدون متعة وفائدة ومغامرة أحيانا في تتبع هذه الأمور، وإني لأذكر كيف غامرت في أول زيارة لي إلى انجلترا بتكليف من وزارة الثقافة المغربية من أجل الوقوف على كتاب في التاريخ نسب إلى الشاعر ابن زيدون وقيل إنه موجود في المتحف البريطاني، ولكم شعرت بالخيبة عندما وجدت أن الرقم الذي أحالني عليه بونس بويجس وبروكلمان ليس الكتاب المنشود وإنما هو شرح الصفدي لرسالة ابن زيدون الجدية، ولكن المغامرة كانت باعثا لي على كتابة بحث في الموضوع عنوانه: «حول نسبة كتاب في التاريخ إلى الشاعر ابن زيدون»[٧٢] وهو عمل قمت بما يشبهه بعد ذلك في تعريفي بالحكيم المؤرخ الأندلسي المجهول.[٧٣] وفي ضبطي لاسم ابن غمر الكاتب المؤرخ الإشبيلي المنسي[٧٤] وغير ذلك.

وثمة إشكال آخر يعانيه المشتغلون بمعالجة المخطوطات ونعني به إشكال المؤلفين المجهولين أي الذين لا توجد لهم تراجم في كتب الطبقات، ولي تجربة متواضعة في هذا المجال يمكن الرجوع إليها فيما كتبته عن البسطي والحُكيّم والكفيف الزرهوني[٧٥] وغيرهم.

إن الذين يشتغلون بخدمة المخطوطات يقفون على مؤلفات لا يعرف لها مؤلف، ولا ذكر لها في المظان أو على مؤلفات منسوبة إلى غير أصحابها أو على مؤلفين غير معروفين أو على ما يشبه هذه الحالات وهم يحتاجون في مواجهة هذه الحالات إلى الصبر الطويل والبحث الدقيق والوقت الكثير والمثابرة المستمرة، وهي صفات من شأنها أن تقود إلى الظفر بالمطلوب إن شاء الله.

الحواشي

(١) انظر: F. Pons Boigues, *Los Historiadores y Geógrafos Arábigo-Españoles* (Madrid, 1898; reprint Amsterdam, 1972).

(٢) راجع في كتب ابن حيان:ابن حيان، «المقتبس»، بيروت ١٩٧٣، مقدمة الدكتور محمود علي مكي، ص ٦٥-٨٥.

(٣) ابن بشكوال، «كتاب الصلة»، ed. F. Codera, Bibliotheca Arabico-Hispana I-II (Madrid, 1882-3), 349, no. 756, (= تحقيق العطار [١٩٥٥]، ٢٣٨).

(٤) تراجع تراجم المذكورين في كتب الطبقات الأندلسية.

(٥) تراجع مقالتنا: حول مؤرخ أندلسي مجهول، مجلة الأكاديمية الملكة المغربية، الرباط، العدد ٢ فبراير ١٩٨٥.

(٦) عثر على بقايا هذا السفر السابع من كتاب العذري في مكتبة خاصة بالقدس، وقد نشرت تحت عنوان «نصوص عن الأندلس» بتحقيق الأستاذ المرحوم الدكتور عبد العزيز الأهواني، منشورات معهد الدراسات الإسلامية في مدريد. وأصل البقايا المذكورة من نسخة تامة كانت في ملك عبد العزيز ابن الَّجوم الفاسي صاحب المكتبة الشهيرة التي لم يكن لأحد من أهل عصره مثلها، ولما مات سنة ٦٠٥هـ باعتها ابنته الوحيدة بأربعة آلاف دينار، ويعلم الله متى نقلت مخطوطة العذري هذه من المغرب إلى المشرق.

(٧) كان السفر المذكور في ملك الشيخ عبد الحي الكتاني ثم أعاره للمستعرب ل. بروفنسال، ولما مات هذا بيع السفر إلى المعهد المصري في مدريد، وقد قام بتحقيقه الدكتور محمود علي مكي ونشرته كلية الآداب بالرباط وأعيد نشره أخيرا في بيروت.

(٨) الأسفار أو الأجزاء المذكورة هي التي أخرجها على التوالي ملتشور أنطونيا Le P. Melchor M. Antuña وعبد الرحمن الحجي ومحمود علي مكي وشالميتا P. Chalmeta ومن معه.

(٩) الإشارة إلى بقية السفر الرابع والسفر الخامس والسفر السادس التي نشرت بتحقيق الدكتور إحسان عباس والسفر الأول والسفر الثامن اللذين نشرا بتحقيق الدكتور محمد بن شريفة.

(١٠) راجع تاريخ الفكر الأندلسي لأنخل جُنثالث بالنثيا، ترجمة الدكتور حسين مؤنس. ص ١٩٨ وما بعدها.

(١١) *Una Crónica Anónima de ʿAbd al-Raḥmān III al-Nāṣir*, ed. E Lévi-Provençal y E. García Gómez (Madrid/Granada, 1950),pp. 15-22.

(١٢) المصدر نفسه ص ٦٥ من النص العربي وص ١٣٦ من الترجمة الأسبانية.

(١٣) «المقتبس»، س. ٥ ص ١٧٣.

(١٤) انظر: «الذيل والتكملة»، ١، ٢٧٤، ح.١.

(١٥) انظر النص الذي نشره الدكتور أحمد مختار العبادي في:

Revista del Instituto de Estudios Islámicos en Madrid, XIV (1967-8), 155-7.

(١٦) انظر على سبيل المثال مواد مالطة وصقلية وسردينية في «الروض المعطار»، وراجع أيضا مقدمة «المسالك والممالك»، ج ١ ص ٢٩ (١٩٩٢).

(١٧) انظر تأليفنا: «ابن عبد ربه الحفيد»، بيروت ١٩٩٢، ١٥٩-١٩٤.

(١٨) راجع كراتشكوفسكي، «تاريخ الأدب الجغرافي»، بيروت ١٩٨٧، ص ٢٠٢.

(١٩) راجع مقدمة ل. بروفنسال

E. Lévi-Provençal, *La péninsule ibérique au moyen-âge* (Leiden, 1938), ix-xviii;

ومقدمة إحسان عباس ومقالة محمد المنوني في مجلة المناهل، ع١٠ ص ٣٦٧-٣٧٢.

(٢٠) Luis Molina, *Una Descriptión Anónima de Al-Andalus* (Madrid, 1983), vol. I:

«ذكر بلاد الأندلس» ١: ٣٥، ٩١، ١٠٧، ١٧٥، ١٨٢ الخ وتستعمل أحيانا عبارة «قال صاحب التأليف»

(٢١) راجع «نفح الطيب» ١: ١٩٧ ولويس مولينا (١٩٨٣) ٢:٢٠٣.

(٢٢) لويس مولينا (١: المقدمة الأسبانية).

(٢٣) نفسه: (١: المقدمة الأسبانية).

(٢٤) نفسه: (٢:٢٠٤).

(٢٥) كتاب «مفاخر البربر»، مخطوط الخزانة العامة بالرباط (١٠٢٠ د) ورقة ٨ .

(٢٦) «البيان المغرب» ١: ٢٧.

(٢٧) «مفاخر البربر»، ١٤ظ. (مخطوط).

(٢٨) ابن عبد الحليم، «دلائل القبلة»، ١٥ مخطوط الخزانة العامة.

(٢٩) «مفاخر البربر»، ١٥ظ. (مخطوط) وفي صحيفة المعهد المصري:

Revista del Instituto Egipcio de Estudios Islamicos en Madrid, II (1373/1954), 223.

(٣٠) نفسه: ص ٢٠٢.

(٣١) «مفاخر البربر»، ٢١ظ. (مخطوط).

(٣٢) «مفاخر البربر»، ٣٧ظ (مخطوط)، وتحقيق ل. بروفنسال، الرباط، ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م، ص ٧٥.

(٣٣) *Revista del Instituto Egipcio de Estudios Islamicos en Madrid*, II (1373/1954), 201.

(٣٤) «الحلل الموشية»، ١٩٧٩، ص ١٨١.

(٣٥) «البدور الضاوية»، ٣ (مخطوط). وقد تحرفت العاملي إلى العامري، وهكذا نقلت في كتاب «المصادر العربية لتاريخ المغرب»، ١٠٥.

(٣٦) «رونق التحبير»، (مخطوط الخزانة العامة رقم ٢٩٥ق)، ١-٢.

(٣٧) «الحلل الموشية»، الديباجة.

(٣٨) «رونق التحبير»، الديباجة.

(٣٩) «الحلل الموشية»، ١٩٠؛ و«رونق التحبير»، ٤٩.

(٤٠) «الحلل الموشية»، ٣٠، ٣٢.

(٤١) «رونق التحبير»، ١٥و.

(٤٢) ابن سماك، «الزهرات المنثورة»، ٥٤. تحقيق محمود علي مكي (مدريد ١٩٨٤).

(٤٣) «الحلل الموشية»، ١٤.

(٤٤) نفسه: ١٢٤.

(٤٥) «رونق التحبير»، ٢٨ظ.

(٤٦) «الحلل الموشية»، ١٣٢؛ و«رونق التحبير»، ٢٨ظ.

(٤٧) «أخبار العصر»، تحقيق موللر M. J. Müller، مونيخ، ١٨٦٣، ص ٢، ٦، ١٧.

(٤٨) «ذكر بلاد الأندلس» ١، (Molina, *Descriptión Anónima*, I): ٢٩، ٤٧-٨٤، ٨٧، ٩١، ١٠٧، ١٧٥.

(٤٩) لـ«روض القرطاس» أو «الأنيس المطرب» طبعات متعددة، ولذلك لم أر هنا فائدة لتعداد أرقام الصفحات التي ترد فيها العبارة المذكورة.

(٥٠) «أخبار العصر»، ٢.

(٥١) نفسه: ١٧.

(٥٢) وقفنا على خمس نسخ في الخزانة العامة بالرباط وبعض الخزائن الخاصة، وقد افترض المرحوم عنان أن المؤلف من الذين بقوا في غرناطة وأخفى اسمه تقية ولكن هذا الافتراض لا أساس له إذ أن في الكتاب إشارة إلى أنه كان في المغرب.

(٥٣) مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم ١١٧٧ ك، ص ٢٢٩.

(٥٤) طبع أول مرة في مونيخ سنة ١٨٦٣ بعناية مارك جوزيف موللر ونشره بعد ذلك شكيب أرسلان ثم طبع نصه العربي مع ترجمة إسبانية في مدينة العرائش ١٩٤٠ ثم ظهرت طبعة جديدة بعناية د. محمد رضوان الداية عام ١٩٨٤ ولعل آخر طبعة للكتاب فيما أعرف هي التي أخرجها د. حسين مؤنس عام ١٩٩١.

(٥٥) «الذيل والتكملة»، ٨: ٣٦٥ (مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ١٩٨٤).

(٥٦) جميع المذكورين لهم تآليف في تاريخ مدينة فاس ويوجد النقل عنهم في بعض المصادر.

(٥٧) ذكره ابن الخطيب في مقدمة «الإحاطة في أخبار غرناطة»، القاهرة، ط. ث. ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ١: ٨٣.

(٥٨) «الذيل والتكملة»، ٨: ٣٢٤.

(٥٩) «مفاخر البربر» (انظر فهرس القسم المطبوع).

(٦٠) «تاريخ الدولة السعدية»

Chronique anonyme de la dynastie sa'dienne, ed. G. S. Colin (Rabat 1353/1934)

(٦١) أعلنت المطبعة الملكية بالرباط عن قرب ظهور طبعة جديدة لهذا الكتاب.

(٦٢) راجع مقالة المرحوم عبد الله كنون في مجلة تطوان (ع. ٢) ص ١٤٥.

(٦٣) راجع مقدمة الطبعة التي أخرجها الأستاذ عبد الوهاب بن منصور.

(٦٤) راجع أيضا مقدمة الأستاذ عبد الوهاب بن منصور لهذا الكتاب.

(٦٥) نذكر على سبيل المثال من المؤرخين الذين امتحنوا ابن الابار وعبد العزيز الملزوزي، وراجع في الاشعار الانتقادية المجهولة القائل كتاب «البيان المعرب» لابن عذاري ٢: ٢٨٠، ٤: ٢٥١ وكتابنا «البسطي آخر شعراء الأندلس»، بيروت، ١٩٨٥، ص ١٧٦؛ وفي «نفح الطيب» قصائد في رثاء الأندلس غير منسوبة للسبب نفسه.

(٦٦) «أبو المطرف أحمد بن عميرة – حياته وآثاره»، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط ١٩٦٦، من ص ٢٦٩ إلى ص ٢٨٤.

(٦٧) «ابن عبد ربه الحفيد – فصول من سيرة منسية»، ط. دار الغرب الإسلامية، بيروت ١٩٩٢، من ص ١٥٩ إلى ص ١٩٤.

(٦٨) المصدر نفسه، ص ١١٠-١٣٩.

(٦٩) «ديوان ابن فركون»، (مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ١٩٨٧)، ٥

(٧٠) مجلة كلية الآداب - جامعة محمد الخامس - العدد الأول (يناير ١٩٧٧)، ١٤-١٦.

(٧١) «مختصر المستصفى»، (ط. دار الغرب الإسلامي ١٩٩٣)، ٢١.

(٧٢) وزع مرقونا بمناسبة الذكرى الألفية لابن زيدون (الرباط ١٥-٢٢ أكتوبر ١٩٧٥).

(٧٣) نشر في مجلة أكاديمية المملكة المغربية ع ٢ (١٩٨٥).

(٧٤) يوجد تحت الطبع.

(٧٥) راجع مقدمة ملعبة الكفيف الزرهوني - المطبعة الملكية بالرباط (١٩٨٧).